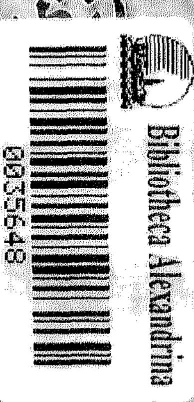
د. زهير غزاوي

المؤسسات الدينية الإسلامية والكيان الصهيوني

(نظرة إلى فتوى ابن باز بجواز الصلح)





المؤسسا ت الدينية الاسلامية
والكيان الصهيوني

د. زهير غزّاوي

المؤسسات الدينية الاسلامية والكيان الصهيوني

(نظرة الى فتوىٰ ابن باز بجواز الصلح)





١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م



حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية فضل الله ورضا ـ بلوك (ب) ـ الطابق (٢)
ص.ب: ٢٤/٥٠ ـ ت: ٦٤٤٦٦٢(٠٣)
بيروت ـ لبنان

كلمة الناشر:

بسم الله الرحمن الرحيم

عقيب حرب الخليج الثانية تسارعت الخطى نحو ما يعرف بالسلام، ومحاولة تصفية الصراع العربي ـ الصهيوني برعاية القطب الامريكي المتفرد بزعامة النظام العالمي الجديد، وانما وصفنا هذه الخطى بالتسارع لانها لم تغب بالفعل عن التحرك السياسي العربي تجاه تسوية الصراع مع العدو الصهيوني، ولكنها بقيت محاولات فردية وخجولة وإن تجاوز البعض إشكاليتها.

وفي جميع هذه المحاولات الفردية منها والجماعية الآن، مارست الانظمة العربية ـ ولا تزال ـ تغطية محاولتها الاستسلامية بما هو مقدس وما هو قيمي، وليس ثمة اكثر قدسية وقيمة من الدين.

وفي هذا الاطار سعت الانظمة العربية الى استصدار فتاوى من (الطواقم) الدينية التابعة لها لتضليل الناس ومحاولة اقناعهم، وكان آخر هذه الفتاوى، فتوى لأكبر عالم في المؤسسة الدينية السعودية! التابعة والمتماهية مع النظام السعودي، أجاز فيها الصلح مع اسرائيل.

وقد اثارت هذه الفتوى حفيظة الغيارى من ابناء الاسلام من علماء ومثقفين للدفاع عن الاسلام ومقدساته والحؤول دون تشويهه والقفز على مبادئه.

وفي هذا الاطار يقدم مركز الغدير للدراسات الاسلامية كتاب (المؤسسات الدينية الاسلامية والكيان الصهيوني بين الدين والتاريخ نظرة الى فتوى إبن باز)

للدكتور زهير غزاوي، عالج فيه فتوى ابن باز الاخيرة وموقف العلماء المسلمين منها.

وللوقوف على طبيعة الموقف الصحيح من الكيان الصهيوني وخلفية هذه الفتاوى الشاذة، استنطق الدكتور غزاوي التاريخ الاسلامي، للكشف عن العلاقات الاسلامية ـ اليهودية ابتداءً من عهد الرسول الكريم(ص) الى عهدنا اليوم. ثم ركَّز الحديث على فتوى ابن باز تحديداً والموقف الاسلامي العام المضاد، ومرتكزاته الشرعية والواقعية.

وإنما يقدم المركز كتاب الدكتور غزاوي فانه يقدم احد الباحثين الفلسطينيين ممن واكب حركة الثقافة والسياسة معاً، آملاً أن يؤدي جزءاً من مسؤولياته تجاه مقدسات الاسلام وفي مقدمتها القضية الفلسطينية والقدس تحديداً، وان ينال هذا الكتاب رضا الجماهير الاسلامية الواعية.

مركز الغدير للدراسات الاسلامية

الإهـــداء

إلى الأحد عشر . . الذي أحبهم
والصديقين
الشيخ حامد أبو راس
الشيخ عبد العزيز جحجاح

تنويـــه

أتقدّم بالتقدير إلى العاملين في المكتبة الوطنية بدمشق (مكتبة الأسد) وأخصّ:

الآنسة منى الصالح العبادي مديرة الإعارة

الآنسة رائدة الخيمي أمينة القاعة الثانية

نظراً لما قدمتاه من مساعدة قيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

ليس ممكناً أو منطقياً أن نتعامل مع الفتاوى التي صدرت وستصدر حول مسألة جواز الصلح مع الكيان الصهيوني إلا من خلال نظرة شمولية، كما أنه يستحيل في الآن ذاته فصل تلك الفتاوى المستندة إلى الإسلام وحتى الاسلام ذاته عن السياسة والتاريخ والظروف الموضوعية، والمفتي، تماماً كاستحالة فصل الأغنية عن المغني.

لكل ذي عينين تبدو المسألة بجلاء. . إن رجال دين قد أدلوا بآراء استقوها من الدين الإسلامي تؤيد الصلح مع العدو، وفي الآن ذاته قام آخرون بالرد عليهم وتسفيه آرائهم باعتبارها لا تمت إلى الدين بصلة، أو على أقل تقدير أنها تتعسف بتحميل مؤيداتهم من الآيات والأحاديث ما لا تحتمل، ولعل بعضهم وهو يقوم بالرد مدلياً بدلوه، شكك في صحة نسبة الفتوى إلى المفتي وطالب إن ثبت ذلك بأن يعيد ذاك المفتي النظر بفتواه أو سحبها من التداول. وإذا جاز لنا القول، ونحن ندلي بدلونا أيضاً، فإن الحالة السائدة تبدي تشوشاً واضطراباً عرفته الأمة الإسلامية ومنها العرب في فترات متعددة من التاريخ القريب والبعيد، ومما تثبته بوضوح أيضاً أن الإسلام العظيم لا زال يحتل كأيديولوجيا نفس الأهمية التي كانت له منذ البعثة النبوية الشريفة قبل أربعة عشر قرناً من الزمن، وهذا ما يبعث على الأمل والبهجة، ذلك أن الجهات التي تقف وراء إصدار الفتاوى سلباً أو إيجاباً تدرك إن الإسلام ـ رغم العلمانية الطاغية ـ لا يزال المحرك الأهم للجماهير المسلمة التي تجاوزت

المليار ونصف من البشر في أرجاء الكون بدليل أن الطغاة الذين يتولون السلطة في معظم الدول الإسلامية يدركون حاجتهم الماسة لغطاء إسلامي لتصرفاتهم الهزيلة واستسلامهم المذل أمام العدو الصهيوني وغيره من الأعداء.

في الوقت ذاته تعود المؤسسة الدينية الإسلامية، خاصة الرسمي منها، إلى الواجهة، والمؤلم في موضوع مواقف هذه المؤسسة راهنا أنها تظهر للقوى المعادية أن الإسلام أصبح إسلامات وليس مذاهب تتفق على هدف واحد، كما عبّر أحد رجال الدين الأجلاء ممن عارض فتوى الموافقة على جواز الصلح مع العدو الصهيوني.

تنحو هذه الدراسة إلى استكناه مستقبل الأمة في ظل الإسلام على ضوء الماضي خاصة في موضوعة الصلح مع العدو الصهيوني. الحياة حركة دائمة التقدم مكوّنة أبعاد الزمن الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل. فإن الأيديولوجيا الإسلامية تبدو باستمرار الثابت الوحيد ضمن مجموعة من المتحولات. إن حركة الحياة في كل مظاهرها وحتى مسائل العلوم والرياضيات تتضمن ثابتاً ومتحولات أو بالأحرى ثوابت ومتحولات، ويتم من خلالها قياس أو تقويم المتحول بالرجوع إلى الثابت. وفي مقابل الذين يهاجمون الأيديولوجيات باتهامها بالثابت الجامد في خضم حركة الحياة الدائمة الى الأزل يمكن القول أن الدين لم يكن أبداً عقبة في وجه التطور. لقد كان ولا يزال ناظماً أساسياً للتطور، يعطي الحياة التوازن الذي لا يمكن الاستغناء عنه. فالدين مجموعة من القيم الأخلاقية والأسس التي تنظم الحياة وتسمو بها عن طبيعة الغابة وقوانينها إلى سدة الإنسانية.

ولقد اعترف الماديون المفرطون في ماديتهم بوجوبية القيم وثباتها وأنها أعمدة نشوء المجتمعات والمصدر الوحيد للتقييم والقياس وبزوغ المدنيات والحضارات؛ ذلك، رغم أنهم اعتبروها من مفرزات الإنسانية ذاتها، ولا فرق في هذا كما أظن إذا أجيز لنا أن نهمل المصدر مؤقتاً في سبيل الحديث عن أن القيم ثوابت، كانت وستبقى، والحياة حركة.

إذن لا غناء عن الثابت الذي يمثله الدين بكل مضامينه التي يوافق عليها مجمل الناس أو يرفضها بعضهم. فهو مصدر القيم التي هي مصادر للقوانين والتشريعات الناظمة لحياة الناس على مر العصور، وظلت القيم الأخلاقية تحديداً تمتلك صفة الإطلاق وترتبط بالمطلق، حتى والناس يختلفون على تعريفها ونسبيتها لهذا المجتمع في مقابل ذاك.

والدين الإسلامي يرتبط بالتاريخ برغم اتصافه بالثبات وتضمنه للثوابت. فهو يلتحم بشخصية الرسول محمد(ص) قولاً وعملاً وصمتاً، والرسول الكريم صار جزءاً من التاريخ رغم أنه حيّ بحضوره المستمر في قلوب المؤمنين. السنة النبوية جزء أساسي من الدين، وهي كما نعلم ما قال أو فعل أو صمت عن فعل ما. لقد أخذنا الرسالة عن الرسول، فهي هو، وهو هي، شئنا أم أبينا، والسيرة تاريخ مسجل في الكتب تبذل الجهود المريرة لفصل الصحيح منها عن المزيف، ورغم ذلك فهي جزء من الدين وبنى عليها قياس ما يجب أن يتم السلوك على أساسه في المستقبل، وكأنما يبدو التاريخ البعيد حاكماً أو ناظماً للقادم من الزمن، وفي ذلك إشكالية كما يبدو للعيان، ومع ذلك فالأمر أشد بساطة مما هو عليه من مظاهر التعقيد.

الفتوى الإسلامية في الأمور التي تتعلق بالسياسة غالباً هي قياس للحاضر على ضوء الماضي، فالزمن وأحداثه لا تتكرر أبداً رغم تشابهها في أحيان، والسياسة فعل الراهن وحركيته البالغة السرعة والتعقيد. ولقد كان الرسول الكريم، رجل دولة بالدرجة الأولى، مارس القيادة الشاملة في خضم جهده كرسول من الله، وبلغت شفافيته ذروتها كقائد ورسول معاً. ولأن الأغنية لا تنفصل عن المغني ولأن المغني يظل في كثير من الظروف أهم من الأغنية ذاتها بما لا يقاس، جاء القرآن الكريم مدعماً لشخصية الرسول إلى درجة دفعت كثيراً من الباحثين والمستشرقين إلى التساؤل عن السبب الكامن وراء ذلك.

ولنتصور مثلاً مصير الإسلام بكل ما فيه من جلال إذا ثبت أن في الرسول مطعناً ما يمس شرفه أو مكانته أخلاقياً أو سلوكياً، وماذا يبقى من هذا الدين إذا

فصلنا عنه رسول الله كما يحاول بعضهم أن يفعل الآن بزعمه أن القرآن هو المصدر الأوحد للإسلام لا ينظر إلى غيره.

وبالعودة إلى التاريخ فإن رسول الله(ص) خاض صراعاً لنشر الإسلام مع قوى متعددة لم يكن المشركون أشرسها. لقد كانت الجزيرة العربية رغم جاهليتها تتكون من فسيفساء من الأديان، وظل اليهود ـ الذين كانوا من أقدم الموحدين بين الأديان المتواجدة ـ أكبر القوى المناهضة للدين. وهنا لا بد من التنويه أن أكبر معجزة للرسول ظلت استطاعته نشر الإسلام في ظروف تعتبر من أصعب الظروف التي تواجه داعية إلى الله في تاريخ البشرية. صحيح أنه كان مؤيداً من الله ولكنه اكتسب صفة كونه من أولي العزم بحق لأنه اتّسم بالصبر والجلد والمثابرة على الدعوة بين قوم تبدو صفة الجاهلية غير كافية حقاً لوصفهم، ناهيك عن الظروف الموضوعية التي تمثلها الصحراء القاحلة وقانون الغاب السائد، وانعدام العلم والثقافة، ونوعية الأمم الناهضة الحضارية المحيطة بهم كالفرس والروم.

ناهض اليهود الدين الجديد باعتباره العدو الأول، وخاض النبي محمد(ص) صراعاً أيديولوجياً وحربياً معهم حتى أجلاهم عن المنطقة الفسيحة الممتدة حتى اليمن. وأن نظرةً على راهن الصراع مع اليهود تثبت أنهم لم يتخلوا عن الصراع ضد الإسلام وشخصية الرسول رغم مضي أربعة عشر قرناً، كأنما يتصل الحاضر بالماضي بشكل وثيق إلى حد الغرابة، ولا توجد شخصية ممتدة موصولة الذاكرة بالماضي السحيق كالشخصية اليهودية. ولعلّ هذا ما دعاني إلى إيلاء هذه المسألة المعقدة ما تستحقه في إطار هذه الدراسة، وبالتحديد ما تلا وفاة الرسول الكريم من تشويش مارسه اليهود بأشكال متعددة باطنية، في محاولة لوصل القرآن الكريم بالتوراة، ومما يجدر بنا قوله (وسيأخذ مكانه في هذا الكتاب) أنهم حققوا بعض النجاحات الهامة على هذا الصعيد، وهناك أمثلة عديدة كان أبرزها معاصرة بعض التفاسير التي توثق الربط بين القرآن والعهد القديم بشكل لم يسبق له مثيل. إن الصراع مع اليهود تاريخياً أتيح له في هذا العصر الذي نعيشه أن يأخذ الشكل الذي خططت له الحركة الصهيونية بعد بروز الإمبريالية كأعلى مرحلة من مراحل

الاستعمار القديم، وهو أن يضع اليهود أقدامهم في الأرض المقدسة فلسطين وفي القدس الشريف تحديداً، فهل حقق هؤلاء نصرهم الأخير ضد الإسلام والرسول العظيم كما لا يخفون في كتاباتهم وأحاديثهم؟؟ إن ما يجري الآن يتعدى النصر العسكري العابر والمرحلي الذي يمكن للأمة أن تتجاوزه، أنهم مستفيدين من دروس الماضي يسعون لتحقيق نصر أكبر من خلال السيطرة على قناعات المسلمين وإخضاعهم وتحطيم القلعة من الداخل، ولم يكن ذلك ممكناً إلا من خلال المؤسسة الدينية الإسلامية الرسمية المرتبطة بالحاكم الطاغية. ويمكنني الجزم بحق أنهم في طريقهم إلى تدمير الأيديولوجيا ذاتها، وسيكون هذا ـ إن تغاضى المسلمون وخاصتهم المثقفة ـ هو نصرهم الأخير فعلاً.

لقد كانت القضية الفلسطينية (وهو ما سيعالجه هذا الكتاب بإيجاز) مجرد مدخلهم للسيطرة على الوطن الإسلامي. وتدمير الإسلام وكم يبدو ذلك مذهلاً وغير قابل للتصديق أحياناً. . فهل من المعقول أنه يطمح هذا العدد القليل من البشر إلى هدف هائل الحجم والصعوبات كهذا. . ولكننا إذا راجعنا أدبياتهم بدءاً من بروتوكولات حكماء صهيون التي فضحتها روسيا القيصرية قبل ما يزيد عن قرن من الزمان، مروراً بأدبيات الماسونية المنتشرة بين أيدينا وغيرها كثير، تتعزز قناعاتنا بأنهم يعملون وعملوا بدأب وصبر رغم قلة عددهم ليصلوا إلى كونهم الشريك الذي لا غنى عنه للاستعمار وتتويجه الامبريالي المتمثل بالولايات المتحدة، وامتداده الفرعي الذي تبرزه روسيا الجديدة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وأنهم في نهايات القرن العشرين على أعتاب تحقيق النصر الذي خططوا له، فها هو الإسلام المقاوم الممتد في قلوب المليار ونصف يبدو محاصراً بتهمة الارهاب والأصولية، وها هو الشيخ الضرير العالم (ابن باز) مفتي السعودية يفتي بجواز الصلح معهم وصولاً إلى صداقتهم ما دمنا غير قادرين على مقارعتهم (وهو ما سنتعرض له بالتفصيل لأنه هدف الكتاب).

إن الفتوى كما قلنا لا يمكن النظر إليها كمجرد فتوى تستند إلى نصوص إسلامية وخاصة إلى القرآن الكريم بما يعني أنها مجرد اجتهاد أو وجهة نظر رجل

دين حسب فهمه للنصوص (وله أجر واحد عند الله) كما نسب إلى الرسول الكريم في حديثه المعروف، إنّ المسألة أكبر من ذلك بكثير. فظاهر الفتوى بالغ البراءة والسذاجة كما يبدو، لكن الحقيقة المريرة تتحدث عن اختراق لقلعة الأيديولوجيا الإسلامية متمثلة بأكبر مؤسسة دينية رسمية في الإسلام السني تتوضع في السعودية بما تمثله هذه الدولة من هيمنة وامتداد ومؤسسات ودعم يشمل العالم.

العلماء ورثة الأنبياء ونوابهم في الأرض، ورغم أن الإسلام لم يتحدث عن مؤسسة دينية أو رجال دين، إلا أن الحاجة إلى بروز المؤسسة أفرزتها الظروف المتجددة وتعقد الحياة المتطورة في سيرورتها، بما دفع إلى تخصص رجال بالتشريع والتبشير ورعاية شؤون المسلمين بما يخص دينهم ودنياهم، ذلك أن الإسلام لم ينفصل عن نظرية الحكم مطلقاً، وظل تشريعاً شاملاً قابلاً للتطور والإضافة والاجتهاد والإشراف على سير حركة النظام الحاكم حتى في المراحل العلمانية الحديثة والمعاصرة.

لهذا نشأت المؤسسة وكان لا بد لها أن تنشأ خاصة أن قسماً كبيراً من المسلمين يعتقدون (بولاية الفقيه)، وهذا يعني ببساطة الحكومة الإسلامية الفاضلة التي يتولاها الحكماء والفقهاء والمثقفون والصالحون والأتقياء، وهو هدف الدين الإسلامي لصلاح الدنيا والدول، وكذلك بالمحصلة الأخيرة هدف الإنسانية كما عبر عن ذلك فيلسوف اليونان الأشهر أفلاطون عندما كتب عن جمهوريته الفاضلة التي يحكمها الفلاسفة (الحكماء الصالحون).

لقد كان للمؤسسات الدينية الإسلامية أن تنشأ بأشكال متفاوتة، ولعل أكثرها مدعاة للتدقيق والدراسة هي مؤسسة الافتاء في المملكة السعودية فهي ترتبط حكماً بنشوء الدولة التي دعمت بشكل متبادل حركة كان ظاهرها الإصلاحية، وأعني الحركة الوهابية، وامتلكت المملكة قوة اقتصادية كبرى ارتبطت منذ بدايتها مع ظهور النفط سيطرة مباشرة على مساحة كبيرة من العالم العربي الإسلامي ناهيك عن صلات وثيقة بالنظام العالمي القديم منه والجديد، وهكذا أهّلت لكي تصبح مصدر جذب ليكون للآراء التي تبديها قوّة أكبر.

ونحن لا نعفي مؤسسة الأزهر، تلك التي مرّت بأطوار مختلفة صعوداً وهبوطاً مع السلطة وضدها أحياناً لتصبح في النهاية ذراعاً لتنفيذ رغبات هذه السلطة خاصة ضد أعدائها ثم بفتوى تتعلق بشرعية اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٩ . وفي المقابل تبدو المؤسسة الشيعية نقيضاً بحكم مسار المعارضة السياسية والاستقلال الاقتصادي الذي تمتعت به عبر التاريخ، ولعلّ من بعض أهداف هذه الدراسة عقد مقارنة بين المؤسسات الدينية الإسلامية يمكن أن تساهم في إلقاء أضواء على جوانب من نشاطاتها السياسية تحديداً في مراحل مختلفة من التاريخ الإسلامي.

ليس من شك في أن السلطة الروحية التي يمثلها رجال الدين لم ترق إلى أن تكون في قوة السلطة الزمنية التي مثلها الحكام في كل حقب التاريخ الإسلامي، لكنها ساهمت بشكل أو بآخر، قوةً أو ضعفاًواستسلاماً، ساهمت في مقارعة أو تغطية وتبرير تصرفات الحكام باسم الإسلام واتكاءً على النصوص وتأويلاتها.

إنّ رجل الدين عندما يدلي برأيه فهو يمثل مباشرة لدى المسلمين موقف رسول الله (ص) إذا أصدر حكماً في قضية مشابهة، بل ربما بدا رأي رجل الدين أشد جرأةً وقداسة لأنه يتصرف في ظروف مستجدة تقتضي منه حكمة واطلاعاً واسعين في الفقه الإسلامي ونظرية الحكم السائدة في زمنه، ويظل لفتواه القول الفصل في تسويغ سلوك الجماهير تجاه المشكلات المتجددة والبالغة التعقيد. وإذا نظرنا مثلاً إلى فتاوى حاسمة كفتوى الشيخ محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر بجواز التعامل مع البنوك والنظام المصرفي القائم بكل ما فيه ـ أو إلى فتوى هيئة الافتاء السعودية بضرورة تولي الملك فيصل بدلاً عن أخيه الملك سعود لسدة الحكم في المملكة وغيرهما كثير، لأدركنا المدى الذي يشغله والأهمية التي يمثلها رأي المؤسسة الدينية في توجيه سلوك المسلمين وتهدئتهم وإرضاء ضمائرهم.

هذا معاصراً، أما في الماضي الأبعد قليلاً فإن الاستعمارين القديم والحديث واجها هذه المؤسسة وقارعتهما هي بدورها بأشكال متفاوتة تبعاً لنوعيتها وشكل ارتباطها بالسلطات والمصالح المتضاربة.

وعندما نستعرض نماذج من الفتاوى العديدة كم يبدو الأمر بالغ التعقيد، فهناك في إيران (وبسبب من الاستقلالية المالية للفقهاء) تمكن هؤلاء من إقلاق النفوذ البريطاني بفتوى كتحريم التبغ مثلاً عام ١٨٩٢ مما أدى إلى هز ركيزته الاقتصادية المتمثلة بشركة التبغ. . وصولاً إلى إسقاط نظام الشاه أخيراً من قبل الإمام الخميني رضي الله عنه عام ١٩٧٩ بقيادة الجماهير وتنظيمها وتعبئتها بالأيديولوجيا الإسلامية المقاومة. واختلف الأمر في أندونيسيا عندما أسهمت فتاوى المؤسسة في إنهاء عهد سوكارنو وتكريس الهيمنة الأمريكية عام ١٩٦١، وبدا الوضع في أفغانستان أكثر تعقيداً عندما خيض الصراع برعاية المؤسسة الدينية(رغم التحالفات المتناقضة) ضد الاتحاد السوفياتي المحتل حتى انسحابه عام ١٩٨٩، واليوم وقد صار معلوماً للجميع شكل الدعم الذي قدمته الولايات المتحدة الامبريالية لقسم من المجاهدين الافغان، بما في ذلك دور باكستان الخاضعة للهيمنة، والذي ساهم في حسم الصراع لصالح المجاهدين، يمكن القول أن التحالفات في هذا المجال بدت أكثر من متناقضة الأهداف.

وبعد. . ألا يبدو النزال ضد المؤسسة الدينية الإسلامية، المماثلة للسلطة الظالمة، يؤدي في المحصلة الأخيرة إلى الإساءة للإسلام والتبشير الإسلامي ذاته؟! إنه سؤال مشروع يطرح في وجوه الساعين إلى تقويم مسار هذه المؤسسات إشكاليات أحلاها مر. هذا الفعل بالتأكيد يصب في خانة العلمنة الفجّة ويخلق حالة من اللاعقلانية والتطرف أحياناً ـ في التعامل مع رجال الدين مؤازرة أو رفضاً، ضداً أو تأييداً لكل ما يقولون حتى ولو كان في صالح الأعداء.

ومع ذلك وبالرغم من كل العقبات، فإن دراسة كهذه، ونحن نسير على الشوك، لا غنى عنها في مرحلة بالغة الصعوبة، تتعامل بشكل كامل مع توقعات المستقبل. فلا غنى عن إبراز الحقائق للناس والنخب المثقفة من المسلمين الذين يمكن أن يساهموا مستقبلاً في صياغة القرار بأشكال مختلفة قد يكون من ضمنها الثورة وتحطيم القائم الفاسد المستسلم، وصنع المستقبل الأفضل.

الحركة الصهيونية بأوراقها المكشوفة عبر مئات المؤلفات تبدي تهديداً مصيرياً للأمة العربية من جهة وللإسلام من جهة أخرى. . ومن خلال النصوص المتوافرة وأيضاً باستكناه الأحداث القائمة لا يمكننا اكتشاف ثغرة واحدة، بل ربما بريق أمل واحد في إمكانية جنوحها ومؤيديها إلى السلم. الصراع معها تناحري لا مجال فيه للبقاء إلا لطرف واحد. . وعلينا أن نعمل ليكون هذا الطرف هو أصحاب الحق والعدالة، أي نحن. . وإلا فإن دعاة السلام معها (ولو مرحلياً) لا يعدون عن كونهم مجرد أحد فريقين. . إما سذجاً، وهذا ما أشك فيه، أو أنهم عملاء للصهيونية أو تفرعاتها الأوروبية والأمريكية والماسونية. . (يجب كشفهم) أو أنهم ـ إذا حسنت النوايا ـ مجرد طغمه همها الحفاظ على مناصبها ومكتسباتها الدينوية على حساب الأرض والدين والمصلحة الوطنية. وكل هذه التفرعات عميقة المرارة بمقدار عمق هيمنتها على الوطن العربي الإسلامي. . وبالمحصلة فإن الطرف الذي يسعى للتغطية بالفتاوى وزج الإسلام في تبرير الاستسلام مع علمه بالماضي والحاضر والمستقبل هو ببساطة لا يمت إلى الإسلام بصلة حتى في مجال الاجتهاد المجافي للصواب. وكم هي طريق جهنم معبرة بذوي النوايا الحسنة. .

وهو ما يحاول هذا الكتاب قوله. .

د. زهير غزاوي

الفصل الأول

رسول الله (ص) ويهود الجزيرة العربية

مدخـــــل

الرسول والرسالة:

لعلّ أبرز ما يواجه الدارس للإسلام (مسلماً كان أم غير مسلم) إشكاليةٌ لا يمكن تجاوزها، تتمثل بسؤال مفصلي، هل يمكن فصل الإسلام عن الرسول؟. القرآن عن الناطق به ومبلّغه للناس؟ هل انتهت مهمة الرسول محمد(ص) بعد أن بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وأصبح في رحاب الرفيق الأعلى؟ هل انتهى دوره حقاً وقد غاب عن العالم منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان؟ وأخيراً. . هل تمتلك هذه الأسئلة مشروعية طرحها وضرورته ومصداقتيه الآن معاً؟

إذا كان اسم رسول الله لم يذكر سوى مرتين في نص آيات القرآن الكريم، فإن الكتاب أبرز الكثير من الحياة الخاصة للرسول في ثناياه، بما في ذلك الإشارة إلى نضال كبار المجاهدين في سبيل الإسلام، خاصة آل بيته عندما أعلن طهارتهم الكاملة بكل وضوح قائلاً: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ [٣٣/ الاحزاب].

لقد تناول القرآن في سورة التحريم مثلاً بعض أخص خصوصياته بقوله بعد البسملة: ﴿**يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك. .**﴾. هذا التناول دفع الكثير من المستشرقين إلى الطعن بقداسة النص باعتبار أن الحديث عن

حياة الرسول الخاصة بهذا الشكل لا يعبّر عن أية غاية أو هدف تعبّدي ذي قيمة. وربما كان أشد ما استفزهم ما نزل بعيد حادثة الإفك المشهورة من دفاع عن السيدة عائشة زوجة رسول الله واتهام الذين خاضوا في عرضها بسوء النية أو بالضلال على اعتبار أن الأهداف التي دفعتهم إلى ذلك كانت متباينة بين أطراف متعددة، من منافقين أو مضللين أو أعداء مباشرين كاليهود والمشركين.

وقد كان لزواج الرسول من زينب بنت جحش وما نزل فيه من الذكر ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيدٌ مِنهَا وطراً زوّجناكها**. .﴾ [٣٧/ الاحزاب] الكثير من الاستفزاز للدارسين الأجانب، ساعد في إثارة ذلك ما ورد في التفاسير المعتمدة من روايات حول تلك الحادثة، بما في ذلك أسباب النزول المتضاربة في هذا التفسير أو ذاك.

تلقى المسلمون القرآن بلسان الرسول مباشرة منذ بدء البعثة وحتى لحاقه بالرفيق الأعلى. وجاءت الآيات باللغة العربية المعتمدة في قبيلة قريش بما في ذلك استخدام كلمات معرّبة دارجة على لسان العرب في إطار هذه القبيلة مثل كلمة الاستبرق وجهنّم وغيرهما. وكان مصدر الإدهاش في هذا الكتاب إعجازه اللغوي بياناً وبديعاً إضافة إلى العديد من القضايا الأخرى خاصة ما يتعلق منها ببعض المسائل العلمية التي كانت جديدة، ليس في محيط النبي في الصحراء العربية، وإنما في العالم القديم كله في ذلك الوقت. كان الكتاب جديداً حقاً في كل شيء مما دفع عرب الجاهلية في ذاك الوقت ودارسيه القدماء والمحدثين على حد سواء إلى القول بأن الرسول لا يمكن أن يكون مؤلفاً للقرآن لأنه يفترض من المؤلف أن يكون سيداً للأدب العربي على الإطلاق، وأن فيه حقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكوّنها[1]، بما في ذلك أساطين الفلسفة اليونانية السابقين له بألف سنة.

فوق هذا وذاك رفعت نصوص الكتاب الرسول إلى مصاف القداسة المطلقة رغم إصرارها على بشريته ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ ﴿**إن الله وملائكته يصلّون على**

---

(١) موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، ط١، ١٩٩١، بيروت ص ١٥٠.

النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي. . .﴾ وأمثلة كثيرة مشابهة.

وهكذا يكون الكتاب وقائله متلازمين متحدين لا ينفصلان، بحيث يبدو أي تشكيك في قدسية الرسول تشكيكاً في مصداقية القرآن، حتى والآيات تتابع الإلحاح المستمر في ثنايا الكتاب على بشريته المطلقة.

من هنا انطلقت مقولة تمتع الرسول(ص) بالعصمة التي تعني استحالة وقوعه في أي خطأ من أي نوع كان بما في ذلك، ما يستوجب منطقياً التشكيك بالروايات التي وردت حول خطأه في التخطيط لمعركة بدر الكبرى، والذي استلزم تدخل أحدهم لتصحيح الخطأ، أو ما ورد حول نصيحته للمزارعين في مسألة تلقيح النخيل في المدينة المنوّرة وما تلاها من قوله المنسوب إليه: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

إن عظمة الرسول تأتي من خلال عظمة الرسالة، ويظل العكس صحيحاً أيضاً.. بمعنى أن عظمة الرسالة وجلالها وأهمية الأهداف التي تسعى إليها تستوجب عظمة الرسول وقداسته. لهذا لم تكن نشازاً تلك الآيات التي مجّدت رسول الله في القرآن وهي كثيرة فعلاً.. وكل ذاك يستوجب حكماً امتداد حياته قوّة فاعلة انطلاقاً من أعماق الماضي السحيق نحو أعماق المستقبل الممتد أبداً، تماماً كعظمة التراث الإسلامي ومنجزاته وإبهاره.

الرسول محمد(ص) قدوة أخلاقية لأتباعه، وعندما نتحدث عن عالم متغيّر بشكل متسارع حتى اللهات فإن للقيم الأخلاقية ثباتها العجيب في هذا العالم المتغير بما في ذلك قيمة الوحدة الأممية حول قيم الحق والخير التي دعا إليها الإسلام، والتي شاركه فيها المفكرون الوضعيون، وحتى العلمانيون ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. فلا أحد يجرؤ على الخوض في نسبية الأخلاق وقيمها في خضم اللهاث وراء التراكم التقني والتغيرات الهائلة في عالم اليوم. الكل يتحدث عن ميثاق عالمي لحقوق الإنسان مثلاً يتوحد تحت لوائه الجميع.. وفي القرن الماضي وربما قبله نادى المفكرون بضرزرة اتحاد عمال العالم جميعاً في وجه الظلم والإجحاف

والطغيان. . وظل تصاعد القومية أخلاقياً باتجاه الأممية سمة الثقافة الإنسانية عبر العصور وستظل كذلك في ظلال التراكم العلمي. هكذا تبدو حياة الرسول حالة من الاقتداء في إطار القداسة الضرورة للقدوة المعصومة الخالدة. . وإلا فهل تبقى من قيمة للنسبي والعادي حتى يستحق أن يكون قدوة للبشر؟

وفي الدين الإسلامي تحديداً كانت حياة الرسول في بعض جوانبها ركناً أساسياً من أركان السنة النبوية بحيث ارتقت لتصبح أحياناً أهم من النص القرآني ذاته. ذلك أنها (أي السنّة: فعل الرسول وقوله وتقريره لفعل الآخرين) ظلت المصدر الأساسي لتفسير القرآن وتوضيحه ووضع بعض نصوصه موضع التفصيل والتطبيق. وعندما نأخذ عمود الدين مثالاً (الصلاة) فإن الرسول قال «صلّوا كما رأيتموني أصلي». إذا نحينا جانباً آل بيت النبي وتطهيرهم الذي يفسر بالعصمة أيضاً من قبل مجتهدي الشيعة، فقد غالى مجتهدو صدر الإسلام في إطار الصراع السياسي القائم ليمنحوا الكثير من الصحابة والتابعين ذات العصمة عندما قرروا أن جميع الصحابة عدول[١].

هذه الكلمة التي تعني في بعض جوانب تفسيرها أنهم لا يخطئون. . أو على الأقل أن سلوكهم قولاً وعملاً فوق مستوى الشبهات. . أليست تلك العصمة بعينها؟[٢].

ومع ذلك فإن حركة كل هؤلاء ظلت في إطار الاقتداء بشخصية الرسول ونقل أقواله بما في ذلك ما قدمه من تأويل لآيات القرآن الكريم. .

إن رسول الله محمد(ص) شخصية قوية كان لها من التأثير في حركة التاريخ أنها قسمت البشر إلى قسمين لا ثالث لهما: فهو خاتم الأنبياء، والناس بهذا الاعتبار يتوضعون على الضفتين، إما معه أو ضده، مع الأيديولوجيا الإسلامية أو ضدّها. .

(١) راجع كتاب (المنحول من تعليقات الأصول)، للغزالي.

(٢) راجع كتاب نظرية عدالة الصحابة والمرجعية السياسية في الإسلام، احمد حسين يعقوب، شركة شمس المشرق، بيروت، ١٩٩٢.

وقد نجح في ذلك ـ حتى الآن وفي المستقبل المنظور ـ إلى حد بعيد. لقد كان الرسول في موقع الممكّن لجماعة المؤمنين من هذا الحبل (حبل الله المتين والقرآن)، موقع المموضع للمقدس في غير المقدس (أي التاريخ)[1]، وظل إبداعه كقدوة في سلوكه وقوله وتقريره أنه مكن للإسلام من الإنتشار كدين ليس بسبب القبضة الإسلامية على الدول المفتوحة فقط بل لأن تلك القبضة كانت ترتخي كثيراً وقليلاً عند مواجهة المقدس، فليعتقد الناس بالإسلام دون شكلية طقسية قسرية واحدة، على الناس أن يختاروا طقوسهم ما داموا قد أعلنوا الشهادة[2]. فمن قال لا إله إلا الله محمداً رسول الله فقد حقن دمه واستحق المواطنة الإسلامية.

لكن ما يجدر تأكيده أن الخلافات الطقسية بين المذاهب الإسلامية الكبرى في التعبد لله سبحانه ليس فيها كبير اختلاف على أية حال.. أما التأويل للقرآن فإن فيه اختلافات على درجة كبيرة من الأهمية.

الرســالــــة:

الناظر إلى أوضاع الجزيرة العربية في عصر ظهور رسول الله.. ولادته وبعثته ثم هجرته حتى التحاقه بالرفيق الأعلى يتحقق بما لا يدع مجالاً للشك أنّ معجزة ـ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ـ قد حدثت هناك في غضون ثلاثة وعشرين عاماً هي عمر بعثة النبي. فالوضع القائم اجتماعياً واقتصادياً لا يبدي أية إرهاصات لأية حالة تقدم ممكن إلى حضارة ما. كان العالم يتحرك حول تلك الصحراء وتتشكل حضارات وأمبراطوريات بينما يسود سكون عجيب ذلك الوضع الذي يلف قبائل الجزيرة بما في ذلك أكثرها تحضراً، وأعني قريشاً، وهي التي تحيط بالكعبة المقدسة وتمتلك شكلاً قيادياً نظرياً وليس فعلياً.. ولم يكن ممكناً الحديث عن إمكانية نشوء نظام حضاري حتى في اليمن التي ترزح تحت نير الاستعمار الحبشي.

---

(١) عبد الرحمن عبد الهادي، سلطة النص، قراءات في توظيف النص الديني، بيروت ١٩٩٣، المركز الثقافي العربي للنشر ص ٦٠.
(٢) المصدر السابق ص ٤٢.

لقد أسهب المؤرخون في تحليل الأوضاع في تلك المرحلة بما يمكن الرجوع إليه في مراجعه الكثيرة، وهو بالتأكيد ليس موضوع هذا التمهيد، ولكن الواضح الجلي أن محمداً(ص) استطاع أن يجترح المستحيل، ليس بإبداعه الخارق في دفع أولئك الرعاة الأجلاف الوثنيين المغرقين في التخلف نحو الإيمان بالتوحيد المطلق لله فحسب، بل لأنه تمكن من تأسيس دولة مركزية فعلاً، والأكثر من كل ذلك أنه في حياته وقبيل رحيله بقليل وضع الأسس الدقيقة والمتينة للسيطرة أيديولوجياً على العالم القديم برمته، وهذا ما حدث بالتأكيد في مدى خمسين عاماً بعيد رحيله عن هذه الدنيا.

كانت الرسالة من أصعب الرسالات في التاريخ. ذلك أنه لم يكن أمامه إلا احتمال واحد هو أن ينجح، وأن يقود هؤلاء الوثنيين الرعاة الغزاة البدو إلى تحدّ ليس له مثيل، أدى إلى خلق حضارة مبهرة ظلت حتى الآن عصية على التحطيم، تمتلك إيحاءاتها العجيبة للتحدي والمقاومة والعصرنة في مواجهة أمم امتلكت من وسائل التقدم ما مكنها من إعادة السيطرة على موطن الدعوة الإسلامية، ولكنها أبداً لم تتمكن من خلخلة الأيديولوجيا، بل على العكس. فلا زال الرسول والرسالة كقدوة ومثل أعلى ينازلهم في عقر دارهم ويحقق انتصارات مذهلة على صعيد أوروبا المسيحية والملحدة في آن معاً.

إن هذا ليس بالتأكيد كلاماً إنشائياً، فالتبشير الإسلامي يحقق تقدماً مذهلاً في كل مكان في هذا العالم، حتى أن عدد اتباع الرسول(ص) لم يعد ممكناً تقديم بيان إحصائي بهم، وإن كان بعضهم يرجح أنهم يشكلون ثلث البشرية جميعاً، وكم من الذين حاولوا تحدي الإسلام صاروا مسلمين بما في ذلك الوثنيون المغول وأعداد هائلة من اليهود والمسيحيين، وبعض كبار المستشرقين والمفكرين.

لقد منحت الرسالة ذاتها كدعوة للتأمل العميق في الكون والذات.. تقدمت دون معجزات مسجّلة.. اعتمدت الدعوة على الصبر والصلاة والتأمل والنفس الطويل حتى قيل أن عشر سنوات من الجهد المضني لم تكتسب للرسالة الجديدة إلا

أقل من مائة مؤمن (٩٠ شخصاً) ذلك أنها كانت نقضاً للسكون السائد في الجزيرة آلاف السنين حتى بوجود جزر مسيحية ويهودية هنا أو هناك فيها

الرسالة التي حملها محمد بن عبدالله(ص) في بحر الرمال هذا، ظل تبليغها إلى الناس في مستوى قسوة حياة الصحراء وصعوبتها.. لهذا جاء القرآن الكريم (كلام الله القديم) يحمل انعكاسات لهذه الحياة القاسية، خاصة في تصويره للنعيم والجحيم.. الجنة الجزاء ونقيضها المتمثل بالعذاب ومعاناة العطش وشواظ النار.. وكل ذلك يفهمه ويستوعبه الأعراب إلى أبعد حد.. وإذا تخيلنا هؤلاء الأعراب الأميين المتخلفين على اعتبارهم القاعدة الصلبة التي تشكلت لنشر الإسلام، لأدركنا مدى عظمة النجاح الذي حققته الرسالة وطبيعة هذه الرسالة في آن معاً.

جاء القرآن مرنا قابلاً للتأويل حمّالاً للأوجه، وهذا بحد ذاته كان جانباً مفصلياً وبالغ الأهمية من جوانب الرسالة.. فلولا هذه المرونة لما تمكن هذا الكتاب من التعامل والتجاوب بسرعة مع المتغيرات ومواكبتها وتفسيرها. فإذا نظرنا إلى الجانب الموسيقي من الكتاب مثلاً، ذلك الجانب الذي يمثل مخاطبة أعماق النفس الإنسانية في طرفها الذي يتناغم مع الجناح الروحي المحلق من الحياة محققاً عالمية التعامل مع النص كبناء له طابع الخلود وشعري موسيقي، يحفّز على الخشوع، لأدركنا الجانب الآخر من جوانب عديدة وكبيرة.

كان النص القرآني شكلاً جديداً على العرب أنفسهم.. كلمات تحمل موسيقاها الداخلية الرائعة ولم يكن شعراً. لكن دارسي القرآن وهو عماد الرسالة (خاصة الأجانب منهم) كان لهم رأي في جانب آخر منها وأعني به ما تطابق مضموناً مع نصوص العهد القديم والأناجيل في قصص الأنبياء وبدء الخليقة، على سبيل المثال يقول المستشرق الإيطالي ليوني كايتاني[1] «إن محمداً لم يفهم نصوص الكتاب المقدس، فقد أخذ منها بشكل سيء، لكن ابن عباس استطاع زمن الفتوحات الكبرى أن يتفهم بوضوح تفوق الحضارة المسيحية وأن يتعرف على

(١) سلطة النص: مرجع سابق ص ٨٨.

العديد من العيوب والثغرات التاريخية للعقيدة الجديدة التي حاول محمد خلق أساس لها في تاريخ اليهود القديم ولكنه لم يوفق في ذلك بشكل كلي، وربما كانت الأساطير المسيحية اليهودية التي وردت في القرآن مع صعوبة القبول بها كافية للعرب الجاهليين ولكنها لم تكن كافية عند العالم المتحضر الذي يعيش خارج الجزيرة حتى يصدق بالعقيدة الجديدة. .

فقلد ابن عباس المسيحيين الأوائل الذين حاولوا بالطريقة نفسها تبرير عقيدتهم مستعينين في ذلك بمحتوى العهد القديم ونبوءاته».

وفي الحقيقة. . ورغم أن العهد القديم لم يكن قد ترجم بعد إلى اللغة العربية حتى يمكن الإدعاء بأن الرسول قد اطلع عليه بواسطة من قرأه له، فإن المسيحية واليهودية بسبب من وجودهما في الجزيرة العربية ولو بشكل محدود، تمكنا من نشر مقولات وقصصاً بين الأعراب ظلت مرفوضة من قبلهم ولم تدفعهم للإيمان بأنها حقائق، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالوحدانية ولا بالأناجيل التي تدعو لعقيدة التثلث المعروفة. . ولكنهم كانوا يسمعون بها ويحفظون بعضها وإلا لما اتهموا القرآن بأنه (أساطير الأولين).

في حينها تناول القرآن تلك الاتهامات من العرب وأصحاب الكتاب ورد عليها بكفاءة مقنعة إلى حد بعيد بدليل انتشار الإسلام وانحسار المسيحية واليهودية من الجزيرة وبلاد الشام. . أما في العصر الحاضر فقد كان للمفكرين عرباً وأجانب أن يدلوا بدلوهم في تحليل اتهامات المستشرقين.

النص القرآني يختلف عن العهدين القديم والجديد إلى حد بعيد، وإذا أخذنا قصة يوسف في السورة المعروفة باسمه في القرآن فيمكن إيراد بعض أوجه الاختلاف وهي حاسمة[١]. إن يوسف في القرآن نبي مرسل. بينما هو في العهد القديم (سفر التكوين) مجرد أب من آباء إسرائيل الذين ساهموا في رحيل القبيلة إلى

---

(١) مالك بن بني، الظاهرة القرآنية، ترجمه عن الفرنسية عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة بيروت، ١٩٦١.

مصر والاستقرار فيها تحت ظل الحاكم الفرد الذي يدعي الألوهية، وأعني به فرعون. في القرآن بدا يوسف نموذجاً للاقتداء وموحداً ودعوة للإيمان بالإله الواحد، تماماً كدعوة الرسول محمد(ص)، بينما كان في العهد القديم مجرد تاريخ لا يحمل أيّ مضمون آخر غير تسجيل مرحلة تاريخية من مراحل حركة قبيلة يعقوب نحو مصر.

يوسف في القرآن تأييد للحكمة النبوية والوحي الإلهي عن طريق الرؤيا الصادقة في الحلم، بينما ظل في التوراة مجرد خادم لفرعون وكهنته ممهداً الطريق لقبلته للعيش في مصر.. حتى أن التوراة أبرزت حادثة إعادة جثمان يعقوب (إسرائيل) إلى الأرض التي قدموا منها لدفنه فيها كإظهار للولاء للعهد والعودة للأصل.

لقد أبرز القرآن النبي يوسف كرمز للصمود في وجه المغريات الجنسية والعدالة بينما هو في التوراة نموذج يهودي فاسد وملوّث، خاصة عندما استغل شعب مصر في أعوام المجاعة وساعد فرعون على شرائهم وأراضيهم وتحويلهم إلى مجرد عبيد في سبيل أن يقدم لهم اللقمة.

كان خروج يوسف من السجن رمزاً للخلاص والعدالة بين الشعب في عدالة توزيع الإنتاج وتوفير مخازن للغلال بينما هو في التوراة غير ذلك تماماً.. كل ذلك إضافة إلى تزوير تاريخي واضح عندما تتحدث التوراة عن استعمال عشيرة يوسف للحمير في التنقل من وإلى مصر عبر الصحراء، علماً أن الحمير مظهر ريفي متحضر لا تستطيع عبور الصحراء، في حين تحدث القرآن عن الجمال وذلك منطقي وحقيقي وملائم للواقع.

في مسألة بدء الخليقة تجانس القرآن مع العهد القديم بتحديد المدة بستة أيام مع اختلاف كبير في مفهوم اليوم. التوراة تحدده بليل ونهار بينما يتناوله القرآن بمفهوم المرحلة، ذلك أن استخدام اليوم هو مجرد تجنب مواجهة اعتقاد منتشر بين

الناس[1]، وجاء في القرآن الكريم بآماد متفاوتة. في سورة المعارج وردت آية «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» وفي سورة السجدة «في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» وكذلك في سورة (فصلت) تم تفصيل محتوى إنجاز الخلق في كل مرحلة (الآيات ٩ ـ ١٢).

من ناحية أخرى فإن القرآن لا يحدد ترتيباً متوالياً في الخلق، فهناك آيات تشير إلى الأرض قبل السماوات، مثال سورة طه (ممن خلق الأرض والسماوات)، وفي سور أخرى جاء الترتيب معكوساً: الأعراف، يونس، هود، الفرقان، السجدة، ق، الحديد، النازعات)، أما بالنسبة للمطابقة العلمية فإنها في القرآن تتناسب بشكل مذهل مع النظريات الحديثة للكون كما رأينا في سورة فصلت «ثم استوى إلى السماء وهي دخان. .» وغيرها.

ويظل فوق هذا وذاك أن اختلاف القرآن عن التوراة فيما أهمله من عقائد علمية انتشرت في زمنه أن في الفلك خاصة أو غيره من العلوم، وليس فيما أثبته من آيات حول الكون، علماً أن القرآن أنزل لإثبات الوحدانية أولاً وليس كتاباً علمياً أو تأريخياً كما يبدو العهد القديم من أوله إلى آخره.

على ضوء ما قدمنا تبدو شكوك المستشرقين بعيدة عن المشروعية العلمية بافتراض حسن النوايا. من هذا المنطلق يجدر بنا القول أن الذين درسوا القرآن من غير المسلمين حتى بافتراض انحيازهم لعقائدهم الخاصة ـ لا يجوز النظر إليهم إلا على أنهم مجرد دارسين يضعون الشك أولاً في البحث العلمي بدلاً عن اليقين المطلق الذي يتمتع به المسلمون الذين قاموا بدراسات مماثلة، وأن كثيراً من أولئك قد عرفوا الحق واعتنقوا الإسلام.

في هذا السياق مثال أخير يجدر ذكره في توضيح الاختلاف بين القرآن والكتب التي سبقته ووصلتنا بالصورة التي هي عليها الآن. . هناك مسألة خروج موسى من مصر مصطحباً قومه باتجاه الصحراء عابراً خليج السويس. فالتوراة لم

---

(١) موريس بوكاي، مرجع سابق، ١٥٩.

تشر إلى نجاة فرعون الذي كان يطاردهم بجيشه. تشير المصادر التاريخية إلى اسم هذا الفرعون (منبتاح) وقد أغفلته النصوص تماماً بينما ذكره القرآن في سورة يونس مثلاً في الآية ﴿فاليومَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لتكونَ لِمَن خَلْفَكَ آيةً وإنَّ كثيراً من الناسِ عن آياتِنا لغَافِلون﴾.

لقد نجا جسد فرعون وتم تحنيطه واكتشفت المومياء عام ١٨٩٨ ووصفها العالم اليوت سميث في كتابه المومياء الملكية.. قام السيد موريس بوكاي برفقة أطباء مصريين بدراسة هذه المومياء بالأشعة، وقد ثبت له وللدارسين أن هذا الجسد قد مات بسبب الغرق أو رضوض عنيفة سبقت الغرق أو للسببين حقاً[١].

الرسالة والسنة النبوية:

في سنوات البعثة النبوية الممتدة منذ بلوغ رسول الله الأربعين حتى الثالثة والستين، كانت حياته تحت مراقبة دقيقة من قبل أعدائه والمؤمنين به على حد سواء، وقد حفظ المسلمون أقواله وراقبوا سلوكه بكثير من الحب تماماً كما راقبه الأعداء بصنوفهم المتعددة لإيجاد ثغرة ينفذون منها إلى الطعن بالرسالة.

لا يمكن أن يتطرق إلينا الشك لحظة في أن بعض المسلمين القادرين على الكتابة دوّنوا قسماً من أحاديثه كما حفظها معظمهم سواء بسواءً، لكن ذلك التدوين منع من الظهور بعيد مغادرته الدنيا من قبل خلفائه الثلاثة الأوائل لأسباب متعددة، قد يكون الصراع السياسي أحد أسبابها الرئيسية رغم تغليفه بحجة الحرص على عدم اختلاطها بالقرآن الذي سبق تدوينه بدقة في حياة الرسول وتم طبعه في كتاب موحد في زمن الخليفة الأول، وجرى نشره في الأمصار الإسلامية في عهد الخليفة الثالث.

لقد انتبه المسلمون إلى خطأهم ذاك في خضم الصراعات الدامية التالية وانتشار الوضع والتزوير على لسان النبي بسبب من الصراع ذاته تأييداً أو دحضاً لهذا

---

(١) موريس بوكاي/ مرجع السابق، ص٢٥٣ ـ ٢٧١.

لطرف أو ذاك. وهكذا ترك لنا هذا الخطأ شكوكاً مقلقة في صحة ما نقل عن الرسول الكريم لن تنتهي ما دام هناك بشر على وجه البسيطة.

وبما أن مشكلة السيرة النبوية ليست هي السؤال الرئيسي في هذا البحث، فلا بد من الإشارة إلى بروز أهمية دراسة حياة الصحابة والتابعين ناقلي الحديث النبوي والسنة بحيث أصبحت جزءاً أساسياً من الأيديولوجيا الإسلامية. تلك في الواقع مسألة اندماج حياتهم بالرسالة.. وأصبح تحري الصدق في السلوك قولاً وعملاً لأولئك الرجال متوضعة في صميم الرسالة. وللتدليل على مصيرية أقوال الصحابة والتابعين لإثبات السنة النبوية ما أورده الإمام مالك في أن إجماع الفقهاء السبعة في المدينة وهم «سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، القاسم بن أبي بكر، خارجة بن زيد بن ثابت، عبد الرحمن بن الحارث، سليمان بن يسار، عبدالله بن عتبة بن مسعود) ـ وكلهم من التابعين ـ يمثل لب العقيدة الإسلامية[1]، مشيرين إلى أن هذا الرأي رفضته أطراف أخرى كالمعتزلة والغزالي وغيرهما، مع ملاحظة جديرة بالاعتبار هي استبعاد آل بيت النبي من المسألة برمتها باعتبارهم متهمين لأن لهم وجهة نظر أساسية في مسألة الخلافة تختلف عن وجهة نظر من أطلقت عليهم تسمية (السنة) وذلك بعد أن تم تقسيم المسلمين إلى طرفين رئيسيين: واحد في السلطة ويؤيدها في وجه الطرف الآخر الذي يمثله أنصار آل بيت النبي وقد حمل لقب (الشيعة) وكانوا في المعارضة على الدوام.

لقد ثبت بالأثر عن النبي(ص) وبأحاديث متفق عليها أنه كان يعلم بهذا المصير الذي آلت إليه الأمور، ويمكن الرجوع إلى تلك الأحاديث العديدة في مواضعها، لكن الواضح والثابت أن علمه بها شكل له مزيداً من الألم المرير حتى أنه عليه الصلاة والسلام في أيامه الأخيرة لم ير ضاحكاً قط كما ورد في الأثر، وبخاصة حديث خروجه عند الفجر إلى المقبرة في البقيع مخاطباً الراقدين ومتحدثاً عن الفتن[2] قبيل رحيله بأيام.

---

(١) فهمي هويدي، من يسبح ضد التيار، مجلة الجهاد، طرابلس ١٩٨٩.

(٢) توفيق الحكيم، حياة محمد، مسرحية دار الهلال، القاهرة، ط٤/ ١٩٥٤م الفصل الأخير، الحديث يبدأ =

كل ذلك أتاح للدارسين في الأحاديث النبوية مجالاً كبيراً للشكوك، وجاء اقتراح كثير من المجتهدين الشيعة وغيرهم أن يعرض أي حديث مهما كانت صحته على كتاب الله والعقل معاً فإن وافقهما فهو صحيح وإلا يجب رفضه[1] قطعاً من أي مصدر جاء ومهما كان رواته عدولاً.

مئات الدراسات كان لها أن تعالج هذه المسألة، وهي بالتأكيد أضافت إلى الرسالة غنى وتفسيرات ثرّة تستحقها. أما في العصر الحديث فقد استخدمت وسائل جديدة في البحث حول مسألة التراث سيكون لها أن تستمر إلى مدى غير منظور في عمق المستقبل وتضيف المزيد من الغنى إلى تلك الرسالة الحية أبداً والموحية أبداً، دليلاً على أهميتها المتجددة في حياة البشرية جميعاً، والإسلام ينتشر ويتسع كل يوم.

وكم يبدو الرسول(ص) حياً حاضراً في الآن والمستقبل في رسالته، بينما تتلاشى أيّ دراسات جديدة في الديانتين اليهودية والمسيحية وبالمقابل تنشأ معاهد الاستشراق لدراسة التراث الإسلامي في كل مكان على وجه هذه الأرض، رغم الملايين الهائلة المرصودة في العالم الغربي لمؤسسات التبشير وما تمتلكه من وسائل إعلام وتقنية ليس لهما نظير. لم تحمل أمّة من الحب ما تكنه الأمة الإسلامية لنبيها.. فقد انتشر الإلحاد في أقطار العالم غربيها وشرقيها ولكنه هزم أمام شخصية الرسول المتجددة الحية في العالم الإسلامي.. وسيظل ذلك دوماً دليلاً على وحدة الرسول والرسالة.. وهذا ما تنبه إليه الأعداء منذ البداية وعملوا جهدهم لمحاولة تحطيم الأيديولوجيا التي جاء بها عبر تحطيم سمعته من خلال حياته الخاصة.. لكنه وبخلاف جميع الأنبياء وجد دوماً من ينافح عنه بإخلاص منقطع النظير، إن في صفوف اتباعه أو من بين الآخرين المنصفين.. وأصبح تقليداً في البحوث التراثية العالمية أن المشككين في إلهية الرسالة الإسلامية يعترفون بعبقرية الرسول الفذة.

= هكذا «يا أهل البقيع هنيئاً لكم ما أنتم فيه، إن الفتن أقبلت كقطع الليل بعضها آخذٌ برقاب بعض...».

(١) راجع فتاوى السيد محمد حسين فضل الله مجلة الموسم ١٩٩٥، عدد خاص الفتوى ٤٣٧، ٤٣٨ ص ١٢٥.

ذلك النبي الأمي الفقير الذي مضى قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ولا زال الباحثون يصنفونه بالشخصية الأولى في تاريخ البشرية.

اليهود في القرآن:

الرسالة الإسلامية حسمت موضوع اليهود منذ بدئها وقبل هجرة الرسول إلى المدينة حيث يقطنون. فإذا نظرنا إلى سورة «الأعراف» وهي من أوائل السور التي نزلت بمكة، (ويعتبرها المفسرون التاسعة والثلاثين في ترتيب السور رغم طولها مما جعل بعضهم يتحفظ على تحديد نزولها في السنة الثانية من البعثة. فهي قد نزلت قبل سورة (الجن) التي نزلت حسب رواية البخاري عن ابن عباس في تلك المدة والرسول متوجه بأصحابه إلى سوق عكاظ[1] إذا نظرنا إلى الأعراف وجدنا تحليلاً كاملاً لقصة النبي موسى وبني إسرائيل، وتوصيفاً واضحاً بما لا يدع مجالاً لأي تأويل معاكس حول تقويمهم بما يستحقون. ينبه الله النبي في الآية ١٦٩ إلى أوضاع يهود الجزيرة قبل لقائهم والصراع معهم بعد ذلك بعشر سنين ﴿**فخلف من بعدهم خلفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر الله لنا وإن يأتهم عَرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق..**﴾.

تقول التفاسير: العرض ـ بفتح العين والراء ـ الأمر الذي يزول ولا يدوم ويراد به المال ويراد به أيضاً ما يعرض للمرء من شهوات ومنافع. والأدنى الأقرب من المكان والمراد به هنا الدنيا وفي اسم الإشارة إيماء إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه. وقد قيل أخذ عرض الدنيا أريد به ملابسة الذنوب وبذلك فسّر ابن جبير، ومجاهد، وقتادة، والطبري فيشمل كل ذنب وقيل هو الرشوة أو الرشا، ويقولون لمن ينكر عليهم ملامسة الذنوب وتناول الشهوات ويقولون سيغفر الله لنا اغتراراً بالدين [لأنهم الموحدون وشعب الله المختار] وجملة وأن يأتهم عرض مثله يأخذوه

---

(١) راجع: تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس ١٩٩١، ج٨ القسم الثاني ص٧، وايضاً الميزان في تفسير القرآن (سورة الأعراف) السيد محمد حسين الطباطبائي.

يراد به خطورة شهوة المال في نفوسهم إضافة إلى جميع الشهوات المحرمة الخ . . وجملة «ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب . . » يتضمن أنهم يزعمون أن الله وعدهم بالمغفرة على ذلك . . الخ . . إلى أن تقول : وهم قد خسروا الآخرة بأخذهم عرض الدنيا بهذه الكيفية» .

فهل هناك أوضح من هذا الحكم الإلهي على أوضاعهم صدر في بداية البعثة في سورة طويلة موقعها من السور المكية غريب فعلاً لما تميزت به المكية من توتر لغوي وبلاغة ونفس شعري يضجّ بالموسيقى ووصف للثواب والعقاب . لقد خالف أتباع الديانة اليهودية ميثاق الكتاب الذي يدعون الإيمان به إلا قليل منهم تشير إليه الآية في ختامها .

في الآيات المدنية التالية للهجرة أكد القرآن الكريم هذا الموقف من اليهود . وباستعراضنا لتلك النصوص وهي كثيرة يمكن أن نستنتج أن تفضيل هذه الملّة عند الله في ذاك الزمن السحيق جاء بسبب حملهم رسالة التوحيد في سبيل نشرها بين الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها .

ومع ذلك فلم يكن لهذه المهمة أن تجعلهم شعباً ذي ملامح قومية متميزة ، فالقرآن يؤكد أن منهج التوحيد تعرّض إلى مد وجزر تبعاً لطبيعة تكوين البشر في هذه الحياة الدنيا . كان بين المصريين القدماء من اعتنق اليهودية كمبدأ للتوحيد ولم تكن المسألة وقفاً على أولئك المهاجرين إلى مصر من مناطق أخرى ـ خاصة البدو ـ انتجاعاً للكلأ والماء . فالقرآن يذكر امرأة فرعون ذاته من المؤمنين في ختام سورة التحريم ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله . . .**﴾ وهذا يعني اختراق النخبة الحاكمة المؤلهة لابن الشمس فرعون بامرأته ذاتها . . فلم يكن التوحيد وقفاً على فئة معينة حتى تطلق عليها مفهوم الشعب الذي ساد خطأ في تعابير المؤرخين ومفسري القرآن عندما يأتي ذكر بني إسرائيل ، أو تتصل آية بآية فيها ذكر هؤلاء (وهو ما سنتعرض له في الفصل التالي) .

لم يمنح الله لقب الشعب المختار لتلك القبائل التي حملت رسالة التوحيد إلا بسبب الرسالة ذاتها، وهي عندما انحرفت عن العقيدة خاطبهم الله بأقسى لهجة من الخطاب الإلهي لأي شعب آخر بما في ذلك أولئك الذين دمّر مدنهم كعاد وثمود، ولكنه لم يكتب على أحد الذلة والمسكنة كما فعل مع (بني إسرائيل) إذا جاز لنا إطلاق تلك التسمية (المصطلح) عليهم.

﴿ضربت عليهم الذلّة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [آل عمران/ ١١٢].

في مواجهتهم للإسلام حدد القرآن عدداً من التصرفات العدائية يمكن تلخيصها بالآية الكريمة **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود...﴾** [المائدة/ ٨٢]. ولكن يظل هناك ما يلفت النظر في حيثيات إنكار اليهود لرسالة النبي(ص) فالآيات تتحدث عن معرفة اليهود اليقينية أنّه رسول الله **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنَّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾** [البقرة/ ١٤٦]. **﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً...﴾** [البقرة/ ١٧٤]، أو الآية **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾** [المائدة/ ١٥].

فهل كان هناك كتاب غير الذي وصلنا من أسفار اليهود واختفى في زمن بعثة النبي؟ وهل يمكن التشكيك بصحة الدراسات التاريخية حول حقيقة ما هو موجود حقيقة وما هو محرف من التوراة بحيث ظل أحبار اليهود يتلاعبون بالكتاب تبعاً لأهوائهم وسيطرتهم على الملّة في أزمان غير التي حددها دارسوا التوراة من الغربيين في العصور الوسطى الأوروبية؟

إن كثيراً من الغموض يحيط بالمسألة فعلاً.. ومما لا شك فيه على أية حال أنه فيما وصلنا من العهد القديم بعض الحقائق ولكنها ملبسة بتفاصيل مزيفة جعلت لكثرتها من الكتاب برمته بعيداً عن أن يوصف بالمقدس. ولقد جهد اليهود الذين

اختلطوا بالمسلمين في الجزيرة والشام على التأكيد على أن ما لديهم هو الحقيقي واستطاع بعضهم أن يحقق نجاحات معينة خاصة في التداخلات التي حصلت مع مفسري القرآن في العصور التي تلت، في أجواء تضارب الروايات المنقولة عن الصحابة والتابعين عن الرسول الكريم في تفسيره للقرآن.

لقد حرص اليهود على تأكيد تفوقهم وصلاحهم في أجواء البدو العرب، فهم يمتلكون مفاتيح اقتصادية وثقافية بحكم تعاملهم بالمال وحصولهم على نصيب من العلوم المتداولة قراءة وكتابة، ولعلّهم ظلّوا يقيمون اتصالات فيما بينهم على امتداد منطقة شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس، وهذا ما جعلهم الأقدر على التأثير.. وعندما جاء الرسول(ص) كان لا بد لآيات الكتاب الكريم من نزالهم وتحجيمهم بما وصل من تطور الأحداث إلى أجلائهم النهائي عن الجزيرة.

﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كانوا هوداً أو نصارى تلك أمانيهم...**﴾ [البقرة/ ١١١]، ﴿**ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات...**﴾ [آل عمران/ ٢٤] ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم...**﴾ [المائدة/ ١٨]..

ثم أنهم تطاولوا على الله ذاته.. والمعروف تاريخياً كما سنرى في دراستنا عن الحركة الصهيونية أن اليهود ليس لديهم اعتبار لأية قيم أخلاقية في صراعهم مع أعدائهم ـ وهذا ما أكده العهد القديم بوضعه الموجود بين أيدينا ـ وقد بين الله لنبيه بكل وضوح ذلك المدى الذي يمكن أن يصل إليه هؤلاء في صراعهم معه مستثنياً منهم أقل القليل.. ﴿**وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا...**﴾ [المائدة/ ٦٤] ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق..**﴾ [آل عمران/ ١٨١].

وأخيراً خرجوا من عقيدة التوحيد بالكلية تبعاً لمنطوق الآية الكريمة: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**﴾ [النساء/ ٥١] واعتقد أن الآية فصل الخطاب في

تأكيد وحدانيتهم الحقيقية في زمن الرسول من عدمها، وبالنظر إلى امتداد ماضيهم في حاضرهم ومستقبلهم بشكل لا مثيل له. . فإن الدارس لا يستطيع أن يطلق حكم قيمة عليهم في هذا المجال إلا ما أكدته الآيات الكريمة وطبّقه رسول الله.

رسول الله واليهود:

يقول بعض المفسرين عن سورة (الكافرون) أنها من معجزات القرآن لأن الذين نزلت بحقهم من المشركين لم يؤمنوا فعلاً وقضوا في غزوة بدر جميعاً ولكن. . لقد كان في سيرة رسول الله عبرة للداعية إلى الله تجعل من الصبر والإلحاح على كسب الناس للإيمان والأمل بجلب الجميع إلى الإسلام، ما يؤكد أنه اتبع نفس طريقته مع اليهود رغم كل الآيات القرآنية المنزلة بحقهم.

ترك القرآن هامشاً لدى الرسول في مسألة إيمان بعض اليهود بالإسلام، والحقيقة أنه سعى جهده لكسبهم جميعاً إن استطاع. . ذلك الهامش ورد في الآية التالية: ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله إناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين**﴾ [آل عمران/ ١١٣ ـ ١١٤].

تقول حقائق تاريخ المنطقة العربية أن كثيراً من القبائل العربية اليهودية دخلت الإسلام، مثل قبائل حمير وبطون من كنانة وكندة وبني الحارث، وكان هؤلاء إعتنقوا اليهودية تدعيماً لموقعهم في وجه المطامع الحبشية وخوفاً من سيطرة الدولة الرومانية الشرقية على المنطقة في جنوب شبه الجزيرة[١]. وبوجود نصارى أيضاً وفي أجواء الصراع بين الديانتين جرت مذابح نجران عام ٥٢٣ م.

تعاون الأوس والخزرج مع بني نضير وبني قريظة وبني قينقاع وبني المصطلق الذين يعتبرهم كثير من المؤرخين من الوافدين إلى المنطقة بالهجرة هرباً من الاضطهاد الديني في شمال الجزيرة وجنوبها بعد الاحتلال الحبشي. . ولكن وبما

---

(١) كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام القاهرة ص ٢٧.

أن هؤلاء كانوا يتحدثون باللغة العربية، ومنهم الشعراء والخطباء والحكماء[1]، واكتسبوا بعض الخلال العربية كالسموأل مثلاً وقصته مشهورة في الوفاء، فلماذا يجري الفصل بينهم وبين العرب؟

لا نجد مناصاً من ترجيح عروبتهم وأن كل الصفات السيئة بما في ذلك الضلال والكفر التي وصمهم بها القرآن جاءت نتيجة فساد الديانة اليهودية وتزوير كتبها وليس لطبيعتهم الخاصة كبشر، وحتى وهم يهود.

بدأ اليهود معركتهم الأيديولوجية مع الرسول مبكرين، بل ربما منذ سمعوا بالبعثة النبوية.. ويذكر المفسرون أن سورة الكهف نزلت للرد على أسئلتهم التي حمّلها أحبارهم للنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، بهدف إحراج النبي.. وعلى سبيل المثال قالوا: سلوه عن فتية ذهبوا أول الدهر وما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها بم كانت نبوءته، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا ما بدا لكم.

فهل وثق رسول الله صلاته باليهود وتقرب من كبارهم في المدينة رغم معرفته بالنوايا كما تقول كتب التاريخ[2]. حتى أنه كتب عهداً بينه وبينهم، أمنهم فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ويعتبر ابن هشام مثلاً في سيرته أن أرض يثرب كانت لهم قبل نزول الأنصار بها وتحالف الأنصار مع اليهود وأقاموا معهم وكانت الدار واحدة. وفي سبيل شرح سبب وجود اليهود في تلك الأرض يلجأ المؤرخون العرب القدامى إلى بعض خرافات لم تثبت تاريخياً، كما نورده على سبيل الطرفة عن ابن هشام «والسبب في كون اليهود بالمدينة وهي وسط أرض العرب ـ مع أن اليهود أصلهم في أرض كنعان ـ أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) راجع: الروض الأنف للمحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله ١/ ٢٥٠، مكتبة الكليات الأزهرية وهو تعليق على سيرة ابن هشام.

موسى فوجه إليهم جيشاً وأمرهم أن يقتلوهم، ولا يبقوا منهم أحداً ففعلوا وتركوا منهم ابن ملك لهم كان غلاماً حسناً، فرقوا له ويقال للملك الأرقم بن الأرقم. ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات فقالت بنو إسرائيل لهم: قد عصيتم وخالفتم فلا نؤويكم فقالوا: فرجع إلى البلاد والتي غلبنا عليها فنكون بها فرجعوا إلى يثرب فاستوطنوها. . وهذا ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني».

يؤكد التاريخ أن الرسول(ص) كتب ذاك العهد مع اليهود ولكن علاقته بهم لم تكن وثيقة في لحظة ما. . فقد كانوا ومعهم المنافقين يتسلون بمحاولات إحراج النبي ومساومته على الدين وأحكامه[1]، حتى أنهم طلبوا منه الرجوع عن قبلة المسلمين في الصلاة باتجاه الكعبة. تقول الآية ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم. .**﴾ [المائدة/ ٤٩].

وجاء تحذير آخر في الآية ٤٢ ﴿**سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم إن تعرض عنهم فلن يضرُّوك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط. .**﴾.

ثم أنهم وعلى سبيل محاولة إفشال قيادة النبي للمدينة وما جاورها مارسوا لعبة الاحتكام إلى الرسول ثم رفض أحكامه في استغلال عجيب للظروف الصعبة التي كانت تمر بها الأوضاع في المدينة المنوّرة بقيادتها الجديدة ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون**﴾ [آل عمران/ ٢٣].

لقد حاولوا فعلاً تغيير موازين القوى لصالحهم حتى يتمكنوا من هزيمة النظام الجديد بما في ذلك الاغتيال. . وتمت المحاولة على يد قبيلة بني النضر ولكنها فشلت[2]، علماً أنهم لم يشاركوا الرسول أية موقعة ضد أعدائه رغم المعاهدة

(١) محمد عوض الخطيب: صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، دار المعراج ١٩٩٥ ص ١٩.
(٢) اليهود تاريخ وعقيدة، مرجع سابق ص ٢٨.

الموقعة بينهما. . أما محاولات الفتنة فهي لم تتوقف لحظة واحدة ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين. .**﴾ [آل عمران/ ١٠٠] ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله. .**﴾ [النساء/ ١٥٥] مذكراً الرسول بأنهم وقد نقضوا ميثاقهم مع رسولهم والله فبالأحرى انعدام احترامهم لأية مواثيق معه.

وفي تحليل بالغ العمق لنفسيات المجتمع اليهودي في المدينة المنوّرة وصولاً إلى بيان مسببات الصراع القائم والمقبل استخدم القرآن الكريم مفهوم الحسد ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. .**﴾ [النساء/ ٥٤] ولعلّ ذلك الشعور ملازم تماماً لكل الذين يتعاملون بالمال على اعتباره القيمة العليا في الحياة.

إن رسول الله الذي اتسم بالصبر وسعة الصدر والدعوة بالموعظة الحسنة كان له أن يتحمل كل ما صدر عن اليهود سعياً منه إما لدفعهم تبعاً لمصالحهم الشخصية للتحالف معه أو لتحذيرهم على أقل تقدير في صراعه ضد المشركين الأقوياء. . وبالتأكيد فإن جهوده أثمرت مرحلياً إلى أن اتخذ قراره النهائي في الوقت المناسب.

هل كان اليهود يعلمون بنبوة الرسول؟

إن آيات القرآن تؤكد ذلك، أما في البحث التاريخي فنحن نجد روايات في كتب السيرة حول موضوع كهذا[1]، لكن إنكارهم لبعثته وعداءهم الشديد لها إلى درجة التحالف النهائي مع المشركين أمر يثير الشكوك، ليس في مسألة معرفتهم ولكن في أنهم عرفوا فعلاً وأدركوا أن في بعثة النبي نهاية لسيطرتهم على المنطقة وحتى لأسلوب ممارستهم لعقيدتهم بين جيرانهم المسلمين. . ثم قرار أحبارهم الأخير بمقاومة تحول اليهود إلى مسلمين ولو أدى ذلك إلى رحيلهم المؤكد.

«عن سيرة بن هشام: روى عن أم المؤمنين صفية بنت حييّ بن أخطب قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني

(١) فاروق مساهل: التعامل التجاري مع اليهود في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥، ص٨-١٢.

دونه، قالت: فلما قدم رسول الله إلى المدينة ونزل قباء في بني عمر بن عوف غدا عليه أبي وعمي مغلسين وقالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من غم، فسمعت عمي ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ (يعني النبي) قال: نعم والله قال: أتعرفه وتثبته، قال: نعم، قال فما في نفسك منه، قال: عداوته ما بقيت»[1].

ومع ميلنا إلى ترجيح هذه الرواية بسبب من الثقة التي وضعها كتاب السيرة بأم المؤمنين صفية، فإن عناصر متعددة تداخلت في مسألة رفض اليهود للنبوة الجديدة. لقد كانت مسألة النخبوية والسيطرة الاقتصادية والسمات النفسية الطاغية لهم والتي ورثوها عبر أجيال عديدة، جعلت من مسألة الإيمان عندهم تتراجع إلى هامش حياتهم، فلم يعرف التاريخ عنهم إلا التعصب العجيب لمقولة أنهم شعب الله المختار.. كل ذلك جعل الشكوك تطغى على اليقين في النصوص التي بين أيديهم. ولعلّ في موقفهم من بعثة السيد المسيح أوضح مثال على ذلك وصولاً إلى تحريض الرومان الحاكمين على قتله.

وإذا علمنا أن الإسلام نزع من أيديهم عنصراً اقتصادياً تميّز به اليهود ولا زالوا على صعيد العالم وهو مسألة الإقراض بالربا وكنز الأموال الاحتكار، إضافة إلى رفض الرسول لأية حلول وسط معهم في هذه المسألة وإصراره على تطبيق النصوص القرآنية مما بلغنا عبر أحاديثه العديدة ومنها عن مسلم وآخرين «لا يحتكر إلا خاطيء» و «لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه ومشاهديه وقال هم سواء» وقوله «لعنت الخمرة على عشرة أوجه بعينها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها وشاربها وساقيها»[2] ثم تحريمه للدعارة وغيرها. وكل تلك الأحاديث تمس صميم الأقنية الاقتصادية لسيطرتهم على المنطقة، فإنهم شعروا بأن الأفضل لهم الرفض والتحالف مع المشركين وانتظار

---

(١) التعامل التجاري مع اليهود في الإسلام، مرجع سابق ص ٢٥.

(٢) الروض الأنف، مرجع سابق، ١/ ٢٥٧.

ثغرة ما. . وأخيراً اختيار الرحيل عن الجزيرة بكاملها، والذي أرجح أنه تم بقرارهم ولم يرغموا عليه وإن هم صنعوا المسببات التي تقنع العامة منهم بأنهم إنما أجبروا على ذلك من قبل المسلمين.

لقد واجههم رسول الله بالطريقة التي تؤثر عليهم فعلاً، إلا وهي الحصار الاقتصادي بما في ذلك قطع أشجار النخيل خاصتهم والذي تم بأمر من الله في سورة الحشر، ولكنه ظل يتعامل مع مساكينهم بدافع الشفقة التي عرف بها. . فقد قيل أن الرسول توفي ودرعه مرهونة عند يهودي[١] . . لقد كان النبي يوصي دوماً بأهل الذمة في رحاب المسلمين بعد أن تمكن من تكوين الدولة الإسلامية. وكان الحل الوسط الوحيد الذي اختاره بأمر الله هو جعلهم يدفعون الجزية ما داموا يعيشون بسلام في أرض الإسلام، فإن لهم ما للمسلمي وعليهم ما عليهم.

ومع ذلك فإن نصوص التاريخ تتحدث عن إسلام ٣٩ زعيماً من اليهود كان على رأسهم عبدالله بن سلام[٢] ويقال أنه قد حسن إسلامهم.

أخيراً وبعيد ارتحال يهود المدينة إلى خيبر في السنة الرابعة للهجرة. . هاجروا إلى الشام بعد فتح خيبر سنة ٨ هـ. وقد أجلاهم الخليفة الثاني عن مدينة بيت المقدس عند فتحها قائلاً لهم [عن مسلم] «اعلموا إنما الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم عن هذه الأرض».

وهكذا يمكن الجزم بأن رسول الله قد أصبح عدوّهم الأول الذي يتوارثون عداوته جيلاً بعد جيل. وظل حديثه الأشهر المتفق عليه متداولاً بين المسلمين كوصية من أهم وصاياه «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال واقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» رواه مسلم والبخاي.

---

(١) الروض الأنف، مرجع سابق ١/ ٢٥٧.

(٢) هادي المدرسي، الصراع الإسلامي الإسرائيلي، بيروت، مؤسسة الوفاء ١٩٨٣، ص٣٣.

ونجدنا مقسورين على الأخذ بوصية رسول الله لأن لنا فيه الأسوة الحسنة .

الفصل الثاني

القرآن الكريم والعهدان (القديم والجديد)

١ ـ العهد القديم:

هذا الكتاب يشكل بنصوصه الأسس التي يستند عليها اليهود للمطالبة بفلسطين، وعلى أساسه تتمثل حركتهم عبر التاريخ نحو حلم السيطرة على المنطقة العربية وتكوين المملكة التي تحكم العالم، ومنه يستمدون نظريتهم في أرض الميعاد.

إن الدراسات المتوفرة للعهد القديم بأغلبها صدرت عن أولئك الذين ربطوه بالعهد الجديد ليشكل (الكتاب المقدس) لدى المسيحيين. وربما كانت المجامع المسكونية المتتالية للفاتيكان هي المرجع الافتائي في هذه المسألة. وإذا عدنا إلى تقارير المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) نجد الفقرة التالية:

لقد كتب العهد القديم بأقلام بشر الهمهم الروح القدس، أضيفت إليه فقرات من قبل بشر، وإن الطابع المشكوك فيه لفقرة ما لا تحرف الحقيقة العامة التي تنبع منه[١].

من هذا المنطلق يصر الفاتيكان على قداسة الكتاب رغم بشرية مؤلفيه باعتبار أنهم ملهمون.. ومهما وجدت من تناقضات فإن القداسة مستمرة.

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، مرجع سابق، ص ١٧.

إذا عدنا إلى دراسة أدموند جاكوب المعنونة (العهد القديم) نجده يقول: في القرن الثالث للميلاد كان هناك ثلاث نصوص عبرية: أولها (الماسوري) وثانيها النص المترجم عن اللغة اليونانية، وثالثها النص المسمى (السامري) أو ما يطلق عليه أسفار موسى الخمسة. أما النص الموحد للعهد القديم فقد تم تأليفه في القرن الأول للميلاد، ولعلّ أقدم نص عبري له متوفر بين أيدينا يعود إلى القرن التاسع الميلادي.

قام يهود الإسكندرية بترجمة العهد القديم لليونانية المسماة (الترجمة السبعينية) في القرن الثالث قبل الميلاد. وهناك توراة ترجع إلى جمع القديس إيرونيموس مستخدماً فيها وثائق عبرية ـ بناء على أقواله ـ ترجع إلى السنوات الأولى من القرن الخامس الميلادي (Vulgate).

وقد أعدت إحدى النسخ عن مدونات سريانية وأرامية وسميت بالنصوص المتوسطة أو الحلول الوسط بين مختلف النسخ.. ومثل ذلك نسخة والتون التي صدرت في لندن عام ١٦٥٧ عن مجموعات فيها لغات متعددة بما في ذلك اللغة العربية.

تلك نظرة بالغة التكثيف على الطرائق التي كتبت بها التوراة المتوفرة اليوم بين أيدينا، وما وصلنا من دراسات في مراحل تاريخية متعددة تبين أن المتوفر اليوم منها هو نسخة موحدة توفيقية مأخوذة من العديد من المصادر. ونعتقد أن بعض تلك الأصول والمخطوطات ربما لا زالت متداولة بين اليهود أنفسهم بشكل سري أو علني.

لقد اعتمد تدوين العهد القديم على الذاكرة البشرية بشكل رئيسي، وهكذا أتيح للمدونين أن يدخلوا فيه الأغاني الفولكلورية للقبائل اليهودية من قوميات شتى وظلّ نشيد الأنشاد أسطع مثال على ذلك.. وفي العهد القديم أيضاً الأمثال التي وضعها أولئك البدو والحضر الذين يشكلون اليهود.. وفي مراحل لاحقة استخدم

حتى الأرشيف الحكومي الذي يدوّن تواريخ القبائل وحركة الأحداث وتحتفظ به السلطة عندما يصبح لليهود سلطة ما.

وهكذا يمكن توصيف هذا الكتاب على ضوء ما تقدم بأنه مجرد نص أدبي ملحمي شعبي استمر تدوينه زمناً طويلاً بالإضافة والحذف تماماً كألف ليلة وليلة[١].

واستطراداً يمكن القول أن بنية أسفار موسى الخمسة أو ما يسمى اليوم بالتوراة، ثم وضعها في القرن العاشر قبل الميلاد، والتي سميت بالرواية (اليهوية).. أضيفت لها بعد ذلك الروايتان (الكهنوتية) و (الإلهيمية) اللتان صدرتا عن مملكة الجنوب اليهودية. وبعد سقوط مملكة الشمال اليهودي سنة ٧٢١ ق.م. ورثت مملكة الجنوب ميراثها الديني وظهر مصطلح التوراة، تلاه (عزير) وسفر التثنية ثم سفر الأمثال. أما رسائل حفنيا وناحوم وحبقوق فيرجع تاريخها إلى ٥٩٨ ق.م.

عندما سقطت القدس بيد الأشوريين في ٥٨٧ق.م برز حزقيال كنبي في المنفى، وقد دوّن ورثته أو ما سمى با(لكتبة) رواية ثالثة لسفر التكوين المدرجة بالرواية الكهنوتية وهي تسجل تاريخ اليهود حتى موت يعقوب.

عند عودة اليهود إلى فلسطين ٥٣٨ق.م كتبت النصوص التالية: حجاي، زكريا، اشعياء الثالث، ملاحي، دانيال، باروك ثم كتبت الأمثال سنة ٤٨٠ق.م وكذلك سفر أيوب. أما سفر الجامعة فقد كتب في القرن الثالث ق.م وبعد نشيد الأنشاد وأخبار الأيام وعزرا ونحميا. أما سفر بن سيراخ فقد تمت كتابته في القرن الثاني ق.م، وتبعها في القرن الأول أسفار الحكمة لسليمان، والمكابيين وتلا ذلك مع صعوبة تحديد التاريخ بدقة أسفار: راعوث، واستير، ويونس، وطوبيا، ويهوديت.

يعتبر دارسوا العهد القديم أن الوحي الإلهي يختلط بالنصوص أو أن في

---

(١) نفس المرجع ص ٢٠.

النصوص حقائق الوحي الإلهي. . ولكن المتوفر هو في الواقع نتاج قرائح الذين كتبوا وعالجوا النصوص على سجيتهم مما سمعوه وربما مما ألّفوه دون الرجوع إلى شيء آخر.

إن كلمة توراة هي تعبير مأخوذ من اللغات السامية يراد منها التعبير اليوناني Pentateugue[1] وإلى ما قبل زمن كان بعض الدارسين يلصقون كتابه التوراة بالنبي موسى ولكن المتأخرين هجروا هذا الاعتقاد. فمثلاً يمكن أن نجد كتّاب الإنجيل يأخذون بمثل هذا القول كما ورد في إنجيل يوحنا «عن السيد المسيح قائلاً لأنكم لو كنتم ترون موسى كنتم تصدقونني لأنه كتب عني فإن كنتم لا تصدقون ما كتب فكيف تصدقون كلامي» يوحنا، إصحاح ٥.

في مناقشته للمسألة يرفض الأب (دييغو) هذه الفكرة لأن فيها سجل للكيفية التي مات بها الكاتب نفسه وهذا مستحيل، ثم أن هناك فوارق في الأسلوب والتناقض في المعلومات وحتى في تسمية الرب. ومما لا شك فيه بعد هذا الزمن المديد أن كثيراً من تراث الأمم التي اختلط بها اليهود أو ـ القبائل التي اعتنقت اليهودية من أمم مختلفة ـ قد دخل في النصوص التوراتية.

على ضوء كل ذلك يمكن تعريف العهد القديم بأنه «تاريخ تحركات اليهود ملصقاً بإرادة الله باعتبارهم شعب الله المختار»[2] أما عن التناقضات فيها من أسلوبية أو علمية أو بين نسخة ونسخة فحدث عنها ولا حرج. . ومع كل ذلك ربطت المجامع المسكونية العهدين القديم والجديد لتصبح الفكرة الدينية (يهودية ـ مسيحية).

يقول القديس أوغسطين «إن مؤلفات الكتب المقدسة هذه التي تعرف بالقانونية هي فقط التي تعلمت أن أعطيها انتباهاً واحتراماً كاعتقادي الجازم بأنه ليس هناك أحد من كتّابها قد أخطأ، فعندما التقي في هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣.

للحقيقة فإنني عندئذ لا أشك في أن نص نسختي لا يحتوي على خطأ بل أن المترجم لم يترجم النص الأصيل بشكل صحيح أو.. أن مقدرتي على الفهم تتسم بالضعف»[١].

بمعنى أكثر وضوحاً. فإن المجامع المسكونية أو بالأحرى أحدثها أكدت على أنه إذا تناقض العلم مع التوراة فإننا نشك بالعلم وليس بالتوراة.

٢ ـ الأناجيـــــــــل:

إذا كان العهد القديم المتوفر الآن موحداً باتفاق فإن الأناجيل استمرت على تعدديتها بعد إلغاء عدد كبير آخر منها لتستقر على أربعة نصوص هي: متى، يوحنا، لوقا، مرقس ثم أعمال الرسل كنص خامس منفصل.

تسمى الأناجيل بالعهد الجديد.. ولعلّ أوّل ما اختلفت عليه هو مقولة صعود السيد المسيح إلى الله.. فمثلاً كما يحدّد الأب دانيلو ١٩٦٧ (وهو من أكبر دارسي الأناجيل)، أن متى ويوحنا لا يتحدثان مطلقاً عن صعود المسيح) وجاء لوقا ليحدده بيوم القيامة، ويشير إليه مرقس دون تحديد التاريخ، أما أعمال الرسل فتحدده بمدة زمنية مقدارها أربعين يوماً بعد صلب المسيح.

منذ بدء تدوين العهد الجديد كان الصراع في المسيحية يسير على خطين متوازيين الأول منهما حول طبيعة المسيح، أما ثانيهما وهو ما يعنينا في هذه الدراسة فكان حول ربط الإنجيل بالتوراة أو ما اصطلح على تسميته بالمسيحية اليهودية. وفي هذا السياق يبرز دور القديس بولص الذي أسس الكنيسة عملياً (٤٩ م) معبراً عن مذهبه بضرورة الفصل وبوضوح عبر تحرر المسيحية من انتمائها اليهودي سياسياً ودينياً حتى تفتح ذراعيها لكل الأمم[٢]. وبسبب من موقفه هذا اعتبر الطرف الآخر بولص خائناً للغالبية العظمى من المسيحيين، لأنه كذلك يعتبر تاريخياً مؤسس المسيحية بعد الرسول عيسى المسيح.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

تبلورت المسيحية كدين منفصل عن اليهودية منذ سنة ٧٠ ميلادية، وفي تلك السنة كان خراب بيت المقدس على يد الفرس وتشتت من كان فيها من اتباع الملّة في اصقاع الأرض ممّا استتبع أيضاً نهاية المسيحيين اليهود.. فالقسم الذي بقي في المشرق توزعوا إمّا بين المسلمين أو بين المذهب الأرثوذوكسي أو الكلداني أو الأثيوبي في أزمان لاحقة.

ظهرت الأناجيل بداية منذ سنة ١٤٠ م وكانت تعرف يومها برسائل بولص.. وعندما ظهر القديس أوغسطين سنة ١٥٠ م سماها (مذكرات الرسل) وثم إقرار النصوص الأربعة السالفة الذكر في المجمع المسكوني الأول سنة ١٧٠ م.

يسود الاعتقاد بأن الذين كتبوا الأناجيل هم الحواريون وتلامذة السيد المسيح من اتباع الحواريين[١].. وقد ثبت علمياً إن هذا اعتقاد خاطىء.. فليس من شك في أن كثيرين حفظوا بعض أقوال السيد المسيح.. لكنهم لمْ يبدأوا بالتدوين إلا بعد أربعين سنة من غيابه.. ولم يكن ممكناً للكنيسة أن تتحقق من أولئك الكتبة وصدقهم.. كل منهم كتب على حسب أسلوبه واهتماماته وظرفه الاجتماعي ما جعل الاعتقاد الغالب بين دارسي الإنجيل أنه ليس هناك أساس تاريخي لها.. أو بالأحرى أنه لم تتوفر نسخ يعود تاريخها إلى تلك الفترة.. وعندما انعقد المجمع المسكوني في نيقية ٢٥٦ م[٢] توصل إلى اتفاق على الأناجيل الأربعة المعروفة.. وكان من جملة ما عالجه أيضاً مسألة طبيعة المسيح التي لم يحسم الخلاف عليها إلا بعد ذلك بزمن.

أخيراً.. جاءت وثيقة المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥ لتقول «دائماً حفظت الكنيسة وفي كل مكان، وما زالت، الأصل الرسولي للأناجيل الأربعة، وهو الذي دعا إليه الرسل بأمر المسيح فقد نقلوا إلينا أنفسهم والناس الذين كانوا يحيطون بهم وبتأثير من الوحي الإلهي للروح القدس..».

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) الدكتور الشيخ محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية.

تفسير القرآن والعهدين:

اتفق المسلمون وبالاجماع أن الكتاب الموجود بين أيدينا هو القرآن الكريم الموحى إلى الرسول محمد(ص) بنسخته التي وزعها الخليفة الثالث على الأمصار الإسلامية بعد أن تم نسخها عن الأصل المحفوظ لدى أم المؤمنين حفصة التي جمعت في زمن الخليفة الأول.

وبما أن أحداً لم يعترض (إلا شذرات من القول وردت في كتب الحديث لم يلتفت إليها أحد) فقد سكت الدارسون عن التشكيك في نسبة القرآن إلى الرسول تأريخياً. لكن الاختلاف حقيقة كان في تفسير القرآن ولم يزل.

ما يعنينا في هذه الدراسة هو مقدار التأثر من قبل المفسرين المسلمين بالكتب (المقدّسة) التي أشار إليها القرآن ذاته في محكمه، هذه الكتب التي حسم الله سبحانه أمرها من ناحيتين: الأولى أنها نسخت بالقرآن، والثانية أن فيها تحريفاً كبيراً، وهذا يعني أنها ليست بكل تأكيد الأصل الثابت لما أنزل على أنبياء إسرائيل أو السيد المسيح.. رغم أن آيات القرآن تصف اليهود والنصارى بأنهم أهل الكتاب، وتطلق عليهم أحكام قيمة مختلفة ما بين صالح ومنحرف وكافر وتدعوهم جميعاً إلى اتباع الرسول محمد(ص). وتأمره بدعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وعدم إجبارهم على شيء.. وعندما تشكلت الدولة الإسلامية سموا بأهل الذمة وطلب منهم دفع الجزية إلى خزينة الدولة وعوملوا كما تقول كتب التاريخ أحسن معاملة ولم يطلب منهم المشاركة في القتال والفتوح.

في هذا المجال سنكتفي بتلمس تأثير العهدين القديم والجديد أو ما اصطلح على تسميته بالتوراة والإنجيل عند مفسري القرآن، وهو ما أطلق عليه المسلمون مصطلح الإسرائيليات، أو ما يعني استخدام معلومات من التوراة والإنجيل لتفسير آيات تتعلق بقصص الأنبياء التي وردت في القرآن.

وللتخصيص، فإن أهم ما يعنينا هنا هو ما يتعلق بادعاءات اليهود بالوعد

الإلهي لهم بوراثة الأرض المقدسة، وماهيتها، وحدودها كما وردت لدى المفسرين المسلمين. وكما نرى فإن هؤلاء إلا قليلاً، أعطوا للعهد القديم مصداقية تثير الشكوك وتستوجب التوضيح، خاصة في الظروف الراهنة التي يظن فيها اليهود وحلفاؤهم من المسيحيين اليهود ـ وقد برزوا مجدداً على المسرح في بلدان متعددة وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ـ(كما سنرى لاحقاً) أنهم في زمن يتيح لهم قطف ثمار هذا الوعد الإلهي لهم بفلسطين وغيرها. لقد اخترنا سوراً وآيات محددة من القرآن كنماذج للدراسة لا غير، ورجعنا في التفسير إلى أربعة كتب، اثنان منهما قديمان ويعتبران من أهم تفاسير القرآن الكريم وأعني (الطبري وابن كثير) والآخران جديدان ظهرا متزامنين تقريباً وهما «الميزان في تفسير القرآن وتفسير التحريروالتنوير»، وهذان الأخران أتيح لهما أن يعاصرا القضية الفلسطينية، لذلك تمت الإشارة إليها في التفسير كإشكالية معاصرة لا يمكن تجاوزها. . تماماً كإثبات كروية الأرض والسماوات وغيرها من القضايا المستجدة التي لم تكن في عهد المفسرين القدامى غفر الله للجميع.

قد يقال أن الله سبحانه وعد بإعطاء أرض فلسطين لليهود الذين كانوا في زمن موسى. . وليس لأولئك علاقة بالذين عاشوا مع رسول الله محمد أو الذين يعيشون بيننا الآن ممهدين للسيطرة علينا في السنوات القليلة القادمة. لكننا في استعراضنا لتلك الأخطاء في التأويل لم نقصد توجيه الاتهام لأحد، بل أن جل ما ننحو إليه هو إثبات التسلل الصهيوني إلى الإسلام من منافذ متعددة خلال حقب متفاوتة. . ولم يسلم من هذا التسلل حتى الحريصين الذين يحاولون تجنب الإسرائيليات في تفسير التاريخ، وخاصة ما ورد من عباراته في آيات القرآن الكريم ومنهم السيد محمد حسين طباطبائي صاحب تفسير الميزان.

تفسير آية ـ دراسة مقارنة:

ورد في سورة البقرة الآية رقم ٥٨ **﴿وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد**

المحسنين﴾ ومن سورة البقرة آية مشابهة رقم ١٦١ **﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾** شيخ المفسرين أبو جرير الطبري[١] يقول: وهي قرية بيت المقدس.

يقول ابن كثير[٢] بداية مؤكداً أن سورة الأعراف مكية ويحيلنا في تفسير الآية على سورة البقرة «يقول لهم تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة، لمن قدموا من مصر بصحبة موسى فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله في التيه» (. . .) لهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس كما نص على ذلك السدى والربيع وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني، قال آخرون هي أريحا، وهذا القول (يعني أنها أريحا) نقل عن عبد الرحمن وابن عباس، وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر (حكاه الرازي عن الربيع) والصحيح الأول أنها بيت المقدس فتحها الله عليهم عشيه جمعة وقد حبست لهم الشمس ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب سجداً (. . .) زحفاً على أقفيتهم (. . .) فأنزل الله عليهم عذاب الطاعون».

وقد اخترنا تفصيل ابن كثير لأنه لا يبتعد كثيراً عن كلام الطبري لتفسير ذات الآية في سورة البقرة التي تسبق الأعراف في ترتيب السور في القرآن.

يقول السيد طبطبائي[٣]: وفي تفسير القمي: أن موسى لما خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل قال لهم موسى: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم

---

(١) محمد بن جرير الطبري ولد ٢٢٤ هـ توفي ٣١٠ هـ، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٥٨، ١٣/ ١٧٨.

(٢) عماد الدين إسماعيل بن كثير توفي ٧٧٤ هـ، تفسير القرآن، دار الأندلس بيروت ١٩٦٦، ج٣/ وعن سورة البقرة ١٠/ ١٧٠.

(٣) محمد حسين طباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة مطبوعات إسماعيليان، قم ط٣، ١٩٧٣، ١/ ١٩١.

باتخاذكم العجل فتولوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم بأيديكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فقالوا له: كيف نقتل أنفسنا، قال موسى: أغدوا كل واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكين أو حديد أو سيف فإذا صعدت أنا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم ملثمين لا يعرف أحد صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضاً فاجتمعوا سبعين ألف رجل ممن كانوا عبدوا العجل إلى (بيت المقدس) فلما صلى بهم موسى وصعد المنبر أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرائيل فقال: «قل لهم يا موسى ارفعوا القتل فقد تاب الله عليكم. . .» وهذا القول منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب(رض) كرّم الله وجهه.

يقول الطاهر بن عاشور[1] بعد أن يعقد مقارنة لغوية بين سورة الأعراف وسورة البقرة بما يخص هذه الآية مما لا ضرورة لإيراده «تقدم أن المراد بالقرية اريحياء. .».

وقبل مناقشة النصوص السالفة نستعرض مثالاً ثانياً ومهماً وهو الآية ١٣٧ من سورة الأعراف **﴿وأورثنا الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾**.

يقول الطبري ج١٣ ص ٧٦ «قال أبو جعفر: مشارق الأرض؛ الشام وذلك ما يلي المشرق منها ومغاربها التي باركنا فيها يقول: التي جعلنا منها الخبر ثابتاً لأهلها دائماً. . وإنما قال جل ثناؤه وأورثنا لأنه أورث ذلك بني إسرائيل بمهلك من كان فيها من العمالقة. وعن ابن وكيع حدثنا بن يمان عن إسرائيل عن فرات القزاز عن الحسن في قوله (وأورثنا. . .)، قال الشام وحدث الحسين بن يحيى مثله: وعن قتادة هي أرض الشام وحدثنا محمد بن عبد الأعلى عن. . . قتادة «هي أرض الشام».

فإن قال قائل فإن معناه في مشارق أرض مصر ومغاربها فإن ذلك بعيد عن مفهوم الخطاب مع خروجه عن أقوال أهل التأويل والعلماء التفسير، وكان بعض

---

(١) التحرير والتنوير مرجع سابق، ص ١٤٥ الجزء ٨ـ٩.

أهل العربية يزعم أن مشارق الأرض ومغاربها نصب على المحلّ: بمعنى أورثنا القوم الذين يستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها، وأن قوله وأورثنا إنما وقع على قوله: التي باركنا فيها، وذلك قول لا معنى له لأن بني إسرائيل لم يكن يستضعفهم أيام فرعون غير فرعون وقومه ولم يكن له سلطان إلا بمصر فغير جائز والأمر كذلك أن يقال: «الذين يستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها..» انتهى قول الطبري غفر الله له.

يقول السيد طباطبائي جزء ٨، ص ٢٢٨ «الظاهر أن المراد بالأرض أرض الشام وفلسطين ويؤيده أو يدل عليه قوله «التي باركنا فيها» فإن الله سبحانه لم يذكر بالبركة غير الأرض المقدسة التي هي نواحي فلسطين إلا ما وصف به الكعبة المباركة والمعنى: أورثنا بني إسرائيل، وهم المستضعفون، الأرض المقدسة بمشارقها ومغاربها..».

يقول الطاهر بن عاشور «المراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم، وقد قيل أن فرعون كان له سلطان على بلاد الشام(...) والقوم الذين كانوا يستضعفون هم بنو إسرائيل كما وقع في الآية الأخرى: ﴿**كذلك أورثناها بني إسرائيل**﴾ أي أن الله ملكهم الأرض وجعلهم أمةً حاكمةً جزاءً لهم على ماصبروا على الاستعباد(...). والمشارق والمغارب جمع باعتبار الجهات لأن الجهة أمر نسبي.. والأرض هي أرض الشام وهي الأرض المقدسة وهي: تبتدى عمق السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر وتنتهي ءلى سواحل بحر الروم وهو البحر الأبيض المتوسط وإلى حدود العراق وحدود بلاد العرب وحدود بلاد الترك(...) أي أعطيناهم عن أرض مصر التي أخرجوا منها أرضاً هي خير من أرض مصر..» انتهى.

في هذا العرض المقارن سأكتفي بإشارات مكثفة إلى الخلل، وبما أن الجميع يستندون في تفسيرهم أولاً إلى السلف الصالح وعلى رأسهم الإمام علي(رض) وابن عباس وغيرهما، فإن الباحث من منطلق تنزيه أولئك عن خطأ كبير في التأويل كالذي رأينا لا يجد مناصاً من القول أنهم أي المفسرين وخاصة القدماء منهم أخذوا

مباشرة عن العهد القديم في سبيل إسناد أقوالهم. ولا بد من الإشارة إلى دور اليهود الذين اعتنقوا الإسلام مثل كعب الأحبار المشهور الذي مارس التفسير وكان له تأثير على الصحابة، ورغم أن مفسراً كبيراً كابن كثير يأخذ الإسرائيليات بحذر ويناقشها فهو كما رأينا عندما يدلي برأيه حول دخول اليهود بيت المقدس أو أريحا فإنه ينحاز إلى بيت المقدس، تماماً كالتراجيديا التي شهدناها في تفسير القمي عن الإمام علي(رض) والتي تخالف منطوق التاريخ وحتى العهد القديم الذي ينص على أن موسى توفي قبل دخول فلسطين.

يمكن القول على سبيل المثال أن بيت المقدس كلمة إسلامية خالصة، فقد أخذت المدينة العديد من الأسماء مثل يبوس وأورشليم أو أورسالم وغيرها وهي أسماء كنعانية. وبالتأكيد لا يمكن لأحد من الصحابة خاصة ابن عباس أن يكون قائل تلك الأحاديث المسندة إليه. وبسبب من بعد الأمد بين ابن عباس وأول تفسير معتمد كالطبري (بين القرنين الثالث والرابع الهجري) فإن دخول الاقتباسات التوراتية على مفاهيم تفسير القرآن تصبح مرجحة إلى حد بعيد.

ليس من شأن هذه الدراسة البحث في تفسير القرآن كله من خلال الإسرائيليات، مكتفية بما يخص موضوع البحث وهو الافتاء بقبول اليهود بيننا رغم كونهم فاتحين مغتصبين، فإن أحدث التفاسير يربط القرآن بالعهد القديم ربطاً وثيقاً وأعني (تفسير التحرير والتنوير) ولهذا سيفرد له مجال خاص. لكنني لا أجد مناصاً من القول أن أهمية معالجة هذا الموضوع راهناً نابعة من مسائل لها علاقة بالسياسة الحالية التي يراد إيجاد تغطية لأخطائها من خلال القرآن، وهنا تبدو أهمية التفاسير لأنها أحياناً تفوق أهمية النص ذاته (وأعني القرآن) لأنها من خلال المنقول المقدّس عن السنة النبوية وحملتها وأعني الصحابة والتابعين، تسعى إلى مصادرة عقول المسلمين دون قصد، وأحياناً بقصد واضح كما فعل الشيخ بن عاشور، كما أرجح، وصولاً إلى نسج غطاء يبرر تصرفات السلطات الإسلامية التي تنحو في غالبيتها إلى التسليم للصهيونية التي تنبع وبالجزم (كما سنرى لاحقاً) من العهد القديم ونصوصه حول أحقية اليهود بفلسطين لأنها وعد الله لهم. فهل تحتمل نصوص القرآن الكريم

هذا التأويل الذي أوردناه في الكتب الأربعة (كمثال) حول موضوع فلسطين؟

لقد وقع المفسرون في فخ كلمة الأرض التي باركنا فيها وأصروا على أنها فلسطين، بل وأن بعضهم جعل لها حدوداً معتمدة هي بلاد الشام جميعاً كما فعل ابن عاشور. . وقد نسي هؤلاء أن هناك أماكن كثيرة بارك الله فيها منها مثلاً أماكن في سيناء نفسها كما ورد في سورة طه ﴿**إخلع نعليك إنك في الوادي المقدس طوى**﴾. وفي حديث الإسراء والمعراج وردت مباركة المدينة المنوّرة. . ثم أن كلمة المباركة تحمل معنى واضحاً كما ورد عن الطبري «وهو جعلنا فيها الخير ثابتاً دائماً لأهلها» فأي حجة لهؤلاء جميعاً عندما اختاروا فلسطين منحازين إلى النقل، لاغين عقولهم كلياً.

والعجيب في الأمر أن مفسراً مثل ابن كثير يخطىء في الجغرافيا عند يصر (على أنّ المقصود بالقرية هي القدس وليس أريحا لأنها ليست في طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس). . والجغرافيا تقول وحتى العهد القديم أنهم عبروا نهر الأردن إلى أريحا أولاً فهي في طريقهم حكماً إذا جاز لنا مسايرة منطق الطرق والسير مسلّمين بأن ذاك هو ما قصده الله من تلك الآية، ولكن المسألة أبعد ما تكون عما ورد في التفاسير التي أضاعت ما ورد عن الرسول(ص) ذاته في هذا الشأن. . لكل هذا نجرؤ على القول برفضها جميعاً لأنها خالفت ظاهر النص على الأقل، ذلك أن الله سبحانه قادر على تحديدها جميعاً بالأسماء إذا كانت هي القدس أو أريحا أو فلسطين أو الشام، فلماذا لم يفعل؟ ولماذا تطوع المفسرون بأخذ التفسير عن العهد القديم كما هو دون مناقشة كما رأينا؟

العهد القديم في تفسير جديد:

هذا التفسير المقصود وهو (التحرير والتنوير) عمل به المؤلف زمناً طويلاً يقارب الأربعين عاماً، وقد انتهى من تأليفه كما جاء في عام ١٣٨٠ هـ ١٩٦٢ م وقد صدرت الطبعة الكاملة منه متأخرة، لأن الموجود لدى منها تاريخه ١٩٩٠. وبما أنه التفسير الأكثر عصرية فعلاً ويشير إلى المسألة الفلسطينية، فلا غنىً من تمحيصه

جيداً كمثال واضح على مقدرة الحركة الصهيونية على النفاذ إلى عقول المؤسسة الدينية الإسلامية الرسمية (المؤلف كان مفتي تونس). كقاعدة للبحث منطلقين من تفسير سورة المائدة (المجلد ٦ ـ ٧) ص ٦٩ وما بعد.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ ص ٨٨ يقول المؤلف: وأما تأويل «فإنه منهم» على التشبيه البليغ أي كواحد منهم في استحقاق العذاب، قال ابن عطية: من يتولهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقدهم ولا إخلال بالإيمان فهو منهم بالمقت والمذمة الواقعة عليهم، وهذا بالإجمال في قوله فإنه منهم مبالغة في التحذير من موالاتهم وقت نزول الآية(. . .) وقد اتفق علماء السنة على أن ما دون الرضا بالكفر وممالأتهم عليه من الولاية لا يوجب الخروج من ربقة الإسلام ولكنه ضلال عظيم بحسب قوة الموالاة وباختلاف أحوال المسلمين».

الشيخ ابن عاشور يجتهد كما توقعت في مسألة (وقت نزول الآية، مع أنه يحدد في مقدماته أن أسباب النزول هي مجرد إشارات فقط، وأن القرآن صالح لكل زمان ومكان. . واستنتاجاً من مقدماته فإنه يستثني هذه الآية من الامتداد الزمني، ويعني بأن الموالاة هي ضلال عظيم فقط وليست خروجاً على الإسلام، مع أن ظاهر الآية بالغ الوضوح «فإنه منهم» بخروج المتولي لهم عن الإسلام كلياً.

ولأن هذا الموضوع سيجري التطرق إليه في نهاية البحث فإن المؤلف لا يبدو حسن النوايا وهو يمهد لمسألة الصلح مع اليهود بوضع اختلاف أحوال المسلمين وقوة الموالاة موضع الاعتبار متناسياً أو متجاهلاً ظاهر الآية.

لننظر إلى ما جاء حول تفسير الآية التالية في مسألة تزوير التوراة **﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظّاً مما ذكروا به . .﴾** [المائدة/ ١٣].

يقول الشيخ «وكذلك ما هنا: أي يعدلون بالكلم النبوية عن مواضعها فيسيرون بها في غير مسالكها وهو تبديل معاني كتبهم السماوية وهذا التحريف يكون

لسوء التأويل اتباعاً للهوى، ويكون بكتمان أحكام كثيرة مجاراة لإهواء العامة. . قيل: يكون بتبديل ألفاظ كتبهم، وعن ابن عياض ما يدل على أن التحريف فساد التأويل، وقد تقدم القول في ذلك عند قوله تعالى ﴿**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾ في سورة النساء وجيء بالمضارع للدلالة على استمرارهم. . ».

ومن الواضح أن ما يأخذ به المؤلف ويحبذه من الأقوال هو قول فساد التأويل أي التفسير. . وهذا يعني إقراره الضمني بصحة ما ورد في العهد القديم الموجود بين أيدي اليهود وقت نزول الآية باعتباره من عند الله كتاباً منزلاً على أنبيائهم. . وبما أننا نرجح أن النصوص لم تتغير كثيراً منذ ١٤٠٠ سنة استناداً إلى الدراسات التي قدمناها حول الكتاب القديم، فإن ترجيح فساد التأويل للمفسر يعطي دلالات لا تبعث على الثقة.

في المثال التالي يصل المؤلف من خلال مؤيداته من النقل عن السيرة النبوية إلى درجة التشكيك بالقرآن عندما يفسر الآية «قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون».

يقول: وعن عبدالله بن مسعود قال: أتى المقداد بن الأسود النبي وهو يدعو على المشركين يوم بدر فقال: يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ﴿**إذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون**﴾ [المائدة/ ٢٤] إلى آخر الحديث. فلا تظنن أن هذه الآية كانت مقروءة بينهم يوم بدر لأن سورة المائدة من آخر ما نزل، وإنما تكلم المقداد بخبر كانوا يسمعونه من رسول الله فيما يحدثهم به عن بني إسرائيل ثم نزلت الآية بعد ذلك بهذا اللفظ» ص ١٦٤.

يثير هذا القول أسئلة متعددة. فهل كانت أخبار بني إسرائيل متداولة بين المسلمين عن النبي أو غيره بنفس ألفاظ القرآن وآياته التي تحدى بها الله العرب أن يأتوا بآية من مثلها؟ فما الذي يمنع المشككين من إطلاق الاتهام بأن الكتاب بكامله من تأليف الرسول. . ونشير هنا إلى ادعاء أمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور بأن الرسول قد أخذ عن شعره رغم أن ذلك لم يثبت أبداً. . فما بال الشيخ يثير تلك

الشكوك حول القرآن خاصة عندما يتعلق الأمر باليهود؟

إن قارىء التفسير متمعناً يلمس الكثير من الاضطراب والتشوش خاصة عندما يرى تناول المؤلف لشكل العلاقة بين الرسول واليهود في المدينة المنورة من خلال العديد من الآيات ومنها. ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم من الذين هادوا سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين، لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا**. . .﴾ ص ١٩٤ [المائدة/ ٤١].

هنا يستخدم المؤلف أسباب النزول ـ وهذا حقه ـ ويروي من السيرة الحادثة التالية. . يقول «وسبب نزول هذه الآيات حدث أثناء مدة نزول هذه السورة فعقبت الآيات النازلة مثلها بها، وسبب نزول هذه الآيات وما أشارت إليه هو ما رواه أبو داود والواحدي في أسباب النزول، والطبري في تفسيره ما محصله أن اليهود اختلفوا في جلد الزاني بين أن يرجم وأن يجلد، اختلافاً ألجأهم إلى أن يرسلوا إلى يهود المدينة أن يحكموا رسول الله بذلك، وأن الرسول قال لأحبارهم بالمدينة أما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن (. . .) فأنكروا الرجم، فأمر بالتوراة أن تنشر وجعل بعضهم يقرأها ويضع يده على آية الرجم (أي يقرأها للذين يفهمونها بلغتهم) فقال الرسول إرفع يدك، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم فقال رسول الله: «لأكونن أول من يحيى حكم التوراة. . »».

هذا النص الذي رجحه المؤلف عن أسباب النزول لتفسير الآية يقودنا إلى سؤال وجيه.

هل كان الرسول الكريم مطلعاً على التوراة نصاً مفصلاً بغير ما جاءت به نصوص القرآن الكريم في تحذيره من تزويرها والحسم بأن القرآن قد نسخها كلية؟ المؤلف يعترف بأنها كتبت بعد نزول التوراة الأصلية بزمن طويل، فكيف يستقيم أن يطلب الرسول(ص) نشر التوراة. . وأية توراة هذه. . هل هي التي نزلت على موسى فقط أو بحمل العهد القديم الذي يضم كتباً أخرى نزلت على أنبياء مثل داود الذي

آتاه الله زبوراً ـ لقد جاء النص غامضاً ومثيراً للشكوك متناً وسنداً.

الاستخدام المباشر للعهد القديم:

يقول الله تعالى: **﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين، يا قوم أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، لا ترتدوا على أدباركم فتقلبوا خاسرين..﴾** [المائدة/ ٢٠ـ٢١].

يقول المؤلف «فقد كانت أخت موسى نبية كما هو صريح التوراة (إصحاح ١٥ من الخروج) وكذلك الداد وميداد كانا نبيين في زمن موسى كما في التوراة (الإصحاح ١١ سفر العدد) (...) والأرض المقدسة يعني المطهرة المباركة أي التي بارك الله فيها أو لأنها قدست بدفن إبراهيم عليه السلام في أول قرية من قراها وهي (حبرون)، وهي هنا أرض كنعان من برية (جنين) إلى مدخل حماة شمالاً وإلى غزة وحبرون. وهذه الأرض هي فلسطين وهي الواقعة بين البحر المتوسط وبين نهر الأردن والبحر الميت فتنتهي إلى حماة شمالاً وإلى غزة وحبرون جنوباً وفي وصفها بالتي كتب الله التحريض على الاقدام لدخولها».

ويتابع القول «وقد أشارت هذه الآية إلى ما في الإصحاح الثالث عشر والرابع عشر من سفر العدد أن الله أمر موسى أن يرسل اثني عشر رجلاً جواسيس يتجسسون أرض كنعان التي وعد الله بني إسرائيل من كل سبط رجلاً، فعين موسى اثني عشر رجلاً منهم: يوشع بن نون من سبط افرايم ومنهم كالب بن يقنة من سبط يهوذا ولم يسموا بقية الجواسيس فجاسوا خلال الأرض من برية جنين إلى حماة فوجدوا الأرض ذات ثمار وأعناب ولبن وعسل ووجدوا سكانها معتزين طوال القامات(...) فأبى القوم دخول الأرض وغضب الله عليهم..».

على ضوء ما تقدم نرى المفتي الشيخ يرغب في تأكيد القرآن بالعهد القديم بما في ذلك الحدود الجغرافية التي حددها لفلسطين أو أرض كنعان عندما يقول: وقد أشارت هذه الآية إلى ما في الإصحاح الثالث عشر. وليس من شك في أن هناك

وقائع في العهد القديم أثبتها القرآن، ولكنه بالمقابل لم يتحدث عن حدود جغرافية ولم يثبت أسماء للأماكن التي أشار إليها فلماذا يتطوع المؤلف بإعادة المشروعية الكاملة إلى نصوص العهد القديم المشكوك فيه حتى من قبل أصحاب الديانتين السالفتين على الإسلام؟

التفاسير الأقدم لم تتحدث مطلقاً عن التوراة بل هي أوردت الأشياء نقلاً عن الصحابة والتابعين وخاصة عبدالله بن عباس برغم مما نقلوه من أقوال متناقضة لحبر الأمة في شأن تفسير القرآن، ومن أراد التوسع فليراجع تلك التفاسير. أما الشيخ المؤلف فقد أخذ من تلك التفاسير وأدخل الإسرائيليات مانحاً إياها المشروعية المطلقة بعد أن تعامل معها القدماء بكثير من التحفظ كما نجد لدى ابن كثير. ولعلّ النادر أن نرى إشارة إلى التوراة في تفسير الطبري مثلاً بينما نجدها أكبر لدى ابن كثير. كل ذلك يمنحنا مشروعية التأكيد بعمق تسلل التأثير اليهودي في الثقافة العربية الدينية وخاصة ما يتعلق بالقرآن ذاته بعد أن عجزوا عن إدخال نصوص موضوعة في صلبه بسبب تواتره الذي لم يرق إليه الشك. وكما نرى فإن هذا الاختراق بدأ تدريجياً وتعمق بعيد احتلال التتر لبغداد وضاع الكثير من المراجع بعد إحراق مكتبة بغداد العظيمة أو مكتبات فارس وما وراء النهر الإسلامية.

مسألة الوعد الإلهي:

هل قدم الله سبحانه وعداً لبني إسرائيل بإعطائهم فلسطين لهم ولنسلهم إلى الأبد؟ لقد ورد الوعد في التوراة لإبراهيم كما هو مشهور عند الناس اليوم، واستخدم موسى هذا الوعد بعد ذلك عندما أخرج بني إسرائيل من مصر للعودة إلى الأصول كما يقولون..

هذا السؤال يشكل مادة لحوار عجيب اليوم بين اتباع الديانات، ولكن الإجابة عليه بنعم لدى اليهودية والمسيحية كانت غطاء في الغرب المسيحي يمنح وعد بلفور عام ١٩١٧ والذي تضمن إحياء مشروع إسرائيل القديمة في فلسطين ونقل يهود العالم إليها ليشكلوا الدولة الحلم على مساحة ما تصل إليه مدافعهم. فهل صادقت

آيات القرآن الكريم على هذا الوعد كما يحلو للسيد ابن عاشور أن يفتي في تفسيره؟ لقد فسّر الشيخ جملة (التي كتب الله لكم) بأنها حض على دخول الأرض للاستقرار فيها هرباً من فرعون ولم يحدد أي أرض هي بأي نص من النصوص القرآنية.

إن المؤلف ابن عاشور في تفسيره لآيات أخرى يؤكد هذا الوعد بمنحه المشروعية الإلهية وذلك في تفسيره لسورة الإسراء الواردة في الجزء ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ص ٢٢٨.

﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل أسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ [الاسراء/ ١٠٣ـ١٠٤].

يقول الكاتب مفسراً «والأرض الأولى هي الأرض المعهودة وهي أرض مصر والأرض الثانية أرض الشام وهي المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيم إياها» إن الجزم بتلك الحقائق في تفسير كتاب مقدس متواتر كالقرآن يؤمن به ثلث سكان الأرض يبدو مثيراً للاستغراب. فهل تحتمل نصوص الآية السالفة هذا التفسير المثير للاستفزاز؟

الآية تتحدث عن الأرض، بينما يتبرع شيوخنا ومعهم ابن عاشور بالقول أنها الشام. وبالإشارة إلى إبراهيم الرسول فإن وعده يصل بالأرض إلى نهر النيل فلماذا يصرّون على أنها الشام فقط.. وأحياناً يحصرونها بفلسطين وأحياناً يوسع بن عاشور فلسطين لتأخذ لبنان وقسماً من سوريا حتى مدينة حماة في وسط سوريا. لماذا يقدم للمسلمين نصاً مقدساً بتفسير لا يتحمله ظاهره بأية حال من الأحوال؟

واستطراداً في متابعة النوايا وعمق التأثير اليهودي نأخذ مثالاً عن وعد آخر ولكن بشكل مضاد ورد في سورة آل عمران، وفي المؤلف فكان في الأجزاء ٣ ـ ٤ ـ ٥ ص ٢٥٧ وما بعد.

﴿وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا..﴾ ﴿فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً

في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . . ﴾ .

ربما أن الذين كفروا هنا يقصد بهم اليهود في زمن المسيح الذين رفضوا دعوته ورفضوا نبوته وعملوا على تقديمه للصلب بتحريض الحكومة الرومانية، نجد أن المؤلف يتابع من خلال التفسير إثارة تساؤلات هذه المرة عم يريد الله بعذابهم في الدنيا والآخرة فيقول «أعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة أي لا يجدون ناصرين ينصرونهم علينا في تعذيبهم الذي قدّره الله تعالى . . » .

ويتابع قائلاً «وأعلم . . أن قوله فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة قضية جزئية لا تقتضي استمرار العذابين، فأما عذاب الدنيا فهو يجري على نظام أحوال الدنيا من شدة وضعف وعدم استمرار، فمعنى انتفاء الناصرين لهم منه يعني انتفاء الناصرين في المدّة التي قدرها الله لتعذيبهم في الدنيا، وهذا متفاوت. وقد وجد اليهود ناصرين في بعض الأزمان . . مثل قصة استير في الماضي و . . قضية فلسطين في هذا العصر . . » ص ٢٥٩ .

إن المفتي الشيخ كباحث في علوم الدين والقرآن يجد نفسه مقسوراً كما يبدو لتقديم تفسير لسبب نشوء (إسرائيل) بدعم من الغرب ما دام الله قد وعد عيسى بتعذيبهم في الدنيا ومنع الناصرين عنهم . . إنه مشكل محيّر فعلاً ـ ولكن سؤالنا المشروع متوجه إلى الشيخ ذاته قائلين: لماذا يضع نفسه في مأزق التفسير اليهودي لحركة التاريخ، وهم الذين صنعوا من تاريخ العالم مجرد خادم لطموحاتهم في السيطرة على هذا العالم كشعب الله المختار أبداً؟

إن فلسطين كما نرى تشكل مأزقاً أدى بالشيخ إلى التشوش والحيرة مما اضطره إلى الإشارة إلى قصة استير في العهد القديم، مما يدل على إيمانه بأن قصة استير حقيقية حتماً، يصح الاستشهاد بها لدعم تفسير آية قرآنية . . أما استشهاده بالمسألة الفلسطينية فجاء نشازاً حقيقياً يدل على جهله بحقيقة هذه القضية ومجرياتها بما في ذلك المسألة اليهودية وتفرعاتها وجمعياتها السرية، وكذلك [اليهودية ـ المسيحية] التي يراد لها أن تصبح اليهودية المسيحية الإسلامية من خلال ربط كل

النصوص الدينية في القرآن أو الأناجيل بالعهد القديم، وغنى عن القول أن هذا الربط هو أحد أبرز أهداف الحركة الصهيونية كما سنرى.

من ناحية فنية بحتة نستغرب أن يصدر عن باحث كبير كابن عاشور (رحمه الله) في الديانات أخطاء في المصطلح.. التوراة هي ما يشمل أسفار موسى الخمسة.. أما استير فقد كتبت بعد السبي البابلي بزمن طويل.

الوعد الإلهي الثالث الذي نناقشه في هذا البحث هو ما ورد في آل عمران المشار إليها في التفسير ج٤ ص ٥٦.. تقول الآية ﴿**ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة..**﴾.

يقول الشيخ «والمعنى، لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد الله، أي ذمة الإسلام أو إذا استنصروا بقبائل أولى بأسى شديد وأما هم أنفسهم فلا نصير لهم، وهذا من دلائل النبوّة، فإن اليهود كانوا أعزّة بيثرب وخيبر والنضير وقريظة فأصبحوا أذلة.. وعمتهم الذلة في سائر أقطار الدنيا».

وهنا يخامرنا سؤال آخر.. هل يجوز منطقياً ربط اليهود العرب في ذلك الوقت والمتواجدين في رحاب المسلمين أيام البعثة النبوية بيهود اليوم المنتشرين في أرجاء الكون؟ ومن أجل تأويل آية كهذه نطلق حكماً شمولياً «عمتهم الذلة في سائر أقطار الدنيا» وها نحن نراهم عكس ذلك.. أي أنهم سادة المنطقة العربية ويسعون لقيادة الشرق الأوسط الإسلامي برمته.

وبعد ألا يقدم هذا التفسير خدمة مجانية لهم تؤيد حقهم في العودة وتكوين دولة في الأرض الموعودة تنقذهم من هذا الإذلال اللاإنساني رغم أنه مقرّر من الله سبحانه؟.

تفسير التاريخ بين القرآن والعهد القديم:

ألمحنا في الفصل الأول إلى تناقض حساب التاريخ العبري لبدء خلق آدم مع

ما هو متوفر علمياً. . يبدأ الحساب العبري لبدء الخليقة منذ ما يقارب الستة آلاف سنة إلا قليلاً، وهو ما يرفضه علماء التاريخ ومعهم الشيخ المؤلف. . ورغم ذلك نجده يستخدم هذا التاريخ في تحديد أزمنة الأنبياء الذين جاؤوا قبل المسيح دون وجه حق، ولم أجد في ذلك حكمة تذكر إلا إيمانه بالعهد القديم فعلاً أنّه كتاب سماوي.

لقد أصبح التاريخ المستند إلى التوراة عند الشيخ مسلمات لا يناقشها وهذا ما نلاحظه جلياً في تفسير سورة الإسراء. . ولعلّ أبرز ما في هذه السورة البالغة الأهمية في الدعوة الإسلامية حاملة في مقدمتها هذه النبوءة ﴿**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولَتَعلُنَّ علوّاً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. . .، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرّة وليتبروا ما علوا تتبيرا. .**﴾ [مجلد١٢ ص٢٨].

في تفسير الآيات يقول المؤلف:

«فيجوز أن يكون المراد بالكتاب كتاب التوراة، ويوجد في مواضع منها ما هو قريب مما في هذه الآية ولكن بإجمال «انظر الإصحاح ٢٦ والإصحاح ح٢٨ والإصحاح ٣٠. . ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية إذ ليس هو الكتاب المذكور آنفاً من قوله «وآتينا موسى الكتاب، لأنه لما ظهر اسم الكتاب أشعر بأنه كتاب آخر من كتبهم وهو الأسفار المسماة اشعيا وارميا وحزقيال ودانيال وهي في الدرجة الثانية من التوراة وكذلك كتاب النبي ملاحي» والإفساد مرتين ذكر في كتاب اشعياء وكتاب ارمياء ففي كتاب اشعيا إنذارات في الإصحاح الخامس والعاشر وأولى المرتين مذكورة في الإصحاح الثاني والإصحاح الحادي والعشرين وغيرهما».

ثم. . وحتى نلجأ إلى الاختصار ـ يستعرض المؤلف مجمل الأحداث الواردة في التاريخ لتفسير هذه الآية. . مستعرضاً الغزو البابلي الذي سمي بالأسر ٦٠٦

ق.م، ثم الغزو الثاني بختنصر ٥٩٨ ق.م، والأسر الثالث ٥٨٨ ق.م. مع إحراق الهيكل..

أما المرة الثانية التي تبروا فيها ما علوا تتبيرا فهي الغزو الروماني لبلاد أورشليم.. ويقول أن عباد الله هم الأشوريون أهل بابل والديار هي ديار أورشليم ثم يقول مستطرداً مفسراً تاريخ السبي اليهودي حتى أفرج عنهم كورش وعادوا وجددوا دولتهم.. والغريب أن الشيخ يروي القصة كاملة كما وردت في الأسفار لعدة صفحات مختتماً الموضوع بأن الله عاقبهم بواسطة الرومان لقتلهم الأنبياء بغير حق وقتل الأمبراطور الروماني منهم نحو مليون شخص سنة ١٣٥ بعد المسيح وهكذا انقرض اليهود من المنطقة.

أما رأيه في آية وإن عدتم عدنا فيقول «بعد أن يرحمكم الله ويؤمنكم في البلاد التي تلجأون إليها إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم أي عدنا إلى ما تقدم من عقاب الدنيا».

حول ما تقدم يمكن تكرار القول أن المؤلف حسم أمر تأويل آيات القرآن المتعلقة باليهود وبني إسرائيل بوجوب دراستنا للعهد القديم.. بمعنى آخر.. لكي نفهم القرآن علينا أن ندرس العهد القديم، فهل يحتمل تفسير القرآن هذا الطلب الغريب؟

لم يكن القرآن كتاباً في التاريخ.. لهذا تجنب بحث تاريخ العرب أنفسهم وهم الذين نزل الكتاب إليهم وبلغتهم لكي ينقلوه إلى البشر.. هو كتاب للتوحيد بالدرجة الأولى كما يقول هيجل. يحمل القيم الأخلاقية وأصول التعامل بين الناس لبناء عالم سعيد، فكيف بنا إذا سعينا إلى تفسيره أن نحمّله كل ذاك الهراء الوارد في العهد القديم.. علماً أن المعلومات التاريخية الواردة لديه في تفسير التحرير والتنوير لم تكن ممحصة علمياً، وإلا فما معنى قوله أباد الرومان مليون إسرائيلي - وهل كان عدد سكان فلسطين كلها بما في ذلك الأقوام الأخرى يتجاوز المليون.

وهل تاريخ فلسطين حتى سنة ١٥٣ ميلادية هو تاريخ بني إسرائيل على أراضيها؟ وأين أصبح سكانها الأصليون؟

لكن العهد الجديد مكننا من تلمس إشارات عابرة إليهم كما ورد في إنجيل متى عن المرأة الكنعانية التي طلبت من السيد المسيح أن يعلمها فرفض قائلاً: إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة، فقالت له: حتى الكلاب تأكل من فتات موائد السادة.. ورد عليها: إيمانك عظيم يا امرأة. هل يجوز لمفسر أن يواجهنا بالهذر الموجود في العهد القديم بما في ذلك الفولكلور القبلي للذين اعتنقوا الديانة اليهودية على أساس أنه مقدس ويجب ربطه بالقرآن؟

ثم أنه هل يمكن الجزم بأن يهود أوروبا فعلاً هم الذين جاؤوا من فلسطين واستقروا هناك؟ ألا يعلم هو أن صلب المسألة الفلسطينية ودمار المنطقة وسلبها خيراتها هو مجرد القول بأن هؤلاء اليهود المستقرين في أوروبا وأمريكا وآسيا هم الذين جاؤوا من فلسطين ومن حقهم العودة إليها ليشكلوا دولتهم، فهل من خلال القرآن الكريم نقدم لهم المؤيدات التي تسمح لهم بالقول أن الله يؤيدهم من خلال كتاب المسلمين فما بال المسلمين يعترضون؟.

الفصل الثالث

المؤسسة الدينية الإسلامية والأنظمة الحاكمة
دراسة مقارنة

مدخــــــل:

إن إطلاق اسم المؤسسة الدينية الإسلامية، هو مجرد توصيف لواقع قائم، وليس لأن الإسلام يشرع وجود مؤسسات كهذه.

ليس من رجال دين في الشرع الإسلامي، لكن وجود الفقهاء في الدين ظل أمراً حتمياً بحكم التخصص، وتولي القضاء الشرعي، وخطابة المساجد، والافتاء، وإرشاد الناس إلى آخر قائمة المهمات التي أدت إلى بروز رجال الدين وبزوغ المؤسسة الدينية.

كان ظهور المؤسسة تالياً لرحيل رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وإلا ماذا يمكن أن نطلق على صحابة يعلمون القرآن ويؤلّونه، وتابعيهم المنتشرين في الأقطار الإسلامية، أولئك الذين أصبحت أسماؤهم أشهر من أن تعرّف.. عبدالله بن مسعود.. الحسن البصري عبدالله ابن عباس، عبدالله بن عمر وغيرهم، ثم ماذا يمكن أن نوصف أبا هريرة الذي روى الحديث وأصبح أكبر التقاة عند المجتهدين السنّة عند بدء تأليف الصحاح. وماذا يقال في الإمام علي بن أبي طالب الذي صار شعاراً لافقه المسلمين على الإطلاق استناداً إلى حديث الرسول «أنا مدينة العلم

وعلي بابها». وبالتأكيد فإن رأس العلوم في ذاك الوقت هو فقه الدين، أو كما قال الرسول(ص) «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وحتى لا نتعسف، فإن بروز المؤسسة كما هي عليه الآن بحدود صلاحياتها وترابط رجالها، بما في ذلك نشوء المدارس الدينية وشيوخ الدين والفقهاء ومؤسسات الأوقاف المرتبطة بالانفاق عليهم، لم يكن في صدر الإسلام.. فقد مرت المؤسسة بمراحل عديدة وتبلورت عند بدء ظهور المجتهدين الكبار ومذاهبهم: مالك بن أنس، الشافعي، أبو حنيفة أحمد بن حنبل، جعفر الصادق(رض). وقد رافقهم ظهور الأشعري الذي ارتبط به علم الكلام السنة كاملاً وكل ذلك تم في القرن الثاني الهجري.

تبلورت المؤسسة بشكل أكثر بروزاً عند ظهور مفسري القرآن القدامى وعلى رأسهم الطبري، ثم ابن كثير والزمخشري وغيرهم. ثم كتاب الصحاح الكبار: البخاري ومسلم والحاكم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي وكان قد سبقهم في كتابة الحديث، أحمد بن حنبل في المسند، ومالك بن أنس في الموطأ. هذا في الجانب السني أما في الجانب الشيعي فقد برز الشيخ الكليني في الكافي (والقمي) في تفسير القرآن وغيرهما.

ولعلّ المؤسسة الشيعية ظلت أسبق في الظهور من خلال الأئمة الذين تلوا الإمام جعفر الصادق وهم: موسى الكاظم، علي الرضا، محمد الجواد، على الهادي، الحسن العسكري، محمد المهدي رضوان الله عليهم، فقد كان كل منهم (واستثنى الإمام المهدي) مؤسسة دينية ومرجعاً للمسلمين في حياته رغم الحصار وملاحقة السلطات الحاكمة، بحيث تبلور الفقه الإسلامي عن طريقهم مما اصطلح على تسميته بالمؤسسة الشيعية.

في الجانب الآخر لم تكن المؤسسة السنية موحدة، وكان الصراع الفقهي أحد سماتها الرئيسية حتى كاد يصل في بعض المراحل إلى الصدام المسلح. وقد تعرض المجتهدون الكبار إلى الصدام مع السلطة العباسية خاصة في زمن المأمون بما سمى

بمحنة خلق القرآن. وهكذا كتب على بعض هؤلاء التشرد إلى مصر كالشافعي رحمه الله سنة ١٩٩ هـ، ٨١٥ م، واستمر أحمد بن حنبل في بغداد وعندما توفي كانت له جنازة مهيبة بسبب صموده في وجه السلطة وسيطرة المعتزلة على قراراتها الدينية. وكان هؤلاى (أعني المعتزلة) مؤسسة دينية بحد ذاتها وسموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد وكانت لهم أمجاد عظيمة في نشر الإسلام في شرق الوطن الإسلامي.

في مغرب الوطن ظهرت المؤسسة الدينية الفاطميّة كفرع للشيعة المتسم بالغلو سنة ٢٩٧ هـ ٩٠٩ م، ويقال أنّهم تبنوا الذهب الإسماعيلي المنشق عن الإمامية. وبما يجدر ذكره أن تلك المؤسسة تلاشت بعد انتشارها مع القرامطة حتى البحرين، وساد المذهب المالكي مغرب الوطن وانتهى القرامطة تماماً.

وفي زمن الدولة العثمانية سادت المؤسسة الحنفية لدرجة كبيرة، علماً أن الدولة التي تبنت هذا المذهب لم تقسر الناس على اتباعه، ولكنها عملت على نشره بالإقناع وخاصة في مصر موطن الأزهر الذي برز كمؤسسة عند بدء تأسيسه في زمن الفاطميين، لكن هذا لم يؤثر على الشافعية والمالكية وإن ظل الإفتاء في مصر على المذهب الحنفي حتى في عقود الزواج. أما مؤسسة الأزهر فقد ظلت تحت سيطرة الشافعية رغم الصراع المرير (كما سنرى) على زعامة هذا الصرح السني الأبرز.

لم تبرز المؤسسة الحنبلية في الاجتهاد إلا في وقت متأخر، ولعلّ أبرز رموزها المتأخرين كان تقي الدين بن تيمية وتلاميذه الكبار منهم ابن القيم الجوزية. لكن التطبيق الأكبر لهذه المؤسسة ظهوراً وانتشاراً كان على يد الحنبلي محمد بن عبد الوهاب من المتأخرين والذي استطاع إنشاء مؤسسة دينية كبيرة وغنية التحمت بالدولة السعودية واستمرت حتى اليوم بالغة التأثير، رغم إنكار هذه المؤسسة وجود رجال دين يقلدهم الناس إلا اضطراراً وللتعليم فقط، ومع ذلك فإن فتاوى هذه المؤسسة تملأ مجلدات.

وبعد.. من هو رجل الدين؟

في زمننا هذا يعتبر العامة كل من يلبس الجبة والعمّة ويرخي لحيته ويعمل في التدريس أو إمامة المساجد، رجل دين.

عادة يتميز رجال الدين بلباسهم وطبيعة عملهم، فعندما يرتضي الرجل لباساً محدداً بما في ذلك العمة التي أصبحت الفارق الواضح بين المذاهب، فإنه يرسم نفسه لطريق محددة بما في ذلك سلوكاً محدداً لا بد أن يتسم بالصلاح والانصراف إلى العلم وهداية المسلمين وإرشادهم إلى الطريق الإسلامي الصحيح. في زمننا الحاضر لا يستطيع كل عارف بالدين الإسلامي مهما بلغ من سعة الاطلاع أن يعتبر نفسه رجل دين.. وهكذا أصبح رجل الدين معروفاً ومرموقاً وجزءاً من مؤسسة تقترب في نظامها وانضباطها من المؤسسة العسكرية ونادراً ما نجد رجل دين لا يكتب رزقه من علمه الديني في مجالات هذا العلم التطبيقية. ونادراً ما نجد رجل الدين يعمل في الأسواق.

أما في الماضي فلم يكن الأمر كذلك لسبب ربما كان من المفارقات وهو وحدة لباس الناس.. وبما أننا لا يمكن أن نحدد بدقة زمن ظهور (العمّة) وهي الشعار الأبرز للمتصدي لحمل رسالة الإرشاد الديني والاشتغال به، فإن العصور الحديثة أبرزت هؤلاء بكل وضوح ليصبحوا من البروز شكلاً ومضموناً على غرار المؤسسات الدينية المسيحية واليهودية والبوذية الخ.. والمشتغلين في صفوفها من مبشرين.

لا بد من الإقرار أن المؤسسة الدينية تمتلك نفوذاً كبيراً في شعوبها.. والمؤسسة الإسلامية اليوم أشد نفوذاً من مثيلاتها بسبب استمرار استقرار الإسلام الأعمق في وجدان اتباع الدين. لقد ضعفت المؤسسة المسيحية إلى حد كبير في مستقرها الأبرز وهو أوروبا لأسباب معروفة ومشهورة تتعلق بالثورات الصناعية والاجتماعية المتعاقبة واتهام الثوريين للكنيسة بممالأة السلطة وداعميها الإقطاعيين، إضافة لأسباب جزئية أخرى متعددة.

أما المؤسسة اليهودية فقد ربطت نفسها بالحركة الصهيونية وأصبحت في

خدمتها وجزءاً من قراراتها، ورغم ذلك لا زالت تتمتع بنفوذ كبير ضمن حالة من الصراع المستمر في إطار تلك الحركة.

هناك مجموعة من مراكز الاستقطاب الديني الإسلامية، سنتولى بالتحليل في هذه الدراسة ثلاثة أساسية منها وهي الجامع الأزهر في مصر.. المؤسسة الدينية الشيعية (النجف وقم) المؤسسة الدينية الوهابية في السعودية أما لماذا وقع الاختيار عليها فلأنّها في الواقع، الأكثر ملامسة للصراع الإسلامي الصهيوني ولها في مجاله فتاوى (صحت أو أخطأت في مضمونها) فتلك مسألة هي في واقع الأمر مشكلة البحث في هذه الدراسة. أمّا بؤرة النظر فستظل تنصب على علاقة المؤسسة بالسلطة، ذلك أن الواقع السياسي الإسلامي يتحدث عن سلطات ليست إسلامية.. والإسلامي منها ليس ملتزماً بالدين بدقة، في عصر تسود فيه العلمنة والبراجماتية لتصبح من سمات السلوك السياسي في عالم اليوم.. هذا العالم الذي يقوده عملياً نظام عالمي اقتصادي تصوغ قراراته مجموعة من البروتستانت البيض في الولايات المتحدة الأمريكية تقود رابطة الاحتكارات الاقتصادية الهائلة من نفط وفولاذ وبنوك بتحالف مع الحركة الصهيونية ذات النفوذ الأبرز في عالم المال ـ الذهب والدولار والبورصات الكبرى ـ والذي يدعم الكيان الصهيوني في فلسطين بلا حدود.. هذا النظام ساهم في تشكيل معظم السلطات العربية والإسلامية ليكون حكامها في وضع لا يسمح بمقاومة القرارات القادمة من وراء البحار والخاضعة لإملاءات سادة هذا النظام العالمي.

أما دور المؤسسة الدينية الإسلامية[1] البالغ الأهمية فسيظل صياغة وجدان الجماهير التي تواجه بطبيعتها سلطاتها المفروضة عليها والتي لم يصل أي منها إلى الحكم بأية وسيلة ديمقراطية. مستقبل تطور الأحداث مع كل الغيوم المدلهمة في

---

(١) تجدر الإشارة إلى تراجيديا الصراع بين مؤسسات دينية قبيل بدء حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠، مسلسل الفتاوى والفتاوى المضادة بين مؤسستي السعودية والعراق السني بجواز التعامل مع الأمريكان وحلفائهم ضد نظام صدام حسين أو العكس.. كانت الفتاوى كلها مكرسة لخدمة السلطات ومنحها التغطية الضرورية في المسرحية الدموية التي تلت في بداية عام ١٩٩١.

الأفق وسيادة اليأس من مواجهة نظام رهيب عالمي ـ لا يبعث على اليأس على أية حال، وسيكون القلم والمثقف المخلص لشعبه ودينه قادراً على مقاومة حملات التزييف التي تقودها مؤسسات دينية تخرج من مشروعيتها بالخروج عن الدين حتى دون أن تقصد، عندما تعمل على أن تكون غطاء إسلامياً للاستسلام والإنحدار الواضحين في سلوك السلطات.

الجامع الأزهر ـ القاهرة:

ارتبط تأسيس هذا المسجد بالدولة الفاطمية، ولكن بزوغه كمؤسسة دينية شهيرة ارتبط بالمماليك ثم بالعثمانيين. أما لماذا صمد هذا الزمن الطويل واكتسب تلك الشهرة العالمية، فذلك لأن مساجد المشرق تعرضت للدمار، أما على يد المغول أو الصليبيين الغزاة، وظل الأزهر في مصر في منأى عن التدمير المباشر(١).

تأسست الدولة الفاطمية في المغرب عام ٢٩٧ هـ ـ ٩٠٩ م وكانت عاصمتها القيروان، أطلق عليهم هذا الإسم في عهد خليفتهم الأول (المهدي) سعيد بن الحسين بسبب تشيعهم نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول محمد(ص). كان الفاطميون من الغلاة في التشيع وينسبون إلى المذهب أو المنهج الإسماعيلي(٢) وهو

---

(١) فوللرس وجوميه، ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون (الأزهر) دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٤ ص ١٣.

(٢) يختلف الإسماعيليون عن الشيعة الإمامية بأنهم لا يعترفون بإمامة موسى الكاظم(رض) بل يحيلون الوراثة في الإمامة بعد الإمام جعفر الصادق(رض) إلى ابنه إسماعيل الذي يعتقد المؤرخون أنه توفي في حياة أبيه وكان الابن الأكبر له مما أدى إلى أن يوصيٰ بالإمامة إلى موسى الكاظم.
يأتي التسلسل في الإمامة عند الإسماعيليين على الشكل التالي: أ ـ إسماعيل. ٢ ـ محمد. ٣ ـ إسماعيل ويلقب بالسماء الأولى واسمه الحقيقي (عبدالله بن محمد). ٤ ـ السماء الثانية محمد واسمه (أحمد بن عبدالله). ٥ ـ السماء الثالثة أحمد (الحسين بن أحمد). ٦ ـ السماء الرابعة عبدالله بن أحمد (عبدالله بن ميمون القداح) وهو من أكبر دعاة الإسماعيلية. ٧ ـ السماء الخامسة المهدي محمد. ٨ ـ السماء السادسة الحسين. ٩ ـ السماء السابعة عبدالله المهدي (أحمد أو الحسين) وهو الذي هرب إلى المغرب وأسس ابنه سعيد بن الحسين أو سعيد الخير (عبيدالله المهدي) الخليفة الأول للفاطميين ومؤسس الدولة. ثم جاء الخليفة الثاني القائم بأمر الله ثم المنصور بنصر الله ثم المعز لدين الله الذي فتحت مصر في عهده ثم العزيز بالله ثم الحاكم وهو مؤسس المذهب الدرزي وقد اغتيل أو اختفى بشكل غامض، ثم الظاهر لإعزاز دين =

من المذاهب التي تعتقد أن للإسلام ظاهراً وباطناً.

هذه المؤسسة التي بدأت شيعية وانتهت سنية متعصبة أتيح لها أن تفرز المذهب الدرزي المشهور الذي انتقل من مصر بعد غياب الحاكم المنسوب إليه المذهب ومريديه الكثر. ثم أسسوا دولة في جبل لبنان كان من أبرز زعمائها الأمير فخر الدين المعني الثاني المشهور في النصف الأول من القرن السابع عشر ميلادي[1].

ومثل كل الدعاة وأصحاب الأفكار التي يعتبرونها الأصح وأن فيها خلاص العالم، ابتدأ الإسماعيليون بعد تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب بنشر مذهبهم نحو الغرب مرة أخرى. لهذا جهزوا جيشاً للزحف على مصر من أجل احتلالها لقربها من قلب العالم الإسلامي كما يرجح. لقد تم الهجوم الأول في عهد الخليفة المهدي سنة ٣٠١ هـ[2]. هذه الحملة لم يكتب لها النجاح بسبب قوة الدولة الأخشيدية في مصر، لكن المهدي لم ييأس فجهز حملة أخرى وهاجم مصر سنة ٣٠٧ هـ ـ ٩١٩ م لكنها فشلت أيضاً.

عندما تولى الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله (أبي القاسم نزار) جهز

= الله ثم المستنصر بالله.. وانتهت الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي. مما يجدر ذكره أن الأسماء المحاطة بالأقواس هي الأسماء الحقيقية بينما الأسماء المعروفة كانت أسماء حركية بسبب طبيعة التنظيم السري للإسماعيليين في بداية أمرهم في الشرق.

(١) راجع: نسيب أبو مكارم: مسلك التوحيد، بيروت ١٩٨٠، دون دار نشر (يؤرخ لتاريخ وعقائد الدروز ومقدّم له من قبل شيخ عقل الطائفة المرحوم محمد أبو شقرا، يسمى الدروز أنفسهم الموحدين. ظهرت دعوة التوحيد على يد الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي.. أما مريده الرئيسي فهو حمزة بن علي تسلمها سنة ٤٠٨ هـ ـ ١٠١٧ م: اختار أربعة دعاة هم «إسماعيل بن محمد التميمي، محمد بن وهب القرشي، سلامة بن عبد الوهاب السامري، علي بن أحمد الطائي المعروف بالمقتنى بهاء الدين صاحب كتاب الأسفار التوحيدية. والدروز يعتقدون أيضاً بباطن القرآن وأن الإسلام هو ممر إلى التوحيد المطلق المتصل بكل الموحدين عبر العصور القديمة وأن لكل نبي وصياً يرشده ويتمتع بعلم أعمق من علمة (مثلاً كان النبي شعيب وصي موسى لهذا اعتبر الوصي شعيب مقدّس عند الدروز) ورغم اعتقادهم بالقرآن فإنهم يفهمونه بطريقة تختلف جداً عن فهم كل المسلمين الآخرين له.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي، الأزهر جامعاً وجامعة، مكتبة الأنجلو مصرية ١٩٨٣ ص ١٨.

حملة أخرى سنة ٣٢١ واستمر على محاولاته هزيمة الدولة الأخشيدية مدة ثلاث سنوات حتى عام ٣٢٤، ٩٣٦ م لكنه لم يكتب له النجاح. وبسبب من ثورة قامت في المغرب ضد الحكم الفاطمي توقف هؤلاء عن حملاتهم للقضاء على الثورة، واستمر هذا التوقف حتى تولى الخلافة المعز لدين الله (معد الحكم أبو تميم) في ذي القعدة ٣٤١ هـ ٢٠ آذار ٩٥٣ م، قام هذا الخليفة الشهير بترتيب الوضع الداخلي أولاً، فروّض البربر وقضى على دولة الأدارسة وأنهى استقلالهم، وكانت له دولة كبرى تمتد من طرابلس الغرب حتى المحيط الأطلسي غرباً. وفي عهده توفي كافور الأخشيدي الذي اشتهر بوجود الشاعر المتنبي في بلاطه، فساءت أحوال مصر اقتصادياً واجتماعياً، وانهار الاقتصاد وانتشرت الأمراض والغلاء الفاحش. تولى السلطة هناك الوزير أبو الفضل بن الفرات الذي لقب بـ (خنزابة) والذي يعود إليه السبب في كل هذا الانهيار.

في الشرق بدأ القرامطة هجومهم في محاولة لاحتلال مصر، فتهددوا حدود مصر الشرقية وكانوا يدينون بالولاء للفاطميين ثم خرجوا عن ولايتهم وقرروا العمل لأنفسهم عندما قرروا الاستيلاء على مصر.. في هذه الفترة انتشر الدعاة الفاطميون في الأراضي المصرية، وعملوا كعادة الدعاة الفاطميين الإسماعيليين سراً للتمهيد للحكم الجديد[١]، وعندما استنجد الوالي المصري بالعباسيين لم يكونوا على أية مقدرة عسكرية لتقديم النجدة.

وهكذا قاد المملوك جوهر الصقلي الجيوش الفاطمية متجهاً نحو مصر[٢] - ويعتبر هذا القائد من خيرة القادة العسكريين في تاريخ الدولة، اتصف بالذكاء والشجاعة، وتمكن من احتلال مصر ٣٥٨ هـ ٦ تموز ٩٦٩ م، ثم كانت قيادته في مدينة الفسطاط والعسكر، تلك المدينة المطلة على النيل والتي بناها عمرو بن العاص عندما فتح مصر قبل ذلك بثلاثمائة سنة ويزيد. وبهذا النصر كتب للدولة

(١) للاطلاع على طبيعة التنظيم السري للإسماعيلية راجع: خير الله سعيد، النظام الداخلي لإخوان الصفا، دار كنعان، قبرص ١٩٩٢.

(٢) الأزهر جامعاً وجامعة، مرجع سابق ص ٢١-٢٦.

العباسية أن تنتهي من مصر إلى الأبد، حتى بالنفوذ الأسمي والدعوة للخليفة على المنابر.

تأسست القاهرة في ذات اليوم الذي تم فيه فتح مصر، وعندما بدأ البناء ووضعت اللبنات الأولى للقصور الملكية، سميت بالمنصورية، لكن الخليفة المعز غير هذا الإسم فوراً قائلاً «ولنبنينّ مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا». بعد بناء القاهرة وتوسّعها اندثرت كافة المدن المحيطة كالفسطاط (العاصمة الاقتصادية) وبزغت مدينة القاهرة.

بدأ العمل في بناء الجامع الأزهر ٧ رمضان ٣٦١ هـ (٢٣ حزيران ٩٧٢ م) واستمر بناؤه سنتين. أطلق عليه بداية اسم المدينة لكنهم يدلوه إلى اسمه الحالي نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء كما يعتقد المقريزي.

جاء المعزّ نهائياً ليستقر في عاصمته الجديدة سنة ٣٦٢ ـ ٩٧٣ م وبمجيئه انتهى نفوذ جوهر الصقليّ على مصر واستقر في بيته دون أن يتولى أية مهمات رسمية. وعندما تفاقم خطر القرامطة شرقاً كلفه الخليفة بقيادة الجيش المكلف بتأديبهم، وبعد نجاحه بمهمته عاد إلى الظل مرة أخرى حتى توفي سنة ٣٨١ ـ ٩٩٢ م وقد عمّر طويلاً. أما المعز لدين الله مؤسس القاهرة والأزهر معاً فقد رحل عن الدنيا سنة ٣٧٥ هـ ـ ٩٧٥ م تاركاً مدينة تخلد ذكره ما دامت قائمة.

الأزهـــر مسجـــداً:

بدأ المسجد شيعياً كما أسلفنا زمناً طويلاً حتى أعاده صلاح الدين الأيوبي إلى السنة كما يقولون. . كان الأذان في المسجد شيعياً بمعنى أن فيه جملة حي على خير العمل، وكانت خطبة الجمعة تتضمن الدعاء التالي «اللهم صل على النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، اللهم صلّ على الأئمة

الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»[١].

في ذاك الزمن تعود الأزهر والقاهرة على الاحتفال بعاشوراء (ذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء) حتى بنى المشهد الحسيني سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) فانتقل الاحتفال إليه، ويسمى اليوم مسجد الحسين. وكانت مظاهر الحزن تعمّ القاهرة وتتوقف فيها الحياة الاقتصادية ويحتجب الخليفة عن مقابلة الناس[٢].

لم يبدأ الأزهر مكاناً للتدريس إلا بعد تأسيسه ببضع سنوات أي سنة ٣٦٥ هـ كان أول ما درس فيه كتاب (الاقتصار) في حلقة تدريسية عادية كأي درس يعطى في مسجد عادي. وهذا الكتاب وضعه ابن حيون في مبادىء الفقه الشيعي (اسمه أبو حنيفة النعمان ابن حيون التميمي المغربي)، ظل الأمر كذلك حتى جاء يعقوب بن كلّس (أبو الفرج يعقوب بن يوسف) وكان يهودياً واعتنق الإسلام وأصبح وزيراً للخليفة الفاطمي العزيز بالله أبو منصور نزار (٩٧٥ ـ ٩٩٦ م)، فوضع نظاماً تعليمياً للمسجد وموازنه من قبل الدولة تصرف على طلاب العلم. ويذكر المؤرخون أنه بدأ بتدريس كتاب في الفقه من تأليفه سمي بالرسالة الوزيرية.

ومنذ ذلك الوقت حتى وقت قريب تميز طلاب العلم في الأزهر بأنهم يعيشون على نفقة المسجد وأوقافه مما شجع الإقبال على المسجد بشكل لم يسبق له مثيل. وبالتوازي تم استحداث فرع لتدريس النساء أصول الدين على المذهب الإسماعيلي[٣].

استمر صعود الأزهر في عهد الفاطميين كمدرسة للعلوم الدينية إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي فبدأ بإنشاء كليات علمية أخرى بهدف إلغاء هذا الدور ـ وكما يرجح فإن الحاكم الجديد أراد صرف الناس عن المسجد الذي أصبح رمزاً لمذهب

(١) المرجع السابق ص ٣٦.

(٢) رغم تبدل الطقوس وتغير الأنظمة الحاكمة ومذاهبها فلا زال مسجد الحسين ومقامه من أقدس الأمكنة لدى الشعب المصري.

(٣) المرجع السابق ص ٦٨.

يقاومه حتى منع صلاة الجمعة فيه[١]. فأدى ذلك إلى انطفاء مؤقت لدور هذا الصرح الإسلامي حتى جاء المماليك البحرية والشراكسة وحكموا مصر.

في هذا العهد الجديد وقد تلاشت الدولة الأيوبية التي لم تعمر طويلاً وبسبب سيطرة المماليك الذين استعان بهم الأيوبيون في جيوشهم فانقلبوا عليهم، برز دور الأزهر من جديد ولكن بقالب متجدد وأكثر فاعلية واستمر في تطوره إلى أن أصبح ما هو عليه اليوم.

الأزهر جامعة ـ ونفوذاً سياسياً:

في عهد المماليك ازدهر المسجد، ويعزو المؤرخون ذلك إلى عدم معرفة الحكام الجدد باللغة العربية وانتمائهم الإسلامي الفطري مما أتاح للعلماء النهوض به وتحويله إلى جامعة دينية حتى أن ابن خلدون قام فيه بإعطاء محاضرات في التاريخ[٢]، وصار الجامع يعطي إجازات علمية باختصاصات عديدة مثل: [(الفتيا ـ تدريس الدين ـ عراضة الكتب ـ المرويات على الاستدعاءات (علم الحديث)] وغير ذلك من الإجازات. ومما يجدر ذكره أن الحكومات منحت المسجد أوقافاً زراعية مكنته من التطور والإنفاق على الدارسين وعلى هيئته التدريسية. ومع ذلك فقد ظلت منافسة مجموعة من المدارس التي أنشأها المماليك أو الأيوبيون مثل المدرسة الصالحية وغيرها[٣]، وأصبح التدريس فيه يتم على أصول المذهب الشافعي خاصة والمذاهب الأربعة بشكل أشمل. إضافة إلى ذلك اكتسب هذا الجامع قدسية معينة جعلته ملجأ للناس في الأزمات للدعاء أو الاستعانة بهيئته العلمية في مواجهة الولاة والظلم، والغلاء، كما حدث أيام الملك الظاهر برقوق.. وكان بعض المعارضين يلتجئون إليه للحماية من بطش السلطات فيجدون بعض الحماية والطعام[٤].

---

(١) محمد عبدالله عنان، تاريخ الجامع الأزهر ط٢ القاهرة مؤسسة الخانجي ١٩٥٨ ص٢٢٠.
(٢) الأزهر جامعاً وجامعة مرجع سابق ص١٣٧.
(٣) راجع: عبد الرحمن مراد: عز الدين بن عبد السلام، دار الجليل دمشق ١٩٨٤.
(٤) تاريخ الجامع الأزهر مرجع سابق ص٢٢٢.

عند استيلاء السلطان سليم العثماني على مصر سنة ٩٢٣ هـ ـ ١٢١٣ م لم يتدخل النظام الجديد في شؤون الأزهر بل أن السلطان زاره للتبرك قبل مغادرة مصر عائداً إلى تركيا[١]. وبالمقابل فإن الأزهر لم يقاوم النظام أو يحاول التدخل في شؤون الحكم إلا عندما أدخله الخليفة العثماني ذاته في صلب السلطة وذلك بعد تشكيل (ديوان محروسة مصر). لقد أتيح لهذا الديوان الذي حكم القطر المصري بكامله لحساب العثمانيين أن يضم في بنيته أربعة من كبار علماء الأزهر إضافة إلى كبار الموظفين الذين يقف على رأسهم والي مصر والباشا.

لقد شكل الديوان بصلاحيات تتيح له اقتراح عزل الوالي إلى الخليفة في اسطنبول، إذا حاد هذا الوالي عن جادة الحق، وبذلك يتولى السلطان تعيين خلف جديد ولكن ليس باقتراح من عناصر الديوان.

هكذا برز دور الأزهر كزعامة شعبية لها تأثير في رسم السياسة العامة لمصر وبدا ذلك أكثر وضوحاً في القرن الثامن الميلادي[٢]. ولأن علماء الأزهر كانوا عرباً من أهل البلاد فقد ازداد نفوذهم المزدوج.. مع الحكام لمساعدتهم في السيطرة، ومع الجماهير لمساعدتها عند الحكام المنفصلين عنها كلياً لأنهم لا يتقنون لغتها القومية على أقل تقدير. إذن كانت هناك فجوة تمكن أولئك العلماء من ملئها بكفاءة منقطعة النظير. لقد أصبح الأزهر وهيئاته التعليمية جسراً بين الطرفين.

عند دراسة تلك المرحلة من تاريخ مصر نلمس بجلاء أن الخلافة العثمانية وقد أدركت أهمية مؤسسة الأزهر قررت إشراكه في سلطة اتخاذ القرار، وكان هذا التصرف في صالحها، لأن دمج العلماء في مؤسسة السلطة يعني ربطهم بآليات عمل الجهاز الإداري وإن كان في أعلى المستويات، ولأن العثمانيين أعلنوا الخلافة الإسلامية ولأنهم كانوا يحكمون باسم الدين، فليس أصلح من رجال الدين داعماً

---

(١) الأزهر جامعاً وجامعة مرجع سابق ص١٦٨.

(٢) راجع عبد الرحمن مراد: عز الدين بن اسماعيل/ ص١٧٤، دار الجليل ـ دمشق ١٩٨٤.

لهم، بتوفير عنصر عربي من أهل البلاد ذي تأثير لا ينكر يؤمن لهم دعماً باسم الدين.

عاصر المؤرخ المشهور (الجبرتي) تلك المرحلة وكتب عنها بالتفصيل ونلمس من كتاباته أن مشيخة الأزهر بدورها المزدوج ذاك ازدادت نفوذاً لدى البلاط العثماني حتى أصبحت ترجماناً للشعب المصري لدى الحكام، ويذكر أن الشيخ عبدالله الشبراوي الذي أصبح كبير علماء المسجد عام ١٧٢٥ م حتى ١٧٥٧ م أدى خدمات كبيرة للمصريين بقضاء حوائجهم عند الحاكمين الذين لا يتقنون اللغة العربية. ومن العجيب أن السلطة لم ترشح والياً عربياً على البلاد العربية مما يدل على النزعة العنصرية لدى تلك الخلافة الإسلامية وربما سوء إدارتها، فبرغم أنها سيطرت على البلاد إلا أنها لم تستطع القضاء على نفوذ المماليك الذين ظلوا عملياً هم الحكام الحقيقيين للقطر المصري.

على أية حالة فقد تمكن بعض مشايخ الأزهر من تعميق نفوذهم عند الناس في مرحلة قادمة إلى درجة تحدي بعضهم أوامر السلطان العثماني بحجة مخالفتها لروح الدين الإسلامي كما فعل الشيخ سليمان المنصوري[١]. ولا نفهم من هذا التحدي أن انفصالاً قد حدث بين الخلافة والأزهر.. بل على العكس فإن ازدياد نفوذ هؤلاء بين الناس كما يبدو ـ وبحسابات الخلافة ـ كان عاملاً مساعداً على التقليل من نفوذ الأمراء المماليك المكروهين عمليا من عامة الشعب تبعاً للتاريخ المرير من العلاقات المتناقضة ومن حالة الاستعلاء والابتزاز والظلم التي مارسوها ضدهم.

وليس من شك في أن المماليك بدورهم حاولوا استمالة هؤلاء العلماء للسبب ذاته، كما يروى عن التأثير الكبير للشيخ على العدوي (شيخ المشايخ) على اثنين من الولاة المماليك وهما علي بك الكبير ومن خلفه في الولاية محمد أبو الذهب.

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٦.

ويبدو ظاهر الأمور موضحاً ميل المشيخة إلى الخلافة العثمانية للأسباب التي ذكرت آنفاً.

هذا الميل كان له أن يوضع في التطبيق ترجماناً لدى الشارع المصري عندما جردت الخلافة جيشاً لتطويع المماليك عام ١٧٨٦ م. في تلك الفترة وقبيل دخول الجيش العثماني القاهرة، أصبح المشايخ حكاماً للشارع ومحل وساطة لدى العثمانيين والوالي ابراهيم بك الكبير.

لهذا قام المشايخ «أحمد العروسي ـ محمد الأمير ـ محمد الحريري» كوساطة لدى القائد العثماني أحمد الجزائري حتى لا يتم سفك دماء أثناء الاحتلال، وبالمقابل طلب الوالي وساطتهم لمنع قيام ثورة شعبية ضده، معترفاً بزعامتهم المطلقة.

عندما دخل الجيش القاهرة هرب المماليك إلى صعيد مصر مخلفين وراءهم نساءهم وأولادهم.. وفي محاولة لترويضهم قام القائد العثماني ببيع النساء والأولاد في سوق الرقيق، ويذكر الجبرتي اعتراض أحد مشايخ الأزهر على هذا التصرف باعتباره مخالفاً للإسلام.

إن مما يدعم القول بتوصيف سياسة العثمانيين تجاه الأزهر على النحو الذي ذكرناه هو تلك المناورة الشهيرة[١] عندما قام السلطان سليم بترحيل عدد من زعماء الأزهر إلى عاصمته، دعماً لسياسته المعروفة باستجلاب الخبرات العربية في مختلف المجالات لتطوير مركز الخلافة حضارياً. ولكن السلطان سليمان القانوني أعادهم بعد توليه السلطة مباشرة إلى مناصبهم. ورغم أنهم قاموا هناك بالتدريس في كليات العاصمة وأفادوا قطاعاً واسعاً من الطلبة ونشروا اللغة العربية، إلا أن الخطوة بحد ذاتها ظلت مثيرة للجدل، فهي كما أرجح كانت تهدف إلى ربط، ما ظنته السلطة العثمانية مركز نفوذ مؤثر في دولة مهمة في الوطن الإسلامي، بمؤسسة الخلافة. وأعتقد أن ذلك الانحياز إلى الخلافة العثمانية كدولة إسلامية تعيد أمجاد

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٧.

الخلفاء العرب القدامى ظل سمة تفكير كل العلماء الأزهريين التالين لتلك المرحلة بما فيهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، مع انزياح بسيط في التبريرات المعطاة لهذا الانحياز، في عصر التلاقح مع الحضارة الأوروبية الوافدة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

نموذج من فتاوى الأزهر:

لم يكن الأزهر يعرف ما سمي فيما بعد بشيخ الجامع الأزهر إلا في منتصف القرن السابع عشر. كان أول من شغل المنصب الشيخ الخرشي المتوفي سنة ١٦٩٠ م[١].

ويبدو أن استحداث منصب كهذا فتح مجالاً للصراع على تسنمه بين المشايخ المنتسبين إلى المذاهب الثلاثة السائدة: الشافعي، الحنفي، المالكي، وجرت العادة فيما بعد أن تتوزع المناورات خارج حدود الهيئة التدريسية التي خولتها السلطات اختيار الشيخ بالانتخاب أو بالتوافق بالأحرى، فقد كان المتدخلون كثيرين ومنهم: الباشا العثماني، الأمراء المماليك، نقيب الأشراف، الطلبة المتقدمون. وكانت أكبر حادثة شغب تحدث في معركة الاختيار عام ١٧٧٧م ـ ١١٩٢ هـ أدت إلى تعطيل الاختيار ما يزيد على العام، إلى أن أدى التوافق إلى اختيار الشيخ أحمد العروسي الشافعي ١٧٧٨ م. وقد استمرت تلك العادة حتى عام ١٩٦١ عند حسمت الدولة المسألة بالقانون رقم ١٠٣ بأن يكون الشيخ ممن تتوافر فيه شروط مجمع البحوث الإسلامية ويعيّن بقرار من رئيس الجمهورية، وهكذا أصبح شيخ أكبر مؤسسة إسلامية سنية موظفاً لدى الدولة[٢].

وغني عن القول أن المذهب الأكبر في مصر هو الشافعي، وعندما جاء العثمانيون حاولوا فرض المذهب الحنفي ولكنهم أخفقوا.

يصف المؤرخ الجبرتي علماء الأزهر في تاريخه بأنهم كانوا شريحة غنية ممن

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٧.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٨.

يمكن أن نصنفهم بالارستقراطية الفكرية. لقد جمعوا ثروات كبيرة وعاشوا حياة مترفة وسكنوا القصور الفخمة، واقتنوا الجواري والخدم وكنزوا الذهب والفضة. كل ذلك إضافة إلى الامتيازات الأخرى التي حصلوا عليها ـ خاصة في العهد المملوكي ـ فقد ظلوا بمنأى من بطش أشرس سلطة في تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة.. سايرهم المماليك من أجل إبقاء الشارع ساكناً مطيعاً، وساهم أولئك العلماء حفاظاً على مكاسبهم في تهدئة الجماهير وامتصاص غضبها ضد ظلم الحكام. كان المماليك عملياً طوال عهدهم مثالاً للارستقراطية العسكرية المعزولة تماماً عن الشعب، وهم كما أسلفنا لم يعنوا حتى بتعلم لغة الناس والتفاهم معهم، وهذا ما استطاع المشايخ استغلاله إلى درجة بعيدة فظلوا على اتصال بالناس بحكم أنهم يقومون بالتدريس والافتاء وأمانة المساجد[1]. ولكنهم، وقد استطاع محمد علي بعد ذلك إنهاء دورهم وتحقيرهم، لم يحرك الشارع ساكناً لدعمهم، فكما يبدو طفح الكيل بهذا الشعب المعذب بعد قرون من استغلاله وخداعه.

ومع كل ذلك فلم يعدم مسار الزمن في تاريخ تلك المؤسسة الدينية من مشايخ فقراء نأوا بأنفسهم عن استجداء السلطة وظلوا أكثر التحاماً بالناس الفقراء وعاشوا عيشتهم، مثل عبدالله الشرقاوي وعبد الرحمن العريشي وغيرهما.

عندما تولى الشيخ العروسي مشيخة الأزهر كانت باكورة أعماله إصدار فتواه بجواز قتال المماليك الذين التجأوا إلى صعيد مصر وقاتلوا الدولة العثمانية. وجه الوالي العثماني حسن الجزائري في عام ١٧٨١م السؤال التالي[2]:

ما قولكم دام فضلكم في جماعة أمراء وكشاف تغلبوا على البلاد المصرية وحصل منهم الفساد والإفساد ومنعوا خراج السلطان وأكلوا حقوق الفقراء والحرمين الشريفين، ومنعوا زيارة النبي(ص) وقطعوا علوفات الفقراء وجماكي المستحقين والانيار، وأرسل لهم السلطان من يأمرهم وينهاهم فلم يصغوا ولم يمتثلوا، وكرر

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠.

عليهم أوامره فلم ينتهوا فعين عليهم عساكره وأخرجهم من البلاد، ثم أن نائبه صالحهم وفرض لهم أماكن وعاهدهم ألا يتعدوها حقناً للدماء، وقطعاً للنزاع وسكوتاً للفتن وأخذ منهم رهائن على ذلك ورجع لخدومه، وعند ذلك تحركوا ثانياً وزحفوا على البلاد وسعوا في إيقاع الفساد وقطعوا الطرق ونقضوا العهد، فهل يجوز لنائب السلطان دفعهم وقتالهم بشرط عدم إزالة الضرر بالضرر. . وأم كيف الحال؟

الجواب الفتوى: «يجوز قتلهم ودفعهم ويجب على كل مسلم المساعدة» إن نظرة إلى تلك الفتوى والفتاوى العديدة التي سبقتها أو تلتها تعطي انطباعاً بطبيعة قيادة تلك المؤسسة واتجاهاتها. . فهي لم تنفصل عن السلطة حتى في ظل الاحتلال الأجنبي لمصر.

الأزهر والاحتلال الفرنسي:

يقول نابليون بونابرت مقيماً علماء الأزهر قبيل دخوله مصر[١] «إنهم زعماء الشعب المصري وأنهم ظفروا بثقة ومودة سكان مصر على بكرة أبيهم(. . .) إن مشاعر الحقد قد افتعلت في نفوس الأتراك العثمانيين والمماليك على زعماء الأزهر فجعلتهم يقصون هؤلاء العلماء عن المشاركة في تصريف الشؤون العامة فعلينا أن نجعلهم وسطاء بيننا وبين الشعب المصري لأن أكبر العقبات التي سوف تواجهنا إنما تنبثق من الأفكار الدينية. ثم لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة ويحبون العدالة وعلى درجة من الثراء وأصحاب مبادىء خلقية عالية وهم أكثر الناس أمانة ولا يركبون الخيل ولا يمارسون أعمالاً عسكرية ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة. .».

إن نظرة فاحصة إلى هذا التقييم يدل على دراسة مستفيضة للوضع الاجتماعي في مصر قبيل الحملة الفرنسية. . ولعلّ المدهش فيها أنها تمتلك معاصرة يكاد ما ورد في نصوصها ينطبق تماماً على منظمة المؤتمر الإسلامي اليوم في ظل النظام العالمي. ورغم أخطاء بسيطة في التقييم مثل توصيف علاقتهم بالعثمانيين

---

(١) الأزهر جامعاً وجامعة الجزء الثاني ص ٣٤١.

والمماليك فإن معظم ما فيها صحيح. . فهم كانوا فعلاً مجرد وسطاء، وهادئين وفوق كل ذلك أغنياء ويمتلكون تأثيراً لا ينكر على الجماهير باسم الدين.

دخل الجيش الفرنسي مصر دون مقاومة تذكر من قبل الجيش المملوكي الحاكم وتم ذلك عام ١٧٩٨ في منتصفها تقريباً. ولمعرفة نابليون بطبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية والمماليك والشعب المصري المعزول. . دعا بعيد دخوله القاهرة وحتى بعد معركة الأهرام التي هرب منها المماليك إلى الصعيد، دعا للسلطان العثماني وأنه إنما جاء لتخليص المصريين من المماليك وأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وشكل ديوان حكم مؤلفاً من سبعة أعضاء مهمته الحفاظ على الأمن العام أشرك فيه معظم علماء الأزهر بما فيهم نقيب الأشراف عمر مكرّم وبالاتفاق مع الوالي العثماني مصطفى بك كتخدا. . ومما يذكر أن الوالي ونقيب الأشراف غادرا مصر بعد ذلك ولم يساهما بينما استمر الأزهريون الكبار وهم:-السادات، الشرقاوي، الصاوي، البكري، الفيومي والعريشي.

يقول الجبرتي. . كان العلماء يخرجون من عند نابليون وهم يلهجون بالثناء والشكر ويحدثون الناس عما شاهدوا. . ويقول نابليون في مذكراته التي كتبها في منفاه بأن علماء الأزهر قد أدوا خدمات جليلة للجيش الفرنسي، وكم أشاد بخصالهم وطباعهم وعراقه أصولهم وثراءهم[١].

وبعيد رحيل نقيب الأشراف عمر مكرّم عين بدلاً عنه نقيباً اسمه خليل البكري الذي أحيا احتفالاً مهيباً بعبد المولد النبوي الشريف في ١٩ آب ١٧٩٨.

على أية حال لم يكتب لشهر العسل هذا بين الأزهر ونابليون أن يدوم طويلاً فقد اشتعلت ثورة بقيادة أحد كبار مشايخ الأزهر وهو محمد السادات بعد ذلك بشهرين كان من أهم أسبابها البارزة أن السلطان العثماني رفع غطاءه السياسي عن الاحتلال الفرنسي بالاتفاق مع انكلترا[٢]. وعندها تذكر المصريون أن الفرنسيين

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٣ حتى ٤٢١.

مسيحيون وأنهم متعالون وأنهم يشجعون سفور النساء واستولوا على الأوقاف الإسلامية، وبدأوا بخلع بوابات الأحياء لتسهيل عبور جيشهم ضمن أحياء القاهرة الضيقة وأنهم فرضوا رسوماً وضرائب وأنهم أعدموا محمد كريم حاكم القاهرة الوطني الذي قاومهم. وبالمحصلة تذكروا أن الفرنسيين يختلفون عنهم بكل شيء وأنهم ملحدون لا يجب أن يتخذوا أولياء من دون المؤمنين.

كانت طاعة السلطان العثماني تلقى استجابة لدى الشارع المصري المؤمن، أدت إلى تفجر ثورة فاجأت الفرنسيين فعلاً، ومع ذلك ظل علماء الأزهر الكبار يشاركون الفرنسيين السلطة في الديوان المذكور سالفاً.

وكما هو متوقع ومعروف قصف الفرنسيون المسجد بالمدفعية وارتكبوا فظائع وتحدوا المشاعر الدينية باقتحام المسجد وتدنيسه (وكل ذلك وصفه الجبرتي بدقة رائعة). وأخيراً قاموا بإعدام خمسة من علماء الأزهر المشاركين في قيادة الثورة ما عدا الشيخ محمد السادات. مما يجدر ذكره هنا أن علماء الأزهر في السلطة حاولوا التوسط لدى نابليون لمنع إعدام العلماء الخمسة ولكنه رفض طلبهم، إلا في مسألة خروج الجنود الفرنسيين من الأزهر ولكنهم استمروا يرابطون حوله وينهبون ويقتلون[١].

رحل نابليون عن مصر وبدأت محاولات العثمانيين استعادتها حتى وصلت جيوشهم قريباً من القاهرة ولكن خليفة نابليون الجنرال كليبر هزم الحملة بكفاءة منقطعة النظير، لكن المصريين حالوا استغلال الأحداث فقاموا بثورتهم الثانية التي أدت إلى قصف القاهرة بالمدفعية مرة ثانية عام ١٨٠٠ في شهر نيسان، وتوسط علماء الأزهر مرة أخرى وقبلها كليبر بشروط على رأس قائمتها جلاء العثمانيين والمماليك عن القاهرة ومصر وهذا ما حدث فعلاً.

تمَّ اغتيال الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبي فقام الأزهريون والشعب

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥٥.

بمحاولة ثورة ثالثة. فتم إغلاق الأزهر واعتقال كل علمائه مائة يوم[١]. وأغلق المسجد حتى رحيل الفرنسيين.

لقد ظلت مشاركة علماء الأزهر في السلطة تحت ظل الاحتلال الفرنسي تؤرق ضمائر هؤلاء وظلوا يحاولون تبريرها. ولكن مصر كتب لها أن تدخل مرحلة جديدة غيرت مسار التاريخ المصري زمناً طويلاً.. وبدأت بعيد دخول الجيش العثماني مصر بمساعدة بريطانيا وظهور ضابط شهير اسمه محمد على باشا.

الأزهر والوالي محمد علي وأولاده:

من العجيب أن مصر دخلت بعد رحيل الفرنسيين مرحلة جديدة دامية اتسمت بالفوضى والعنف وانعدام النظام مما جعل علماء الأزهر يترحمون على أيام نابليون.. وفي رسائله إلى وزارة الخارجية يقول نائب القنصل البريطاني (المستر تابرنا) إن وفد العلماء طلبا منه التوسط لإرسال قوات بريطانية إلى مصر لإنقاذهم من بطش الجنود الألبان الوافدين وإنقاذ شعب مصر من الفناء، ويدل استعمال كلمة (فناء) على الوضع المذهل الذي مرّت به مصر رغم أن بعض المؤرخين يشككون بذلك الطلب[٢]. وتتضمن الرسالة تهديد هؤلاء العلماء بأنه في حالة عدم استجابة انكلترا فإنهم سيتوجهون بالطلب إلى فرنسا.

ربما أنني أميل إلى تصديق قيام العلماء بمهمة كهذه، فإن أكبر دليل على ذلك تلك المودّة التي استقبل بها العلماء وفد نابليون إلى مصر بعد أن تولى زعامة فرنسا، وكم أبدوا في اللقاء من مشاعر المودة للزعيم الفرنسي مستعيدين ذكرياتهم الطيبة معه، والجدير ذكره أن السيد عمر مكرّم رفض حضور هذا اللقاء.

اتسم محمد على بالدهاء والمكر والمناورة وهكذا تمكن بواسطة علماء الأزهر من الوصول إلى السلطة. فقد وقف مترقباً صراع الشعب مع الوالي العثماني أحمد خورشيد من جهة ومع المماليك الراغبين في استعادة سلطانهم بمباركة

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٥٢٣ـ٥٩٨.

السلطان العثماني من جهة أخرى، وقاد مناوراته ببراعة مذهلة قادت هؤلاء العلماء السذج إلى رفع التماس من السلطان بتوليته أمور مصر بعد أن قدّم تعهدات كثيرة منها (استمراره في مشورة العلماء). وغني عن الذكر أنه نقض كل تعهداته بعد أن استتبت له الأوضاع ١٨٠٥ ميلادية.

ورغم أن السلطات العثمانية حاولت عزل محمد علي إلا أنها فشلت بسبب من دعم علماء الأزهر ومن ورائهم الشارع لظنهم أنه خشبة خلاصهم من العثمانيين والمماليك معاً.. أما لماذا لم يقترحوا على السلطان ـ وكان ذلك باستطاعتهم ـ تعيين وال عربي (من صفوفهم هم على الأقل) لمصر فقد ظل ذلك غامضاً ذلك الغموض الذي دفع أبا الطيب المتنبي يوماً لكتابة قصيدته الشهيرة في زمن كافور الأخشيدي.

وكـــــم ذا بمصـــــر مـــــن المضحكـــــات

ولكنـــــه ضحـــــك كـــــالبكـــــا

في تلك الفترة جرت حادثة طريفة حقاً رغم دمويتها: فقد حاولت بريطانيا احتلال مصر عام ١٨٠٧، وكان الوالي الجديد منشغلاً بمحاربة المماليك في الجنوب.. يقول الجبرتي أنّ موقف الأزهر بدا سلبياً أمام هذا الغزو فلم يحرض ضده انتظاراً لمن تكون الغلبة، ولكن تطور الأمور وبوادر هزيمة الغزو وعودة الوالي بجيوشه بعد هدنة مع المماليك، كان لكل هذا أن يغيّر موقف زعامة الأزهر فبدأت بحشد الناس لصد الغزو بعد فوات الأوان، ذلك أن محمد علي لم يعترف بفضلهم في رسالته التي أرسلها إلى السلطان. بل على العكس فقد سُجّل تعاون علماء من الأزهر والقوات البريطانية الغازية التي نزلت الاسكندرية وصل إلى درجة الخيانة.

كان موقف مشيخة الأزهر انتهازياً بكل مقاييس الانتهازية، بل ربما يمكن اعتباره بعيداً عن روح الدين الإسلامي.. وظل هذا الموقف نقطة سوداء في تاريخ الأزهر مما أدى في النهاية إلى انحدار عصر علمائه الذهبي كوسطاء سياسيين وذوي مكانة بارزة، وذلك عندما قام محمد علي بجركته النهائية فألغى امتيازاتهم ونفى عمر

مكرّم إلى دمياط مع كل ما يحمله على كاهله من تاريخ في النضال والنفوذ والتأثير على الجماهير، فلم يحرك مواطن ساكناً وظلت القاهرة هادئة أمام انتهاء آخر رموز النضال الديني فيها[١].

مما يجدر ذكره أن محمد علي ثابر على هجومه لتوطيد أركان حكمه فقام بذبح المماليك بعملية غدر قل نظيرها في التاريخ (٢ آذار ١٨١١) وتخلص من باقي الزعامة الأزهرية وصادر أموال محمد السادات نقيب الأشراف الجديد، حتى أن ابنه إبراهيم تعمد إهانة أولئك العلماء بطريقة لم يشهدوها في كل تاريخ الأزهر فقد دعاهم إليه ولم يقم لهم احتراماً بل هددهم وطردهم[٢].

وهكذا انتهى الأمر بهذه المؤسسة إلى أن تحولت إلى مسجد لأداء الصلوات[٣] وحلقات الدروس البسيطة، خاصة وأن موجة الحداثة الأوروبية زحفت على مصر، بما في ذلك إفتتاح كليات عصرية لتدريس العلوم المعروفة كالطب والهندسة وغيرها. وبذكاء قام محمد علي بدفع طلاب الأزهر نحو هذه المدارس وأرسلهم بعثات إلى أوروبا. وغني عن القول أن الصراع الكلامي نشب بين بقايا المؤسسة الأزهرية وتلاميذها السابقين المتعلمين في أوروبا باتهامهم بأنهم أصبحوا مسيحيين ومنبوذين يستحقون طلب الرحمة لهم ولكنهم لم يصدروا فتوى بتحريم التعليم العصري على أيّة حال.

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥١.

(٢) راجع كتاب: محمد عبد المنعم خفاجي: الأزهر في ألف عام القاهرة ١٩٨٨، مكتبة الكليات الأزهرية ص١٧٩ ج١.

(٣) كان للأزهر وقفة مجيدة في زمن الخديوي توفيق بن محمد علي عندما ثار عليه أحمد عرابي خريج الأزهر وقائد الجيش ومجموعة من الضباط منهم محمود سامي البارودي، بسبب تعاون الخديوي مع الإنكليز ووافق على شق قناة السويس، فالتجأ عرابي إلى الأزهر الذي أفتى مجموع علمائه بكفر الخديوي وضرورة عزله: وقع الفتوى كل من: محمد الأنبابي، حسين العدوي، عبدالله الدسناوي مفتي الحنفية، محمد عليش مفتي المالكية. ومفتي الحنابلة، وعبد الهادي الأبياري مفتي الأوقاف (الأزهر في ألف عام ص١٨٥ م).

الأزهر في القرن العشرين:

باختصار يمكن القول أن الأزهر لم يستطع في العهود التي تلت محمد علي أن يساير حركة الإصلاح والتطور وثابر على التمسك بنظامه القديم حتى تم تحويله إلى الجامعة الأزهرية. في هذا المجال لا بد من الإشارة إلى محاولات الشيخ جمال الدين الأفغاني التحديثية وتلميذه الشيخ محمد عبدو ١٨٧٠ ـ ١٨٧٩، لكن هذه المحاولات بما في ذلك طرح مسألة العلمنة وتجديد الإسلام ظل محاطاً بالشكوك الكثيرة[١]، فقد ثبت دخول الشيخين تحت مظلّة الحركة الماسونية[٢]، المعروفة بارتباطها بالصهيونية. ويدافع المؤرخون المسلمون عن ذلك بأنهما لم يكونا يعرفان بخفايا تلك الحركة التي لم تظهر إلا بعد تأسيس الحركة الصهيونية ١٨٩٧ بعيد مؤتمرها الأول في بال.

توفي الشيخ جمال الدين في الآستانة ١٨٩٧ ويقال أن السلطان عبد الحميد قام باغتياله. أما الشيخ محمد عبدة فقد ثابر على تدريسه في الأزهر فترة من الزمن ثم اعتزال التدريس بأمر الخديوي. وأصبح له مريدون ويعتبر رمزاً للحركة التجديدية النهضوية الحديثة في مصر. وقد عارض الشيخ محمد عبده في ذلك الزمن شيخ الأزهر المشهور سليم البشري الذي اعتزل عام ١٩٢٠، ومصدر شهرته تلك هو إجراؤه أول احتكاك بالمرجعية الدينية للشيعية عن طريق مراسلاته مع السيد عبد الحسين شرف الدين التي جمعها في كتابه (المراجعات)[٣].

أصبحت المؤسسة الأزهرية عملياً جزءاً من السلطة التي تنفق عليها. وهكذا جرت العادة أن يقوم الملوك بتعيين المشايخ. فعلى سبيل المثال قام الملك فاروق بتعيين الشيخ مصطفى عبد الرزاق شيخاً للجامع الأزهر رغم أنه لم يكن من هيئة كبار العلماء. ومن المعروف أن تلك المرحلة حملت سمة ضغط السلطة على المشايخ

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥٢ وما بعد.

(٢) راجع: شهادات ماسونية تأليف حسين عمر حمادة ١٩٨٠ دمشق دار قتيبة.

(٣) راجع كتاب المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين.

ودفعهم إلى الاعتزال لأسباب عديدة يأتي على رأسها الاتجاهات السياسية المضطربة للدولة في ظل الاحتلال البريطاني الذي أناخ على مصر منذ العام ١٨٨٢ م.

توفي الشيخ عبد الرزاق عام ١٩٤٧ بنوبة قلبية أثناء مظاهرات الطلبة ضده باتهامه بأنه عميل الملك[١] وخلفه الشيخ مأمون الشناوي واعتزل، ثم تولى المشيخة عبد المجيد سليم ثم اعتزل سريعاً في أيلول ١٩٥١، ثم إبراهيم حمروش الذي اعتزل في شباط ١٩٥٢ ثم عبد الحميد سليم الذي اعتزل في أيلول ١٩٥٢، ومحمد الخضر حسن اعتزل في كانون ثاني ١٩٥٤ ثم عبد الرحمن تاج ثم الشيخ محمود شلتوت الذي توفي عام ١٩٦٣.

إن استعراضاً سريعاً لدراما، التغييرات السريعة في المشيخة من قبل السلطة، وإذا علمنا أن تعيين الشيخ يتم بقرار الملك أو الرئيس استناداً إلى القرار رقم ١٥ سنة ١٩٢٧ وأنه مسؤول أمام السلطة التنفيذية، لأدركنا مدى استجابة المؤسسة لتلك السلطة وصولاً إلى إصدار الفتاوى لدعمها، ولعل آخر هذه الفتاوى العجيبة فتوى شرعية اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨ بعد زيارة الرئيس الراحل أنور السادات للقدس قبل ذلك بسنة والتي أصدرها الشيخ الحالي جاد الحق جاد الحق. ثم تصريحه الأخير لجريدة الوفد ١٣ تشرين أول ١٩٩٥ بضرورة التعامل مع إسرائيل كأمر واقع والذي يمكن اعتباره بمثابة فتوى، كل ذلك يضع هذه المؤسسة في المكان المحزن الذي انقادت إليه بتفاعلات تاريخها الطويل الممتد إلى ما يزيد عن ألف عام، فالأمر لمن غلب وطاعته واجبة.

---

(١) «الأزهر»، فوللرس وجوبيه ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٤.

المؤسسة الإسلامية الشيعية في النجف وقم:

مدخل إلى التشيع:

ربما لم يوضع تعريف محدد لمفهوم السنة في العالم الإسلامي[1]. ولكن مفهوم التشيع والشيعة امتلك حدوده الواضحة التي يمكن تعريفها وشرحها، منذ تعمق هذا المفهوم بدايةً قبيل رحيل الرسول(ص) عن هذه الدنيا وبعيد رحيله بقليل. لم يكن التشيع مفهوماً طارئاً على الإسلام ففي عهد الرسول كان بعض كبار الصحابة يتشيعون أو يناصرون الإمام علي(رض) [على أية حال لم يعرف لأحد من الخلفاء الأربعة بعد النبي شيعة أو أنصاراً في حياتهم إلا الإمام علي] مثل: أبو ذر الغفاري، المقداد بن الأسود، بلال مؤذن الرسول، والعباس بن عبد المطلب وبنوه، عمار بن ياسر، جابر بن عبدالله، أبو الطفيل عامر بن واثلة، أبو أيوب الأنصاري.. وسلمان الفارسي وغيرهم كثير[2].

---

(١) يلتزم فقهاء المذاهب الأربعة باتباع الإمام أبي الحسن علي الأشعري ويتلخص في عدة مسائل أهمها في علم الكلام: مسألة الحسن والقبح وهل هما بالشرع أم بالعقل فإنهم يرون أن الأشياء ليس بها حسن ذاتي ولا قبح ذاتي وإن الأمور كلها إضافية وأن إرادة الله في الشرع مطلقة لا يقيدها شيء فهو خالق الأشياء وهو خالق الحسن والقبح وأوامره هي التي تحسن وتقبح ولا تكليف بالعقل إنما التكليف بأوامر الشرع ونواهيه ولا ثواب ولا عقاب إلا بمخالفة أوامر الشرع ولا عبرة بأوامر العقل إنما العبرة بأوامر الشرع.. أما مسألة الجبر والاختيار فإن الأشعري يتحدث عن حل وسط سماه (الكسب) أي أن الإنسان يكسب بعمله حصيلة مصيره الأخير للجنة إو النار أي أنه يسعى لما هو مقدر له سلفاً باختياره وهي كما نرى نظرية غامضة.
راجع: عز الدين بن عبد السلام، مرجع سابق ص٧٧، ويعتبر مذهب الأشعري عند البعض ممثلاً لمفهوم السنة إضافة إلى مسائل أخرى كالإجماع والقياس وما صح من حديث الرسول في الصحاح المعتمدة والتي ربما حددت بستة أو ثمانية. وبالمقارنة مع الشيعة أو المعتزلة فإن هناك اختلافات جوهرية بالتأكيد يمكن الرجوع إليها في مراجعها.

(٢) صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، أو كتاب سعد الأنصاري: الفقهاء حكام على الملوك، ص١٣/ دار الهادي، بيروت ١٩٨٦.

أما وضع تعريف محدد للتشيع فهو أمر ممكن، ولكن تعريفاً كهذا يجب التفريق فيه أولاً بين التشيع والشيعة، لأن كثيراً من الشيعة خرجوا عن التشيع كالغلاة منهم على سبيل المثال، ويظل التعريف مهما حاولنا فيه الاختصار والتكثيف ـ واسعاً لا بد أن يشمل كافة مفاهيم التشيع وليس بمفهوم مناصرة الإمام علي وبنيه كما ورد لدى بعضهم[١]:

وقبل أن نحاول تكثيف مفهوم التشيع يجدر بنا الإشارة إلى أن التشيع في صدر الإسلام كان السمة الغالبة على الأمة ودليلنا من سير الشعراء العرب في العصر الأموي الأول أن غالبيتهم بدأوا شيعة ثم ناصروا السلطة لأسباب معروفة كما فعل جرير والفرزدق مثلاً (راجع الأغاني).

«الشيعة من شايع علياً أي اتبعه وقدمه على غيره في الإمامة وإن لم يوافق على إمامة باقي الأئمة فيدخل منهم الإمامية والجارودية من الزيدية والإسماعيلية غير الملاحدة منهم، والواقفية والفطحية» عن شرح اللمعة[٢].

«الشيعة هم من شايع علياً وقدمه على أصحاب رسول الله واعتقد أنه الإمام بوصية من رسول الله وبإرادة من الله نصاً كما يروى الإمامية أو وصفاً كما يروى الجارودية». عن الشيخ المفيد: «الشيعة هم الذين شايعوا علياً وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصاية أما جلياً وأما خفياً واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده» الشهرستاني في الملل والنحل.

نشأة التشيع وتحديدها أثارت أيضاً كثيراً من الاختلافات:

١ ـ بعضهم يرى أنها نشأت كحركة سياسية دينية بعد وفاة الرسول مباشرة:

أ ـ بعد حادثة السقيفة (تاريخ اليعقوبي).

---

(١) السيد عبدالله الغريفي، التشيع، ص١٩ ـ ٢٤، دار الملاك، بيروت، ط٤، ١٩٩٥.

(٢) أحمد الوائلي، هوية التشيع، ص١٢، دار الكتاب الإسلامي، قم/ إيران، ط٢/ ١٣٩٢ هـ.

ب ـ بعد وفاة النبي(ص) مباشرةً عندما رأى جماعة من الناس ان اهل بيته احق بخلافته (احمد امين).

ج ـ طلب الامام علي للخلافة بعد رحيل النبي(ص) مباشرةً (محمد ابو ريان).

د ـ بعد حادثة السقيفة(جولد تسيهر).

٢ ـ ولد التشيع في عصر عثمان نتيجة أحداث وتناقضات في العالم الإسلامي (ابن حزم) والنديم في الفهرست، أو بعد معركة صفين (عبدالله نعمة [روح التشيع]).

٣ ـ نشأ التشيع بعد كربلاء (كامل الشيبي (بين التصوف والتشيع)، كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية).

٤ ـ نشأ التشيع بسبب اليهود ومنهم عبدالله بن سبأ (الطبري في تاريخه) (ومحمد فريد وجدي دائرة المعارف الإسلامية).

٥ ـ نشأ التشيع في زمن الإمام جعفر الصادق (علي عبد الرزاق الإسلام وفلسفة الحكم)[١].

أما التشيع كما يحدده الشهيد محمد باقر الصدر[٢] فهو الاعتقاد الجازم بأن رسول الله لم يترك الأمة دون تحديد الخليفة ونظام الحكم وأنه أمر الإمام علي بكتابة جميع سننه في كتاب وأنه أعدّه أي الإمام علي لتولي أمر الأمة بالنص.

الولاية بالنصوص:

مهما يكن من أمر فإن الاعتقاد بالأمر الإلهي لولاية الإمام علي(رض) لأمور

(١) راجع: التشيع، ص١٩ ـ ٢٤ للسيد الغريفي.

(٢) راجع: الشهيد محمد باقر الصدر، نشأة الشيعة والتشيع، دار الغدير، بيروت ١٩٩٥. والطبعة الأولى/ القاهرة ١٩٧٧م بعنوان: التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية.

المسلمين وتوريثها لولديه الحسن والحسين لنزول آية التطهير بشمولهما، والقول بعصمة الأئمة، ثم الاعتقاد بعصمة الاثنى عشر إماماً، بما في ذلك الاعتقاد بعودة الإمام المهدي المنتظر. . كل ذلك بشكل بعض بنية التشيع حقاً. يمكن النظر إلى الحديث التالي في حوار جريء مع الإمام جعفر الصادق «يا ابن رسول الله إن الحسن البصري حدثنا عن رسول الله قال: إن الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري وخشيت أن يكذبني الناس فتواعدني أن لم أبلغها أن يعذبني، فقال: هل حدثك بالرسالة قال: لا، (. . .) قال الإمام جعفر: وأمر الله بالولاية وفرض ولاية الأمر مصداقاً لنص الآية الكريمة: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾ ففرض ولاية الأمر، فضاق رسول الله ذرعاً فنزلت الآية: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**﴾ فصدع رسول الله بذلك وبلغهم في غدير خم بعد العودة من حجة الوداع[1].

أما نص حديث الغدير فهو مشهور لدرجة أنه متوفر في كل كتب الحديث بشكل أو بآخر وكذلك في كتب التاريخ، وربما نجد موسوعة ضخمة كرست لهذا الحديث نصاً وسنداً وتاريخاً وشعراً ونثراً[2].

يقول الحديث نقلاً عن مسند أحمد بن حنبل لأنه أورده بعدة روايات وهذه أكثرها تفصيلاً «كنا مع رسول الله في سفر فنزلنا بغدير خم فنودي فينا الصلاة جامعة وكسح لرسول الله تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيد علي فقال: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا بلى، قال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه قالوا بلى، فأخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال: فلقيه عمر بعد ذلك فقال له هنيئاً يا ابن أبي

(١) سعد الأنصاري، الفقهاء حكام على الملوك، دار الهدى، بيروت ١٩٨٦، ص١٤.
(٢) راجع: كتاب الغدير (الجزء الأول) للشيخ عبد الحسين الأميني.

طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة[1].

ويعتبر حديث الغدير ـ بحكم تواتره ـ أشهر ما يُستند إليه في أحقية الإمام علي بخلافة الرسول. . ولكن هناك نصوصاً أخرى أيضاً من القرآن والأحاديث يشار إليها يمكن مراجعتها في الكتب المعتمدة. أما مضمون تفسير الآية والحديث الواردين آنفاً ـ رغم اعتقاد المسلمين بصحة ورود النص الثاني عن النبي وتأويل النص القرآني بأنه نزل في الإمام علي ـ فهو ما ميز السنة عن الشيعة خلال التاريخ.

إضافة لا بد منها:

ظل التشيع عبر تاريخ الإسلام حافزاً كبيراً للبحث العلمي الفقهي والفلسفي، وبسببه نشاهد هذا الكم الهائل من الأفكار والدراسات في مختلف مناحي العلوم الإنسانية. لقد أغنى نظرية المعرفة بشموليتها. . أجاب على الأسئلة العديدة والهامة التي طرحت. . أعطى لكل ذي حق حقه من الشخصيات والمواقف والأمكنة. شكل أو صاغ أيديولوجيا إسلامية، فتح المجال لأعمال العقل في الطبيعة وما وراءها، أغنى نظريات علم الكلام ووضع نظريات في فن الحكم والسياسة، وأسس للمذهب النقدي في علم الأدب والتاريخ سابقاً ظهور مثيلاتها في الحضارة الأوروبية، خاصة لدى هيجل وكانت.

فتح التشيع المجال واسعاً لمناقشة واستخدام معطيات الفلسفة اليونانية في صلب علم الكلام الإسلامي ضمن مناقشة الدين ومشكلاته أمام ما استجد من ظروف. . وكان المعتزلة ونتاجهم جزء بسيط من مفرزات حركة التشيع الإسلامي، إضافة إلى الكم الثرّ من الاجتهادات التي اتسمت بالغلو كالإسماعيلية (إخوان الصفا) والقرامطة وغيرهما. لقد وضع وبحق أسس فن المعارضة السياسية في أقدم صورها المعروفة. . وضع نظريات في الاقتصاد السياسي المتضمنة بذور الحداثة

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ٤/ ٢٨١ حديث البراء بن عازب.

فيما نراه من إرهاصات الأيديولوجيات التي تتحدث عن العدالة الاجتماعية.

إن نظرة شاملة على أبرز مفكري الإسلام في قرونه المزدهرة كحضارة ونظام تعطينا انطباعاً بأنه أياً منهم كان لا بد أن يعبر من بوابة التشيع قبل أن يتخذ لذاته مسارب أخرى. . وإذا أردنا التخصيص أكثر قلنا إن ساحة التشيع الفسيحة أبرزت أعظم شاعر في العربية، وأعني أبو الطيب المتنبي وغيره كثير.

التشيع في جوهره العاطفي هو ذلك الحزن الساطع والحب العميق اللذين ليس لهما حدود، متجهاً إلى المثل الأعلى المتمثل بآل بيت النبي الشهداء. إنه حالة نضالية في مسار التاريخ الإسلامي. . لقد أتيح لتلك العصبة من آل بيت النبي من يرفع راياتهم إلى الأبد. . من يحبهم عشقاً من يضحي تحت ظلال شعاراتهم دون أن يطلب أجراً مؤمناً أنهم ظلموا.

وفي اعتقادي أنه لولا هذا المنهج الذي قاده أقطاب المؤسسة الشيعية من الأئمة ونوابهم وممثليهم (الفقهاء) وأنصارهم، إن على الصعيد الفكري أو في الصعيد التطبيقي الكفاحي لما كان للحضارة الإسلامية أن تزدهر تبعاً لنظريتي التحدي، والفعل ورد الفعل، بحيث أنها صارت بنياناً شامخاً.

ألا يثير العجب فينا أن المسلمين شيعة وسنة لا زال غالبيتهم يبكون مصرع الإمام الحسين وأهله بعد ألف وأربعمائة من السنين كأنهم رحلوا البارحة؟ إن جوهر التشيع لم يكن مطلقاً مجرد انتقاد لبعض الصحابة لأنهم غصبوا حقاً للإمام علي وبنيه كما حاول بعض المفكرين المسلمين مدفوعين بردود أفعال آنية أن يعبروا. . فهو في حقيقته بلورة لأيديولوجيا إسلامية مبنية على معطيات البحث العلمي المتطور والمرن والحديث.

نشوء المؤسسة:

ازدهرت المؤسسة الإسلامية الشيعية في ظل المعارضة السياسية حتى في الدول التي كان حكامها من الشيعة مذهبياً (دولة بني حمدان، إيران) ويستبعد المفكرون الفاطميين من إطار الشيعة ويحصرونها عادة في الإمامية.

برزت المؤسسة عملياً في العصر الأموي في ظل الاستقطاب الذي كوّنه الإمام الرابع (علي زين العابدين) بعد مجزرة كربلاء سنة ٦٨ للهجرة واستشهاد الإمام الثالث الحسين بن علي، توفي زين العابدين عام ٩٥ للهجرة وكان مركز استقطاب إسلامي واسع في عصور الأقطاب الأمويين يزيد بن معاوية وحتى الوليد بن عبد الملك[١].

يتحدث المؤرخون عن صفاته بكثير من الاستفاضة واعتبره الجميع أشرف وأفضل أهل زمانه، ولعل قصيدة الفرزدق الشهيرة تعطينا مثالاً على ذلك:

هـــذا ابـــن خيـــر عبـــاد الله كلهـــم
هـــذا النقـــي التقـــي الطـــاهـــر العلـــم
إذا رأتـــه قـــريـــش قـــال قـــائلهـــا
إلـــى مكـــارم هـــذا ينتهـــي الكـــرم
يغـــض حيـــاء ويغضـــي مـــن مهـــابتـــه
فـــلا يكلـــم إلا حيـــن يتبســـم[٢]

قال عبد الملك بن مروان لما دخل عليه، والله لقد امتلأ قلبي خشية منه..

---

(١) السيد محسن الامين، في رحاب أئمة أهل البيت: ج٣ ـ ٥، (ص١٩٣ ـ ٢٣٧) دار التعارف، بيروت ١٩٨٠م.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٥.

لم يعرف أو ينقل عنه اجتهادات فقهية محددة أو اشتغالاً بقيادة معارضة سياسية ضد السلطة الأموية، بل أن ما نقل عنه من حكم مأثورة أو رسالته في الحقوق، أو تحف العقول وغيرها فإنها تدل على أنه كان حالة استقطاب مهدت لبلورة المذهب على يد الإمام جعفر الصادق(رض) والذي سمي المذهب باسمه لدى الدارسين. ولعلّ أبرز وأجمل ما أثر عن زين العابدين (الصحيفة السجادية) التي تضم أدعيته المأثورة.

ليس من شك في أن واضع أسس البنيان الأيديولوجي للمؤسسة هو الإمام علي بن أبي طالب، لكن ما نقل عن الإمام ليس بالكثير لأسباب عديدة جداً، أهمها ما يتعلق بمحاربة السلطة الأموية لأنصاره وإحراق الكتب وخلق وتحريض الأعداء على ذمّهم وتأليف الأحاديث النبوية التي تعارض ما أثر منها عن حقهم في الخلافة، وتؤيد وجهة نظر السلطة، وفي تشكيل أحزاب مضادة للشيعة وتكوين رأي عام يحاربهم، وهذا ما حصل فعلاً.

الإمام جعفر الصادق:

إن وجود الإمام جعفر وجهوده الفقهية ـ في تصوري ـ كانت سبباً مهد لخلق ظروف علمية مناسبة أدت إلى بروز المجتهدين المسلمين الكبار أمثال مالك وأبي حنيفة ثم الشافعي وابن حنبل فيما بعد وليس العكس.

لقد ساهم الإمام جعفر في خلق الظروف لتلك النهضة ولم يكن هو نتاجاً لهذه الظروف.. كان تأثيره طاغياً.. ورغم أنه لم يتدخل في مسألة السلطة كإنسان عاش في مرحلة اتسمت بالفتن وانهيار عهد ونشوء آخر، فإنه نظّر للمرحلة القادمة وحفظ للتشيع بل للإسلام ميزة الابتكار والتسجيل والتأليف والتلمذة. لهذا كان في زمانه وتلاميذه مؤسسة مكتملة الملامح وظل بمنأى عن الاضطهاد بما تمتع به من ثاقب النظر والعلم الغزير والشخصية المبهرة.

ولد عام ٨٣ هـ وتوفي سنة ١٤٨ هـ في زمن جعفر المنصور قال فيه الشهرستاني[١]. هو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ثم دخل العراق فأقام بها مدة وما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحداً في الخلافة ومن عرفه في بحر العلم والمعرفة لم يطمح في شط ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط . . ».

ورد في أعيان الشيعة «ولم يرو عن أحد من أهل بيته ما روي عنه حتى قال الحسن بن علي الوشاء، من أصحاب الرضا، أدركت في هذا المسجد (يعني مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد»[٢].

وفي مروج الذهب عن الإمام جعفر الصادق قوله «ثم انتقل النور من بيننا إلى غرائزنا ولمع في أئمتنا فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض فينا النجاة ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور وبمهدينا تقطع الحجج، خاتمة الأئمة ومنقذ الأمة وغاية النور ومصدر الأمور، فنحن أفضل المخلوقين وأشرف الموحدين وحجج رب العالمين فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض عروتنا».

يقول عنه ابن حبان في تهذيب التهذيب لابن حجر «كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً يحتج بحديثه من غير رواية أولاده عنه وقد اعتبرت أحاديث الثقاة عنه فرأيت أحاديث مستقيمة ليس فيها شيء يخالف حديث الإثبات ومن المحال أن يلصق به ما جناه غيره».

إن نظرة فيما أوردناه آنفاً تجعل الباحث محرّضاً على طرح أسئلة مؤرقة عن

---

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ح٣، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ص ٢٦٢.
(٢) نفس المرجع ص ٢٦٣.

سبب إهمال أهل الحديث من السنة الأخذ عن إمام هذه صفاته التي تكاد تصل إلى الكمال والعصمة في السلوك الإنساني.

يقول أحمد أمين «ويظهر أن كثرة ما نسب إليه، وصعوبة التمييز بين ما هو صحيح وغير صحيح حملت البخاري على ألا يروي شيئاً من حديثه، ورجال الحديث من أهل السنة يختلفون فيه فإن سعد صاحب الطبقات يضعّفه ويحيى بن سعيد يقول في نفسي منه شيء»[1].

هذا الحكم الغريب يحرّص القاريء على مناقشة موقف المؤسسة السنية برمتها من الشيعة منذ الإمام جعفر الصادق.. وهذا النقاش لا بد أن يشمل الأستاذ أحمد أمين ذاته، ذلك أن ما كتبه عن الإمام جعفر تحفل بالمتناقضات التي لا يجد الدارس مندوحة من إبرازها..

الكل يقرأن الإمام جعفر الصادق من أفضل أهل زمانه وأصدقهم ـ ومع ذلك تجد من يقول مثل يحيى بن سعيد وابن سعد والبخاري وغيرهم أن في نفوسهم شيء منه أو يضعفونه، وهذا يعني ببساطة أنه ليس ثقة ويأتي في آخر مرتبة أصناف الرجال الذين روى عنهم أهل الحديث من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

بل أن أحمد أمين ـ رغم اعترافه بعظمة الإمام وعلمه ـ ينفي أن يكون واصل بن عطاء زعيم المعتزلة تلميذاً للإمام، بل هو على العكس يرجح أن يكون جعفر بن محمد تلميذاً لواصل بن عطاء لأن الإمام زيد بن علي عم جعفر الصادق تتلمذ على واصل بن عطاء تبعاً لرواية أبي الفرج الأصفهاني[2]. الأصل في إطلاق هذا الحكم أن المعتزلة يقولون في كثير من عقائدهم بما يقوله الشيعة.. وهكذا يرجح الباحث أحمد أمين رحمه الله أن التشيع تأثر بالاعتزال وليس العكس.. والحقيقة أن حكماً

(١) نفس المرجع ص ٢٦٥.
(٢) نفس المرجع ص ٢٦٨.

كهذا يتسم بالغرابة والإدهاش. يتطابق التشيع والاعتزال في أمور يلخصها أحمد أمين فيما يلي: أن صفات الله هي عين ذاته وبأن القرآن مخلوق، وبإنكار الكلام النفسي وإنكار رؤية الله بالبصر في الدنيا والآخرة، القول بالحسن والقبح العقليين (عكس ما قال الأشاعرة) وبقدرة العبد واختياره وإنه تعالى لا يصدر عنه قبيح وأن أفعاله معلّلة.. الخ).

فلماذا يرجح الأستاذ أحمد أمين أن الشيعة أخذوا من المعتزلة وليس العكس؟ التشيع في عهد الإمام جعفر مؤسسة متصلة بدقة حتى رسول الله(ص) تبلورت مقولاتها وأخذت هيكلها عندما نضجت أو أنضجت الظروف الموضوعية. ولم يكن المعتزلة إلا أفراداً عقلانيين برزوا كرد فعل على جمود تلامذه منهج الأشعري الذين وضعوا العقل في مرتبة أدنى من النقل (مع كل ما دخل على النقل من تحريف في ذلك الزمان). في القرن الثامن الهجري بفعل الصراع السياسي، وهذا ما يقرّ به غالبية الباحثين. ألا يثير الشكوك حقاً أن تكون المؤسسة تبعاً لأفراد ولا يكون الأفراد تبعاً للمؤسسة مع اعتراف السيد أمين بأن كثيراً من المعتزلة تشيعوا..؟

ألا يدل هذا على عودة الفرع للأصل الذي أخذ عنه وهو المؤسسة(؟). على أيّة حال تلك كانت مجرد تساؤلات تحاول توصيف الانحياز من الحياد والموضوعية في البحث العلمي.

لقد ناظر الشيعة المعتزلة في زمن الرشيد بواسطة هشام بن الحكم (أحد كبار تلاميذ الصادق) وهذا يدل على أن بينهما اختلافات كثيرة رغم التطابق في مسائل محددة تمت الإشارة إليها.

إن الإعتراف بأن جعفر الصادق كان مؤسسة ومدرسة لا يستقيم مع القول بأنه تتلمذ إلاّ على والده محمد الباقر(رض) ولم يعرف عن أحد من الأئمة على أية حال تتلمذه غير على إمام زمانه وهو والده مباشرة.

الإمام المهدي والولاية النائبة:

يمكن القول أن المؤسسة الشيعية بشكلها الحالي نشأت بعد غياب الإمام محمد المهدي في سامراء عام ٢٥٥ للهجرة والتي تسمى الغيبة الصغرى حتى ٣٢٩ هـ. كان الإمام يقود المؤسسة بواسطة سفراءهم: الأول عثمان بن سعيد العمري: ٢٦٠ ـ ٢٦٥ الثاني محمد بن عثمان العمري ٢٦٥ ـ ٣٠٥، الثالث الحسين بن روح النوبختي ٣٠٥ ـ ٣٢٦ الرابع علي بن محمد السمري ٣٢٦ ـ ٣٢٩ وهي سنة وفاته، وبهذا انقطعت الصلات بالإمام كما يجمع على ذلك فقهاء الشيعة «وحتى رجوع المهدي إلى العالم ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً فإن الفقهاء هم الذين يقودون المراحل بتخويل عام صادر عن الإمام المهدي»[1].

ما هي مؤهلات الفقيه الذي يقود، ويقلّد المؤمنون ويتبعون فتاواه[2]..

١ ـ المؤهل العلمي: بمعنى امتلاك القدرة الشمولية التي تستوعب كل المجالات العبادية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وشتى النواحي الحياتية (ويسمى صاحب هذه المقدرة بالفقيه المطلق).

٢ ـ المؤهل النفسي والسلوكي: أي أن يكون عدلاً، وتتمثل العدالة بما يلي:

أ ـ أن يحصل على ملكة ملازمة التقوى.. ترك المحرمات وفعل الواجبات.

ب ـ الاستقامة في جادة الشريعة.

جـ ـ أن تكون الاستقامة طبيعية للعادل وليس شيئاً طارئاً.

٣ ـ المؤهل القيادي: ويتمثل في الوعي القيادي والممارسة القيادية في توجيه حركة الأمة في كل أمورها ومواجهة حالات التحدي الطارئة.

ما هي وظيفة الفقيه القائد نائب الإمام الغائب المناطة به في مرحلة الغيبة الكبرى:

---

(١) التشيع، مرجع سابق ص ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص٣٧٩ـ٣٨٣.

١ ـ الافتاء وبيان الأحكام الشرعية: وإذا كان الافتاء من مهام الفقهاء والمؤهلين فإن التقليد من مسؤوليات الأمة التي لا تملك المقدرة العملية على الاستنباط[١].

القضاء: ويستوجب شروطاً: كالبلوغ والعقل والإيمان والعدالة والفقاهة «والذكورة» وطهارة المولد.

٣ ـ الولاية العامة: وهي مستمدة من نصوص الولاية في القرآن والحديث وتشمل ما يلي:

أ ـ القضاء، رعاية القاصرين، إدارة الأوقاف، الأمور الحسبية.

ب ـ إقامة الحدود الشرعية.

ج ـ الولاية الشرعية سياسياً واجتماعياً وتربوياً واقتصادياً (أي بمعنى واضح تسلم السلطة الدنيوية بكل ما في ذلك من معنى تطبيقي.. ويظل هذ الاجتهاد مصدر خلاف بين فقهاء الشيعة ويدور حوله نقاش مستفيض).

إن ما تقدم يوضح ماهية المؤسسة الشيعية، وبما أنها في مرحلة المعارضة السياسية حتى وهي في السلطة كما هو الحال في دولة مثل (إيران الإسلامية) فإن الفقهاء عملياً هم الحاكمون على الشعب.. أو بالأحرى هم القادة الحقيقيون للجماهير.

إذن يمكن اعتبار المؤسسة الإسلامية الشيعية أقدم في الظهور والتبلور والوضوح من المؤسسة السنية وأكثر نفوذاً وجذرية أيضاً، وهي مؤسسة تتمتع باستقلال مالي بسبب مواردها الواسعة من المسلمين المقلدين وكذلك الأوقاف. وهي بالمحصلة مركز استقطاب وتوجيه حركة الشارع الإسلامي ومرجعيته ومركز إلهامه.

---

(١) «من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه» كما أثر عن الإمام العسكري (رض).

المؤسسة الشيعية في إطار الفعل:

وصف الكاتب البريطاني (لوريمر) في كتابه دليل الخليج الجزء السادس ص ٣٣٨٦[١] وضع المؤسسة الدينية في إيران القرن التاسع عشر بقوله: «يقوم العالم الشيعي المجتهد بعدة وظائف، فهو محاضر في اللاهوت وهو قاضي شرع وهو مدرس شريعة إسلامية(. . .) كلمته بين اتباعه قانون، ويتلقى مبالغ كبيرة من المال من إخوانه في الدين الذين يدفعونها زكاة أموالهم أو صدقة أو لأغراض أخرى في سبيل الدين، ولرجال الدين نفوذ سياسي واسع في إيران والعراق، رغم أن ذلك يتصادم مع السلطات الحاكمة في كثير من الأحيان.

يختار الجمهور من يجب تقليده واتباعه ومن هو المجتهد الحائز على شروط الفقيه. وذلك عملياً يمثل الحالة الديمقراطية الأبرز في المؤسسة، سادت منذ غياب الإمام المهدي وحتى اليوم، ورغم الخلاف الاجتهادي الحاصل (وهو أمرٌ إيجابي ومحرّض على الأفضل بما في ذلك تصعيد البحث العلمي الفقهي) فإن المؤسسة في النجف وقم لم تشهد صراعاً ذي قيمة تذكر طوال تاريخها».

يحدد الإمام الخميني رحمه الله وجوه أنفاق سهم الإمام أو خمس أهل البيت التي تعود لولي الأمر في الدولة كما يلي «سهم لله تعالى، سهم للنبي، سهم للإمام وهي لولي الأمر (بمعنى أن الأسهم الثلاثة تعود للمرجع الديني المدفوعة له) أما الأسهم الثلاثة الأخرى فتصرف للذين يتصل نسبهم بعبد المطلب من جهة الأب».

وإذا أضفنا موارد الأوقاف الواسعة للحوزات العلمية فإن الموارد تمنح المؤسسة استقلالية مالية كاملة لا يمكن من النفاذ إليها وإذلالها.

من وجوه الإنفاق لهذه الأموال: يأتي طلاب العلم في المرتبة الأولى ثم تتراوح الوجوه في تعددها حتى تتقاطع أحياناً مع مهمات الإنفاق للدولة ذاتها كالمدارس والجامعات والمعاهد والأندية والمستشفيات وغيرها.

---

(١) الفقهاء حكام على الملوك، مرجع سابق ص٢٦ ـ ٣١.

يتعين على كل مسلم شيعي أن يكون له مرجع جامع لكافة شروط المرجعية والولاية، وغني عن القول أن الجماهير تحمي مرجعها من انتقام السلطات أو أنها تحاول ذلك في ظروف بالغة الصعوبة، وهذا يؤدي عملياً إلى أن يكون المقلدون جبهة متراصة وعلى أهبة الاستعداد للدفاع عن مرجعهم.. وبالمقابل تجري السلطات الكثير من الحسابات قبل الإقدام على الصدام مع المرجع.

تطور المؤسسة ـ نظرة تاريخية:

ربما لن يمكننا الحديث عن مؤسستين منفصلتين في النجف أو قم، فنحن نلاحظ مرحلياً تبادل التأثير بين الطرفين، وظلّت النجف دوماً تحتل مكان القيادة حتى زمن قريب في النصف الثاني من القرن العشرين. وإذا تناولنا الحركة الدستورية في إيران في أوائل هذا القرن، فإن قيادة الحركة قدمت من النجف، خاصين بالذكر السيد محمد الطباطبائي أحد تلامذة الميرزا محمد حسن الشيرازي[1]. المرجع الأكبر في العتبات المقدسة، وكان من أقطاب الحركة الشيخ محمد مهدي الخالصي المهاجر من العراق أيضاً.

إنها مؤسسة عاشت تحت ظلال ستارة من الدماء بذلها الشيعة عبر تاريخ الإسلام، ليس من أجل السلطة قطعاً، فالأئمة بشهادة أعدائهم كانوا يعلمون أنهم لن يصلوا إليها[2]، ولكن سواقي الدماء تلك ترقرقت لترفد بحر التصحيح.. من أجل الإسلام الذي تعلموه في شخص الإمام الأول عن النبي(ص) وصولاً إلى الدفاع عن الإسلام الذي اعتنقوه، في مواجهة الصليبيات أو صنائعها في الوطن الإسلامي.

يعجب الباحث لهذه السلسلة من المجازر التي تعرض لها الشيعة دفاعاً عن

---

(١) سليم حسني، دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار، دار الغدير بيروت ١٩٩٥.

(٢) راجع ضحى الإسلام ج٣ ص ٢٦٢: أحرق الإمام جعفر الصادق كتاب رسول أبي سلمة الذي دعاه إلى قيادة الدعوة ضد الأمويين لاستلام الخلافة بعيد مقتل ابراهيم الإمام، فأحرق الكتاب متمثلاً بقول الكميت:

أيـــا مـــوقـــداً نـــاراً لغيـــرك ضـــوؤهـــا
ويـــا حـــاطبـــاً فـــي غيـــر حبلـــك تحطـــب

معتقداتهم. . من أجل العقيدة لا غير دون مطمع في كسب. المؤسسة عملياً سلسلة من الشهداء والدم والدموع، ليس أولها اغتيال الإمام علي وبنيه الحسن والحسين. وربما تخامرنا الدهشة بشكل أكبر عندما نعلم أنه عدد الشيعة بالمسح الإحصائي في العالم وصل إلى ما يقارب ربع عدد المسلمين في العالم ولن ينسى المسلمون عند احتفالهم بذكرى عاشوراء من كل عام. ما اشتهر عن الإمام الحسين:

إن كـــان ديـــن محمـــد لـــم يستقـــم
إلا بقتلـــي يـــا سيـــوف خـــذينـــي

منذ أوائل القرن السادس عشر للميلاد أصبح المذهب الإمامي (الجعفري) المذهب الإمامي الرسمي لإيران أيام الصفويين رغم وجود المذاهب الأخرى[1]، يقول بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية: إن الشاه إسماعيل الصفوي بعد انتصاره على (ألوند) توجه نحو تبريز فاعلمه علماء الشيعة التبريزيون أن ثلثي سكان المدينة الذين يبلغ عددهم ثلثمائة ألف هم من السنة».

تولى الشاه عباس السلطة عام ١٦٢٨ بعد هزيمة العثمانيين. ويقرر المؤرخون أنه كان ملكاً سيئاً ـ على الأقل من وجهة نظر علماء الشيعة، فقد عقد صلات مشبوهة مع الغرب ضد الدولة العثمانية [هذا التقييم من علماء الشيعة ضده رغم أنه أقر المذهب الأمامي ورغم أن الدولة العثمانية لم تقصر في اضطهاد الشيعة وقتلهم كما هو معروف]. وقد راقب العلماء المجتهدون الوضع المتدهور في إيران بقلق، وقاموا بمحاولات للإصلاح في مواجهة السلطة.. وكان على رأسهم محمد باقر المجلسي. . صاحب الكتاب الشهير (بحار الأنوار)[2].

لم يعمّر الصفويون طويلاً فقد هزموا أمام عدوين رئيسيين تقليديين هما العثمانيون من الغرب والأفغان من الشرق عام ١٧٢٢ م. ولا يعني انهيار حكم الصفويين أن البلاد خلت من القادة الكبار. . فقد ظهر اثنان منهما أتيح لهما أن يلعبا

(١) هوية التشيع، مرجع سابق، ص ٩٢.
(٢) الفقهاء حكام على الملوك، مرجع سابق ص٣١ ـ ٣٦.

دوراً كبيراً في تحرير البلاد من الغزاة شرقاً وغرباً، وهما نادر خان وكريم خان زند.

في تلك الفترة توحدت المؤسسة الشيعية في إيران والعراق وأصبحت النجف كعهدها دائماً قبله الزوار الإيرانيين ومكان استقرار كبار مراجعهم.

ومما يذكر قيام الدولة القاجارية بديلاً عن الصفويين.. في ذلك العهد هوجمت كربلاء من قبل الوهابيين (مما سنتطرق له لاحقاً) وقد تعهدت الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على العراق بإصلاح الأضرار والتعويض على القتلى ولكنها لم تفعل.

كان القاجاريون أكثر اتصالاً بالعلماء ومكنوا لهم من الرقابة على تصرفات ملوكهم، وهكذا وفي عهد (فتح علي شاه) تم التوفيق بشكل ما بين متطلبات النظام وطريقة الرقابة التي مارسها العلماء عليه، علماً أن الأمر لم يخل من صراع خفي، ذلك أن الدولة الملكية المستبدة ترفض الرقابة عادة لأسباب لا مجال لذكرها، إذا علمنا شكل الرقابة الصارم الذي مورس خاصة في مسألة العدالة وتطبيق للشريعة.

الانقسام في المؤسسة:

كان للمؤسسة الشيعية أن تشهد تيارين يتبلوران في داخلها في مرحلة الغيبة الكبرى من زمن ليس ببعيد. فقد ظهرت إلى الوجود مدرستان فقهيتان تعمقتا بحدة في نهاية القرن الثامن عشر للميلاد وهما المدرسة الأصولية والمدرسة الاخبارية.

لم تكن الحركة الاخبارية بجديدة في التشيع وهي بحسب تعريفها تهدف إلى الحد من الاجتهاد والاعتماد على النقل بشكل مطلق، بما في ذلك رفض الاعتماد على العقل في استنباط الأحكام[1]. ويمكن تحديدها بشكل أدق على الشكل التالي «الاخباري هو الفقيه المستنبط للأحكام الشرعية الفرعية من الكتاب والسنة فقط، وبعد يأسه من دليل الحكم يرجع إلى أصالة البراءة من الشبهات الحكمية التحريمية» ويعرف الأصولي في الجهة المقابلة كما يلي «هو الفقيه المستنبط للأحكام الشرعية

(١) الفقهاء حكام على الملوك، مرجع سابق ص٤٠ ـ ٤١.

الفرعية من الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل ومن غيرها مما قامت الحجة عليه عنده»[1].

وإذا دققنا في تاريخ المؤسسة الشيعية يمكن أن نستنتج أن المحدثين الكبار فيها أمثال محمد يعقوب الكليني توفي ببغداد ٣٢٩ هـ وصاحب كتاب (الكافي) في الحديث، وكذلك محمد بن بابويه القمي توفي بالري ٣٨١ هـ صاحب كتاب (من لا يحضره الفقيه)، أو والده علي بن الحسين الذي توفي في قم ٣٢٩ هـ، هؤلاء يمكن اعتبارهم بدايات ظهور الحركة الاخبارية.

وفي المدرستين كلتيهما ظهر مجتهدون معروفون مثل محمد باقر البهباني ولد سنة ١٢٠٨ هـ وقد برز في الطرف الأصولي، أو الشيخ يوسف البحراني المتوفي في كربلاء ١١٨٦ هـ والذي وصف باعتداله ووضعه للحدود بين المدرستين، أو كما يمكن توصيفه بالتيار الثالث، وقبل ذلك بزمن ظهر المجتهد محمد أمين الأسترآبادي المتوفى سنة ١٦٢٣ م كإخباري من طليعة المنادين بإلغاء دور المجتهد كفقيه ولي لأمور المسلمين.

على أية حال لا يمكن توصيف ذلك الانقسام بأنه ولّد صراعاً عنيفاً داخل المؤسسة، بل على العكس فقد أغنى حركة الاجتهاد واستنباط الأحكام والتدقيق في الأحاديث المنقولة عن الأئمة عن النبي(ص). وهو كما عبر عنه السيد جعفر كاشف الغطاء بأنه مجرد خلاف لفظي. واستمرت المؤسسة كما اعتادت أن تكون ـ على نهجها واعتقادها بأن الخلاف بين العلماء رحمة للمسلمين ومحرض على البحث العلمي، ولم يؤد ذلك مطلقاً إلى فتاوى تكفيرية من طرف للطرف المواجه.. وظلت المؤسسة الشيعية كما كانت تنهج التعددية في إطار الوحدة، وحاربت الغلو والغلاة وأفرزت مئات العلماء والمجتهدين الكبار.

---

(١) راجع جعفر كاشف الغطاء «مهمات الشريعة الغراء» والسيد محمد بحر العلوم «الاجتهاد أصوله وأحكامه».

الدولة القاجارية والمؤسسة:

في الفترة الواقعة ما بين نهاية الدولة الصفوية وبداية العهد القاجاري وبين نهاية هذا العهد ١٩٢٥ م شاهدنا مرحلة تصاعد نفوذ المؤسسة في إيران والعراق، وترافق ذلك أيضاً مع بداية انهيار الأمبراطورية الإسلامية وبدء التدخل الأجنبي والاحتلالات للأطراف. . وأخيراً سقوط الدولة العثمانية نهائياً عند نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨.

كان أبرز الملوك القاجاريين نادرشاه الذي كان من أهم ما حاول القيام به تحجيم دور المؤسسة، عندما دعا إلى عقد مؤتمر إسلامي شامل في طهران، مما أدى إلى أن يواجهه العلماء باتهام أنه يريد إضعاف المذهب الامامي عندما اعتبره أحد المذاهب الخمسة الإسلامية بإطلاق تسمية المذهب الجعفري عليه، ليتساوى بذلك مع بقية مذاهب السنة، بينما يعتبر الإماميون أنهم يمثلون جوهر الأيديولوجيا الإسلامية وأن المذاهب الأخرى ما هي إلا تفرعات لمذهب الأشاعرة في الأصول.

تم اغتيال نادرشاه عام ١٧٤٧ م بما اعتبر ذروة انتصار المؤسسة الإسلامية في مواجهة ملك أراد تحديها، ورغم الاضطراب السياسي الحاصل والمتمثل بالهجمة الروسية القيصرية على شمال الوطن الإسلامي واحتلالها قسماً كبيراً من ديار الإسلام في آسيا وزحفها باتجاه إيران، فإن العلماء قاموا بدور بالغ الأهمية في الحفاظ على تماسك البلاد ووحدتها الداخلية ومحاربة الفساد ومقاومة المطامع الأجنبية[١]. وكان واضحاً أن المؤسسة حملت على عاتقها عبء المجابهة أمام أعداء يتحركون في الشرق (احتلال شمال أفريقيا من قبل فرنسا) وفي الشمال (روسيا) في ظل سلطة ضعيفة استبدادية.

وكما أشرنا فقد أخذ الخلاف بين الأصوليون والإخباريين دوره في مسألة شكل التعامل مع السلطة. فقد رفض الشيخ أحمد الاحسائي الذي يصنّف في

---

(١) الفقهاء حكام على الملوك، مرجع سابق ص ٦٣ وما بعدها.

الجانب الاخباري الإقامة في طهران عند ما قدم إليها من النجف[1] قائلاً «ما دام جميع الملوك والحكام يفرضون أوامرهم على الرعية بالعسف والقهر فإنني أمام أمرين، إما التدخل في شؤون الدولة وهذا يصرفني عن مسؤولياتي الدينية وأما الكف عن التدخل وهذا يضعف سمعتي لدى الناس».

كان قدوم الشيخ الاحسائي في عهد الملك فتح على الذي تولى السلطة عام ١٨٣٤، ولعلّ قوله هذا يبرز بجلاء جدلية المؤسسة والسلطة، فقد أراد الاخباريون عملياً الحد من تدخل المجتهدين السافر في شؤون الدولة وترك ذلك إلى الحكام، وهذا يخالف في الواقع أسس المذهب الإمامي الذي يدعو إلى ولاية الفقيه، أو على أقل تقدير عدم الفصل بين الدين والسياسة وضرورة تدخل الفقهاء بأمور الحكم ومرافقته مما يضمن عدم ارتكاسهم إلى السلبية الاجتماعية، كما نظّر المتصوفون في أزمان سابقة، عندما أقروا أن وظيفة المؤمن هي مجرد الاتجاه على الله وترك أمور الدنيا لأهلها والساعين إليها أو بمعنى آخر فإنهم لجأوا إلى الاعتكاف والزهد احتجاجاً على ما ينكرون من حكومة ونظام[2].

هكذا وقف المجتهدون بصلابة ضد ما قامت به روسيا من اضطهاد للمسلمين في القفقاس عام ١٨١٣ بعد سيطرتها عليه قبل ذلك بزمن قصير. وكان للمؤسسة أن أصدرت مجموعة من الفتاوى بضرورة الجهاد ضد روسيا. ويذكر على سبيل المثال فتاوى كل من العلماء ميرزا عيسى فراهاني (الميرزا الكبير). . ميرزا أبو

---

(١) المرجع السابق ص ٨٠.

(٢) في كتابه النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية، حسين مروة، ٢/ ١٥٢، دار الفارابي بيروت، ١٩٧٩م: يعتبر أن المتصوفة وعلى رأسهم الحسن البصري كانوا من أنصار الإمام علي ولكنهم اختاروا عدم المشاركة واعترافهم بأنهم على باطل كما قال الحسن معللاً نصيحته للإمام علي بعدم القتال «تلك كلمة باطل حقنت دماً» ويقصد دمه هو لأنه عاش طوال عمره في حماة عذاب الضمير واعتزل الناس. لهذا هاجم البصري معاوية والأمويين أشد الهجوم قائلاً عنهم (كذب أعداء الله). لهذا لا أرجح أية صلة بين التشيع والتصوف كما يحلو للبعض أن يفعل بحجة أن كبار المتصوفة مثل البصري والقرني، أو أن ابراهيم بن أدهم وبشر الحافي وبا يزيد البسطامي تلاميذ جعفر الصادق (كما فعل كامل مصطفى الشيبي في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) أن التشيع تاريخياً حالة نضالية مباشرة وتاريخه المتصل لا يعطي إلا هذا الانطباع.

القاسم كيلاني (القمي) . . وأقا سيد علي طباطبائي أصفهاني (الكربلائي) وأيضاً جعفر كاشف الغطاء النجفي الذي سبق بإصدار هذه الفتوى عام ١٨٠٩[١] .

أدت هذه الفتاوى إلى دفع الحكومة نحو حشد جيش لقتال الروس . . وبسبب اختلال موازين القوى والتقنية والتفاوت الحضاري، هزم جيش المسلمين الإيرانيين وأصبحت المملكة تحت التهديد المباشر للقوات الروسية المسيحية .

وبالنتيجة المنطقية أصبحت المؤسسة تواجه خصمين كبيرين أحدهما عدو أيديولوجي، وأعني المسيحية الروسية وهيمنتها على دار الإسلام، أما العدو المباشر فهو الملك الذي أصبح مسايراً للنفوذ الأجنبي ومتواطئاً مع إملاءاته الأيديولوجية أيضاً (التبشير والإلحاد) ومحاولة اختراق الإسلام بمذاهب مشبوهة كالبهائية والبابية . . كل ذلك أدى إلى تحول المؤسسة إلى قيادة وطنية للشارع الإسلامي في إيران والعراق .

فوق هذا وذاك كان للمؤسسة عدو غير مباشر تحتك به في العراق تحديداً وأعني الحكومة العثمانية التركية . . ومما يجدر ذكره أن تلك الفترة تميزت فيما أضيف إلى عوامل الصراع المستجدة ما يمكن أن نسميه بروز الفكرة القومية في أوروبا وزحفها باتجاه الشرق الإسلامي . . ومعلوم أن الأتراك كانوا يحقدون، أو بالأحرى لا يحبون المجتهدين الشيعة عرباً وفرساً ولا يثقون بهم لأسباب مذهبية، أضيف إليها بعد ذلك النزعة القومية المتسللة من أوروبا المسيحية . وإذا أضفنا عاملاً آخر مستجداً أيضاً هو بدء النفوذ البريطاني، لأدركنا مدى المهام الكبيرة التي اضطلعت المؤسسة الإسلامية الشيعية بمواجهتها في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديداً في زمن الملك ناصر شاه الذي توفي عام ١٨٩٦ .

يذكر في هذا المجال فتوى الشيخ الشيرازي بتحريم التبغ والتنباك عام ١٨٩٢ في مسعى لتحجيم النفوذ الإنكليزي في إيران . . وقد تولى المجتهد الشيرازي المرجعية بعيد وفاة الشيخ مرتضى الأنصاري عام ١٢٨١ هـ ١٨٨٢ م . وبعكس ما

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٤ـ٧٥.

كان عليه السلف من حياد وعدم تدخل ظاهر بالسياسة فإن الشيرازي باشر الهجوم بطريقة تركت بصماته على تاريخ تلك المرحلة. . وأدت الفتوى إلى حركة حادة للشارع في طهران (ضد الشاه) بما في ذلك إغلاق البازار[1]، والحصول أخيراً على وعد من الشاه بإلغاء الامتياز الذي حملته شركة بريطانية. وقد وجه القيصر تهنئة للشيخ الشيرازي على ذلك. يؤثر عن الشيخ حسن الشيرازي قولته الشهيرة التي توصف بطريقة وضاءة جوهر المؤسسة ورجل الدين بعامة في الإسلام «لئن رأيت العلماء يقفون على أبواب الملوك فقل بئس العلماء وبئس الملوك، ولئن رأيت الملوك على أبواب العلماء فقل نعم العلماء الصالحون ونعم الملوك. . إطاعة الله قبل إطاعة الملوك».

المؤسسة من الثورة الدستورية إلى الثورة الإسلامية:

يؤثر عن الفقهاء الشيعة أنهم الطليعيون في المؤسسات الدينية الإسلامية في سعيهم إلى تحديث الدولة الملكية بالدستور. يختلف الباحثون في تعليل الأسباب التي دفعت إلى مطالبة المؤسسة الشيعية الملوك القاجاريين بوضع دستور للدولة. . ينحو بعضهم إلى القول أن ذلك لم يتم بسبب تأثير النهضة الغربية نحو تكوين الملكيات الدستورية أو الجمهوريات، بل أنهم يؤكدون أن الدافع الرئيسي كان مسوقاً بالسعي إلى تحجيم الدور الغربي المتزايد في بلاد المسلمين[2]، وخاصة في عهد الملك ناصر الدين شاه الاستبدادي والممالىء أو المستعين بالنفوذ الأجنبي ضد المعارضة الدينية في إيران.

طالب المجتهدون وخاصة السيد محمد الطباطبائي أحد تلامذة الميرزا محمد حسين شيرازي لتشكيل مجلس شورى شعبي لإقامة العدل في البلاد. وعلى أية حال فقد اغتيل ناصر شاه عام ١٨٩٦ م على يد أحد تلامذة السيد جمال الدين الأفغاني، ولم يكن ابنه الذي خلفه بأحسن حال منه، خاصة أنه وقع تحت سيطرة

(١) المرجع السابق ص ٨٥-٩٨.

(٢) دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار (مرجع سابق) ص١٥.

رئيس وزرائه المعارض لهذا الاتجاه لخوفه من نهاية الدولة القاجارية.

ورغم الخلافات بين العلماء فقد تم تحالف بين كبارهم وهم السيد محمد الطباطبائي والشيخ فضل الله النوري والسيد عبدالله البهبهاني:[١]

تلا ذلك اضطراب شديد في الشارع الإيراني واعتصامات في حرم مسجد شاه عبد العظيم إلى أن استجاب للمطالب عام ١٩٠٦ (١٣ كانون أول)، وبسبب من مخاطبة رئيس الوزراء عادت الاضطرابات والمظاهرات والقتل في الشوارع، بما في ذلك اللجوء إلى السفارة البريطانية والاعتصام بها حتى تتحقق مطالبهم..

يختلف المؤرخون في تعليل أسباب اللجوء إلى سفارة بريطانيا، أو بمعنى آخر الاستعانة بالنفوذ الإنكليزي ولماذا لم يتم اللجوء إلى السفارة العثمانية الإسلامية مثلاً؟!! يعتقد بعضهم أن السفارة البريطانية استغلت لجوء العلماء إلى قم لدفع الجماهير إليها[٢] ويؤكد آخرون أن رسالة السيد بهبهاني إلى السفير البريطاني التي يطالب فيها التوسط لدى الشاه كانت بمثابة فتوى للجماهير للاتجاه نحو السفارة[٣]، مشيراً إلى النشاط الكبير للعملاء الإنكليز في إيران للدفع بهذا الاتجاه. ومهما كانت الأسباب ونظراً لنجاح الفقهاء في الحصول على الدستور بصدور المرسوم الملكي المسمى (فرمان متمم مشروطت)[٤]والذي ينصّ على انتخاب مجلس الشورى الإسلامي، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا لم يدفع الفقهاء باتجاه تكوين جمهورية إسلامية كما فعلوا بعد ذلك بثلاثة وسبعين عاماً «أعلن الدستور في ١٢ أيلول ١٩٠٦ ـ ٢٣ رجب ١٣٢٤ وأعلنت الجمهورية الإسلامية في إيران في ١٢ شباط ١٩٧٩؟؟

غنى عن القول أن الانتخابات التي تلت لم تحقق آمال الإسلاميين بمملكة إسلامية، وظل العلماء في خشية من إعلان الجمهورية بل عارضوا ذلك بسبب

---

(١) طلال مجذوب، إيران من الثورة الدستورية إلى الثورة الإسلامية، دار ابن رشيد بيروت ١٩٨٠ ص١٢٠.
(٢) دور علماء الشيعة، مرجع سابق ص١٨.
(٣) إيران من الثورة الدستورية إلى.. مرجع سابق ص١٩٥.
(٤) دور علماء الشيعة، مرجع سابق ص١٩.

اعتقادهم أن ذلك يؤدي إلى زيادة النفوذ البريطاني في البلاد.

انتهت الدولة القاجارية كما كان متوقعاً وتسلّم الجنرال رضا بهلوي السلطة وأعلن نفسه ملكاً عام ١٩٢٤، ولأنه يعلم تماماً أهمية المؤسسة الدينية في حياة البلاد فقد حاول يائساً رفع يدها عن الأوقاف وتطويق نفوذها.. وقام بإجراءات تحديثية لإدخال البلاد إلى رحاب القرن العشرين المتسم بالتقدم العلمي والتقني الهائل.. ويبدو أن العلماء بسبب عدم ثقتهم به، وبالرغم من محاولاته التصالح معهم والتودد إليهم بما في ذلك منحهم ٥ مقاعد في البرلمان وحقهم في نقض التشريعات إذا كانت تتناقض وروح القرآن الكريم، فإنهم وقفوا ضد كل محاولاته التحديثية، وقتل في سبيل ذلك الكثير[١].

استمر النضال متصلاً في عهد ابنه الشاه محمد رضا بهلوي الذي استلم السلطة بعد أبيه ولكن الصراع كان أشد مرارة.. وكانت الاتهامات الموجهة إليه بالغة الخطورة منها، أن بلاطه أصبح مأوى للبهائيين والماسونيين وأنه أحيى الطقوس الفارسية القديمة واعترف بإسرائيل وآوى إليه أفراداً من قيادة الحركة الصهيونية. في هذا الخضم كان للمؤسسة الدينية أن تتخذ اتجاهاً أكثر جذرية وعملية بظهور الإمام روح الله الخميني[٢].

الإمام الخميني ونظرية الحكم:

ولد الإمام الخميني عام ١٩٠٠ وكان والده من كبار العلماء. تتلمذ على يد آية الله شيرازي درس في مدينة النجف وبعد مجيئه إلى إيران قام بالتدريس في مدينة قم[٣].

(١) استشهد في مجزرة سجن كوهرشاد في مدينة مشهد أربعة آلاف شخص.

(٢) الفقهاء حكام على الملوك، مرجع سابق ص١٣٠.

(٣) قم: أسسها طلحة بن الأحوص الأشعري وكان أهلها شيعة كما نقل عن فتوح البلدان للبلاذري.. أتت إليها السيدة فاطمة (سميت المعصومة) لزيارة أخيها الإمام الرضا في مدينة مشهد وتوفيت في قم وأقيم عليها ضريح كبير له إدارة وأوقاف.. وأصبح في المدينة نقيب للأشراف، وظل العهد البهلوي يحاول إضعاف نفوذ المؤسسة الدينية فيها.

استعادت هذه المدينة دورها عندما عاد إليها السيد عبد الكريم حائري يزدي عام ١٩٢٠ عندما اندلعت ثورة العراق ضد الانكليز. وبرز بعد تلك الفترة عدد كبير من العلماء المشاهير منهم السيد البروجردي: والسيد الكلبايكاني، والسيد الخنساري ومرعشي وشريعتمداري والسيد صدر الدين صدر، وكلهم أصبحوا من كبار المجتهدين عام ١٩٣٥.

تزوج الإمام الخميني ١٩٢٧، وكان يلقى بعض دروسه في المدرسة الفيضية في قم وبدأ معارضته للشاه بشكل سافر وشرس، ومما يذكر أن تلك المعارضة بلغت ذروتها عام ١٩٦٣ ضد النفوذ الأمريكي والإسرائيلي في إيران. اعتقل ثم نفي من إيران عام ١٩٦٤ حتى وصل إلى مدينة النجف التي بقي فيها ١٣ عاماً. . اغتيل ابنه مصطفى في العراق ١٩٧٨ م، وتوفي ابنه الثاني أحمد بالسكتة الدماغية في إيران ١٩٩٥.

شملت الثورة كل إيران احتجاجاً على اعتقاله ونفيه حتى عاد إلى البلاد منتصراً ليؤسس الجمهورية الإسلامية ١٩٧٩.

يقول الإمام الراحل بولاية الفقيه. أما في زمن الغيبة الكبرى فلا بد من وجود نظام يجب أن يكون عادلاً ـ سلاطين هذا الزمان ليسوا ولاة الأمر ولكن هذا لا يمنع من دعم النظام لأن وجود نظام خير من اللانظام (مستنداً إلى فتاوى الأئمة الطوسي والمجلسي والميرداماد)، ولا بأس من التعاون مع الحكومة إذا دعت الحاجة.

ويهاجم الإمام حكومة الشاه بأنها بعيدة عن العدالة بسبب وجود مستشاريين كفاراً ومشبوهين[1].

أيد الإمام الخميني في آرائه السيد شريعتمداري بتعديل بسيط وهو ضرورة العمل على قيام الحكومة الصالحة (لم يقل حكومة إسلامية دينية) والحل الوسط في

---

(١) الفقهاء حكام على الملوك، مرجع سابق، ص ١٣٦ ـ ١٣٩.

زمن الغيبة الكبرى هو قيام جمهورية إسلامية مقترنة بالاقتراع الحر والبرلمان الذي يراقب أعمال السلطة التنفيذية.

ربما كان اجتماع قم عام ١٩٦٤ من أبرز الأنشطة التي قامت بها المؤسسة هادفة إلى تحديد شكل نظام المستقبل على ضوء الإسلام خاصة بعد وفاة الشيخ البروجردي وقد تم اصدار قرارات على شكل (مباحث في المرجعية الروحانية) ولعلّ أهم ما فيها: النص على أن يكون المجتهد على اتصال مباشر ومستمر بمشكلات الحياة المعاصرة وأن ينصرف إلى دراستها على مستوى التخصيص، كما يقرر السيد عبد الكريم يزدي.

وكان الاهتمام من جانب آخر منصباً على مسألة الحديث النبوي، فقد أقرّ المجتمعون ضرورة التحقق من صحة الأحاديث.. وإبراز وتثمين دور العلاّمة الحر العاملي في كتابه (وسائل الشيعة) كمرجع في هذا المجال[1].

يمكن القول أن المؤسسة سعت للمرة الأولى إلى خلق التنظيم الثوري السري للإطاحة بالنظام القائم[2].. وكان لتأثير الإمام الخميني وجاذبيته دور كبير في استقطابه معظم المرجعيات في المؤسسة الدينية، وتمت مرحلة العمل، بدءاً من وعاظ وخطباء الجمعة، ومراقبة السلطة وملاحقتها وكشفها وصولاً إلى شن الحرب على عملائها وعلى رأسهم البهائيين الذين دعم بروزهم الاستعمار البريطاني. وهكذا تم تدمير محفلهم في أيار ١٩٦٥ وملاحقتهم وإعدام قادتهم.. حتى هذه الأيام.

نظرة في مؤسسة النجف:

تمكنت المؤسسة الإسلامية الشيعية من الاستمرار موحدة رغم كل العقبات،

(١) المرجع السابق ص ١٣٩ ـ ١٧٣.

(٢) اتصلت الثورة الإسلامية في إيران بالثورة الفلسطينية أبان تواجدها في بيروت، وكان كثير من كوادرها يتدربون في قواعدها في لبنان. وقد عين الشيخ منتظري كضابط ارتباط بين الثورتين (راجع الفقهاء حكام على الملوك).

لكن مؤسسة النجف في مطلع القرن تميزت بمهمات مختلفة جاء على رأسها النضال ضد الاستعمار البريطاني وقيادة أكبر ثورة في تاريخ العراق الحديث وهي ثورة ١٩٢٠ التي اندلعت بدءاً من جنوب العراق.

قبيل الغزو البريطاني للعراق في الحرب العالمية الأولى وإنهاء الوجود العثماني فيه، صب علماء النجف جهودهم للدفاع عن إيران ضد الغزو الروسي، فقد أصدر السيد كاظم اليزدي المرجع الأكبر في النجف عام ١٩١١ فتوى بالجهاد الشامل ضد الهجمة الأوروبية على دار الإسلام مما جاء فيها[١]. «اليوم هجمت الدول الأوروبية على الممالك الإسلامية من كل جهة فمن جهة هجمت إيطاليا على طرابلس الغرب، ومن جهة أخرى روسيا بتوسط عساكرها احتلت شمال إيران، وبريطانيا تدخلت في جنوبها وهذا موجب لاضمحلال الإسلام فلهذا يجب على عموم المسلمين من عرب وعجم أن يهيئوا أنفسهم لدفع الكفر عن الممالك الإسلامية(. . .) حتى تبقى المملكتان العثمانية والإيرانية مصونتين محفوظتين. .» فلم تكن المؤسسة الشيعية تفرق بين قطر وآخر رغم عداء الدولة العثمانية الشديد لها، فقد قتل مراد الرابع على سبيل المثال خمسين ألف شيعي عند احتلاله للعراق عام ١٦٣٨ م. وغني عن القول أن المؤسسة بكاملها عملت على استنفار مسلمي العراق وتهيئتهم للتصدي وتجهيز المال والسلاح في سبيل ذلك.

وكان نشوب الحرب العالمية الأولى دافعاً جديداً لاستمرار التعبئة في صفوف المؤسسة في العراق، فقد تم احتلال الفاو عام ١٩١٤، ١٤ تشرين الثاني. وكانت المفاجأة الكبيرة للحكومة العثمانية أن يبادر علماء النجف إلى إصدار الفتاوى بالجهاد ضد الإنكليز[٢].

ورغم الاضطراب في المصادر فليس من شك في أن المسلمين العراقيين قاتلوا القوات الإنكليزية في معارك متواصلة انتهت أخيراً إلى الهزيمة. وتحاول

---

(١) دور علماء الشيعة مرجع سابق ص٦٣.

(٢) دور علماء الشيعة مرجع سابق ص٨١-١٠٩.

المصادر التركية اتهام العرب بالخيانة وخذلان الجيش العثماني التركي في قتاله، ولكن لم يثبت ذلك في أي مصدر محايد علماً أن الثورة العربية بقيادة الشريف حسين لم تكن قد أعلنت بعد. . وقد اتهم السيد كاظم اليزدي بالتراخي في الحشد بحيث أصبحت التهم تمثل نقطة حساسة في التاريخ المعاصر للعراق[١]. ويحاول بعض المؤرخين التشكيك بهذا الحكم حول السيد اليزدي مقارنين ذلك بذات الشكوك التي أثيرت حول السيد جمال الدين الأفغاني. هذه الشكوك أثيرت أيضاً حول دور السيد اليزدي في ثورة النجف عام ١٩١٨. وفي تصوري أن تلك الشكوك تحيط دائماً بالمرجع الأول في الظروف المصيرية. . تماماً كما قيل عن السيد الخوئي في انتفاضة جنوب العراق الأخيرة بعيد حرب الخليج الثانية، تماماً كما أثير حوله من تقولات بعيد انتفاضة الجنوب في صفر ١٩٧٦. لقد تداخلت أمور كثيرة ومعقدة في مسألة التصدي للاستعمار البريطاني في هجومه على العراق، فليس من شك في أن قسماً من المؤسسة الشيعية كان يرغب في التخلص من الأتراك الذين اضطهدوا الشيعة بوسائل أثبتها التاريخ. وعندما حدثت ثورة النجف على الأتراك عام ١٩١٥ أبان الحرب، وتمكن أهل النجف من تحرير مدينتهم وحكمها، كان المرجع الأول يقف ومعه العلماء إزاء معادلة بالغة الحساسية، فاحتفظوا بموقفهم من الاستعمار البريطاني ولكنهم ثمّنوا أيضاً طرد الأتراك من النجف[٢].

ليس من شك في أن الحكومة العثمانية لم تحسن التعامل مع العرب المسلمين وهي تواجه الإنكليز. . ويأتي ذلك مصداقاً للفوضى والعنصرية وسيطرة العناصر الصهيونية على رأس السلطة في اسطنبول. . لهذا لا يمكن الحكم أبداً بأن العرب خانوا دينهم عندما خذلوا الأتراك. . فقد خسر الأتراك معركتهم في الجنوب الإسلامي منذ زمن بعيد وعليهم وحدهم تقع المسؤولية. . لقد كانوا السبب الرئيسي في التخلف الذي أدى إلى وقوع المسلمين العرب فريسة سهلة بيد الصليبية الغربية الجديدة.

---

(١) المرجع السابق ص ١١٤ ـ ١١٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥.

وقد أصبح معروفاً بعد ذلك دور المؤسسة في ثورة العشرين خاصة بعد تولي الميرزا محمد تقي الشيرازي المرجعية الكبرى عام ١٩١٩[١]. ومما يذكر في هذا المجال دور جمعية النهضة الإسلامية التي عكست أسلوب علماء الشيعة في التفكير السياسي بمداه الواسع[٢]. فقد كانت الجمعية تفكر بالوحدة الإسلامية الشاملة والاستقلال وقد أسسها السيدان أحمد علي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الجزائري. . وقد ساهمت هذه الجمعية بأكبر نشاط ثوري ضد الاستعمار البريطاني للعراق، ولكنها تعرضت لضربة قاسية أنهت دورها الذي لم يستمر طويلاً.

ولعل دور هذه الجمعية يشابه دور حزب الدعوة الإسلامي الذي تأسس بعد ذلك بزمن طويل وكان للسيد محمد باقر الصدر رحمه الله الدور الأكبر في تأسيسه، هذا الحزب الذي ضم في صفوفه ولدي السيد محسن الحكيم، محمد باقر، ومهدي الذي اغتالته المخابرات العراقية في الخرطوم.

السيد محمد باقر الصدر:

تنبع أهمية هذا المرجع الديني البارز وخطورته على السلطة الاستبدادية في العراق من كونه مشروعاً متكاملاً إسلامياً وليس مجرد مرجع مثقف إسلامي وحسب.

تداولت الجماعات الإسلامية كتبه منذ الستينات برنامجاً ثقافياً في حياتها الحزبية الداخلية. . فقد وضع في بداية النهضة العربية الحديثة وخاصة القومية منها مجموعة من الدراسات التي تحدد إطار دولة إسلامية متكاملة. كتب في الاقتصاد الإسلامي والفلسفة الإسلامية ووضع دستوراً لدولة إسلامية وقواعد لبنك إسلامي. . بل إنه صار أباً روحياً لحزب إسلامي كبير. . رغم انسحابه منه بطلب من

---

(١) برز في هذه الثورة دور السيد محسن الحكيم الذي أصبح فيما بعد المرجع الأكبر في النجف، وقد ترك السيد الحكيم بصمات ناصعة في تاريخ العراق الحديث. ولم يملأ مكانه في النجف أحد حتى الآن لما تمتع به من كفاءات دينية وسياسية وإدارية.

(٢) دور علماء الشيعة، مرجع سابق، ص١٤٣.

السيد محسن الحكيم[1] المرجع الأكبر في العراق حتى عام ١٩٧٢. كان السيد الصدر للجميع رغم كونه شيعياً بارزاً يقترب من المرجعية في زمن المرجعيين الكبار أمثال الخوئي والخميني وغيرهما.

ومع ذلك فقد رفض أن يغادر العراق وصار رمزاً لمؤسستها الدينية الناهضة. لكل هذه الأسباب ولأنه كان مشروعاً ربما يكتمل ويشكل الخطورة الأكبر التي توقعها النظام ومن وراءه فكان لا بد أن يتم اغتياله وهذا ما حدث عام ١٩٨٠ في نيسان حيث أعدم في سجن بغداد وشقيقته بنت الهدى.

قام الشهيد بدور بارز في التنسيق بين المرجعيات إن في العراق أو خارجه. ورغم ما كان يبدو من سلبية المرجع الأكبر السيد الخوئي فإنه ظل يتعاون معه بشكل سري، خاصة تجاه حملات التسفير التي طالت بشكل رئيسي طلبة العلوم الدينية في النجف من حملة الجنسيات الأجنبية بهدف الضغط على مرجعيتها بعد رحيل السيد الحكيم والتي استمرت من ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥. قاوم السيد الصدر سلبية المرجعية العليا، إلاّ أنه اتفق مع السيد الخوئي على إصدار فتوى أو حكم فقهي يحرم بمقتضاه سفر الطلبة خارج العراق، بما يعني ذلك (أي السفر) من تفريغ النجف من هيمنتها الدينية في العالم الشيعي[2].

لقد أحيا الشهيد أول تنسيق بين مرجعيات النجف بغية تحقيق الأهداف المشتركة. وفي سبيل ذلك تعرّض لحملة من الاتهامات والتشكيك من قبل عناصر من المؤسسة الدينية في النجف. فهو يؤمن بعدم فصل الدين عن السياسة وبولاية الفقيه، وهذا يعني نشاطاً علمياً وسياسياً متزايداً، كان له أن يثير غضب السلطات الحاكمة فتعمل على اعتقاله مرتين وحصاره في منزله بعد فرض الإقامة الجبرية عليه

(١) السيد محمد الحسيني: الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، دراسة في سيرته ومنهجه، دار الفرات، بيروت ١٩٨٩ ص٢٧٨، ويقول المؤلف: إن حزب الدعوة الإسلامية أسسه السيد الصدر على أساس الأصول الفقهية وعلى أصل ولاية الفقيه على خط الإمام جعفر الصادق(ع)، كان حزباً سرياً، صدر قرار [illegible] بإعدام من ينتسب إليه، تأسس عام ١٩٥٧.

(٢) الامام الشهيد محمد باقر الصدر، مرجع سابق، ص٣١٠ ـ ٣١١ ـ ٣٢٦.

حتى اعتقاله الأخير في ٨ نيسان ١٩٨٠ حيث نفذ فيه حكم الاعدام فوراً دون محاكمة[١] مع أخته بنت الهدى (رحمهما الله)[٢].

ومما يجدر ذكره أن الإمام الخميني أرسل له رسالة يطلب منه فيها عدم مغادرة العراق موجهة من إذاعة طهران عام ١٩٧٩ في الشهر الخامس، وقد قام الشهيد بالرد عليها مهنئاً بقيام الثورة الإسلامية في إيران. ويبدو أن تلك الرسائل جعلت موقف السيد الصدر أشد حراجة أمام السلطات[٣].

كان رحيله فاجعاً لدى العالم الإسلامي بكامله. ولدى المسلمين الشيعة وصل إلى درجة الفجيعة كما رحيل الحسين رضي الله عنه قبل ذلك بألف وأربعمائة من السنين[٤].

المرجعية الشيعية المعاصرة:

بعيد الرحيل المتوالي لكل من الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية في إيران والإمام أبو القاسم الخوئي المرجع الأكبر في النجف الأشرف، تولى السيد علي خامنئي مرشداً للثورة في إيران مالئاً أي فراغ يمكن أن يثير اضطراباً في الجمهورية الإسلامية بينما بقي النجف يعاني من هذا الفراغ الكبير وقد هجر كبار المراجع والمجتهدين خارج وطنهم بسبب اضطهاد النظام وانتفاضات النجف والجنوب العراقي المتوالية.

بهذا أصبح مركز الثقل للمؤسسة الشيعية مستقراً في إيران الإسلامية. لقد كان الإمام الخميني ولياً فقيهاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فهو قائد الدولة وملهم الثورة الإسلامية المعاصرة في كل أرجاء العالم وليس لدى الشيعة فحسب. في ظروف كهذه ثار جدل صحفي حول المرجعية الشيعية، وساهم كتاب في إبداء

(١) الامام الشهيد محمد باقر الصدر، مرجع سابق، ص٣١٠.
(٢) نفس المرجع السابق، ص٣١١.
(٣) نفس المرجع السابق، ص٣٢٦.
(٤) زهير غزاوي، الامام الصدر نجم متألق في سماء الكلمة، جريدة تشرين، دمشق ١٣/ ٥/ ١٩٨٠.

أفكار، وكان ذلك نابعاً من أهمية دور المؤسسة الشيعية الثورى في مناطق متعددة في العالم بما في ذلك تصدي الجمهورية الإسلامية في إيران للامبريالية الأمريكية منذ نشوئها عام ١٩٧٩.

يعتبر بعضهم على سبيل المثال أن هناك تنافساً يجري بين المرجعيات وخاصة بعد رحيل عدد كبير منهم: السيد الخوئي والسبزواري في العراق والسيد كلبايكاني والسيد أراكي. وفي رأيهم «تنبع أهمية المرجعية في مسؤوليتها على البت في الأمور المستحدثة والقرارات المصيرية التي تمس وجود الأمة وسيادتها. وما يجري من الاجتهادات حول المرجعية لا يمكن أن يوصف بأنه صراع قوي، وإذا وجد فهو ليس داخل الحوزات الشيعية بل أن الضجيج المسموع آت من خارجها.

ويبدو أن السيد محمد حسين فضل الله لا يبتعد كثيراً عن هذا الرأي بأن على المرجعية الدينية أن تتولى انطلاقة جديدة تتجاوز الإطر التي وضعت نفسها فيها أو التي فرضت عليها.. وأن تمارس دوراً إيجابياً في كل نواحي الحياة على طريقة الإمام الخميني[1].

«فالعالم الإسلامي يسبق المرجعية بالتطور.. فالمرجع عادة يستجيب لنداء الواعين من الأمة فيصدر عنه موقف مؤيد.. لقد كانت الحوزة العلمية في النجف الأشرف والتي تمثل مركز المرجعية الشيعية في العالم الإسلامي حتى الخمسينات يرفض جوها العام مجرد التفكير في الشؤون السياسية»[2].

إن محتوى هذه الأقوال تبدي توجهاً إيجابياً نحو دور جديد للمؤسسة الشيعية بعامة تتولى فيه الهجوم وليس وقوفها في ميزانها مدافعة عن مواقعها باتخاذها مواقف سلبية. وباعتقادي في ضوء ما أوردناه عن هذه المؤسسة فإنها لم تكن سلبية إلا في فترات محدودة.. وقدمت سواقي من الدماء، قديماً وحديثاً، ولكن ما يبدو واضحاً

---

(١) سليم الحسني: المعالم الجديدة للمرجعية الشيعية، دراسة وحوار مع السيد محمد حسين فضل الله دار الملاك، بيروت ١٩٩٣ ص٤٠.

(٢) المرجع السابق ص٥٠.

أن تحسس المراجع بعنف الهجمة الجديدة للامبريالية والأنظمة الموالية لها على القوى الإسلامية (والشيعة في رأس داعميها) والمشاركين فيها، فإن الهجوم هو أفضل وسائل الدفاع.

يتطلب الأمر إذن توفر شروط جديدة في المراجع بما في ذلك القبول باتحادهم وتشاورهم بما يخلق مؤسسة يصعب اختراقها، مع إطلالتهم الشاملة على كافة جوانب الحياة المعاصرة ومتابعة المستجدات والمرونة تجاهها وتشجيع الشباب مع الحفاظ على جوهر المذهب الإمامي في مسألة تعدد المرجعيات والتقليد، ومتابعة الاجتهاد المنفتح على الحياة وتطورات السياسة العالمية. ولعلّ أهم ما يميز هذه المؤسسة باستمرار «ثباتها في القضايا الأساسية في مواجهة أية عناصر ضاغطة من أية جهة كانت.. وأنها كانت في أعلى مستوى من التقوى والفقه والوعي الاجتماعي»[1].

المؤسسة الوهابية ـ السعودية:

مدخــــــل:

تنبع أهمية دراسة هذه المؤسسة من أهمية الموقع الذي تحتله المملكة العربية السعودية في العصر الحديث، استطراداً إلى كبر المهام المنوطة بهامن قبل الإمبريالية الأمريكية في ظل النظام العالمي ومخططاته المعلنة للسيطرة على العالم الإسلامي. فهي تمتلك حوالي ثلث موارد البترول المكتشفة في بلدان العالم، وقد غدت أكبر منتج للبترول بعد روسيا وأول مصدر له في العالم، وصارت أكبر مصدر للرأسمال السائل، وأمراؤها من أغنى أغنياء العالم[2]. زيادة على ذلك فقد تولت المملكة العديد من المهام نيابة عن الولايات المتحدة الأمريكية خاصة في أفغانستان في مواجهة الاتحاد السوفيتي السابق، وأنفقت في سبيل ذلك مليارات الدولارات، وكانت النتيجة النهائية دمار ذاك البلد المسلم.

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٠، آراء السيد محمد حسين فضل الله.

(٢) فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، دار التقدم، موسكو، ترجمة خيري الضامن ١٩٨٦، ص٣.

موّلت السعودية الحرب المعلنة من قبل النظام العراقي على جمهورية إيران الإسلامية بأوامر مباشرة من أمريكا ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨. كان لها دور سلبي في القضية الفلسطينية سجلته العديد من الدراسات، وبالخصوص رفضها التدخل لدى الولايات المتحدة في مسألة التصويت على قرار التقسيم عام ١٩٤٧[١]، ورفضها استخدام النفط كسلاح للحد من تأييد السلطة الأمريكية لليهود في الأمم المتحدة.

وهي تؤثر بشكل مباشر على ميزان المدفوعات الأمريكي وعلى سعر الدولار في البورصات العالمية وعلى سير النزاع العربي الصهيوني وعلى استقرار الأنظمة في بعض الدول النامية كالباكستان على سبيل المثال. وفوق هذا وذاك فإن فيها قبلة المسلمين في مكة ومرقد رسول الله(ص) في المدينة المنورة (يثرب) مما يجعلها مركز استقطاب المسلمين في جميع أنحاء المعمورة.

جعلت من أرضها مركزاً لأكبر حشد مسيحي في التاريخ ضد بلد مسلم مجاور هو العراق (بصرف النظر عن طغيان النظام هناك) وبحيث يبدو من مظهر تطور الأحداث أن الهدف النهائي للسعودية وحلفائها شعب العراق المسلم وليس النظام الحاكم فيها. وكانت الحرب المعلنة عام ١٩٩١ كانون أول ١٧ منعطفاً حاداً في القرن العشرين أدى إلى بروز ما سمي بالنظام العالمي الجديد، (وحيد القطب) ما مهد للخطوة التالية في التسوية الشرق أوسطية وتثبيت دعائم الكيان الصهيوني المهتزة.

وأخيراً جاءت فتوى المؤسسة الدينية فيها، من قبل الشيخ ابن باز خاتمة المطاف بإيجاد تغطية دينية إسلامية للاستسلام الجاري من قبل الأنظمة الإسلامية أمام الامبريالية الصليبية ـ الصهيونية الجديدة.

١ ـ محمد بن عبد الوهاب:

لم يكن هذا الداعية الإسلامي عملياً بمستوى الشهرة الكبيرة التي نالها في

(١) راجع موسى العلمي، عبرة فلسطين، بيروت ١٩٤٩، ص ٥٤.

حياته المديدة. هناك في أعماق نجد وتحديداً في القرية التي ولد فيها وتلقى العلم على والده الشيخ عبد الوهاب، لا يمكن أن نتصور وجود مصادر متقدمة تتيح له أن ينهل منها بما يجعل منه عالماً بارزاً في الدين.

ولد في العيينة عام ١٧٠٣ م ١١١٥ هـ في ظروف بالغة التخلف اتسمت بها المنطقة والظروف المحيطة. وحتى لا يظن أن التخلف متعلق بالدين الإسلامي فلا بد من الإشارة إلى الوضع القبلي والاقتصادي والحضاري الذي يسم الواقع في تلك المنطقة القابعة في عمق الصحراء العربية. ورغم كل الجهود التي بذلت وتبذل في سبيل تحضير المجتمع البدوي في الجزيرة العربية فلا يمكننا الجزم بأن كبير تقدم قد أحرز، ولا زالت الجزيرة العربية فيما يسمى بالمملكة العربية السعودية الآن، من أكثر المناطق تخلفاً في العالم. . وهذا الوضع لا علاقة له أصلاً بالدين الإسلامي.

على أية حال فإن الثقافة الدينية تتأثر ـ خصوصاً في مجال التربية والتعليم ـ بالوضع الاجتماعي السائد، ومع كل ما يقال عن عادات سادت حول قتل رجال الدين كما فعل أهم القصيم مثلاً[١]، أو ما أورده ابن غنام في كتابه «روضة الأفكار والأفهام»[٢] عن تقاليد الاعتقاد الاجتماعي بقدسية الأحجار والأشجار، وعن التفسخ السياسي والشرذمة الواقعة بين الحكام والأمراء، نجد أن المؤرخ الرسمي يعمد إلى استثناء الحاكم السعودي حاكم الدرعية من هذه الصفات ويصفه بناشر التعليم ومثبت الأمن والنظام والاستقرار، في حين يهاجم كلّ الآخرين.

وفي الواقع لا يمكننا نفي التحيز عن مؤرخي تلك المرحلة، ويظل ما كتب عن تطور حياة محمد بن عبد الوهاب عرضة للتمحيص وأعمال العقل. فقد تزوج الداعية وعمره اثنا عشر سنة وتلقى عن أبيه من العلم ما أهله لكي يناظر ويحاجج علماء المدينة المنورة وعلماء قريته التي يعتقد أنها لا تعدو مكاناً لا يمتلك كبير اختلاف عن القرى المجاورة من ناحية التقدم العلمي، مما يثير التساؤل حول

---

(١) أحمد عبد الغفور عطار، محمد بن عبد الوهاب ط٢، ١٩٥٦، القاهرة، دون دار نشر ص٢٠ ـ ٢٧.

(٢) حسين بن غنام «روضة الأفكار والأفهام لمرقاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام» القاهرة ١٩٦١.

مقدرته على القيام بهذا الدور العلمي في تلك المرحلة المبكرة.

في رحلته إلى مدينة الرسول تلقى العلم عن الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف[1]، وكان موضع حفاوة من علمائها وعمره عشرون عاماً ـ وهذا بحد ذاته مما يشك فيه ـ حتى حاز على إجازة التدريس على المذهب الحنبلي في الكتب التي تعلم منها.

وإذا نظرنا إلى ما كتبه طرف غير محايد أيضاً هو البريطاني فيلبي[2]، نرى أن الصورة الدينية للمجتمع القبلي في نجد والحجاز لم تكن بتلك القتامة «كانت مراعاة أحكام الإسلام صفة لجميع أولئك الذين يحترمون أنفسهم في كافة نجد وقراها، إلا أنهم كانوا يشفقون على الجهلة ويعطفون عليهم بدلاً من تسفيههم، وكان علية القوم يترخصون (يتساهلون) في تطبيق الشعائر الإسلامية المفروضة بالنسبة للعلاقات الجنسية ويهملونها أو يتجاهلونها أما معتقداتهم الخرافية في تأثير السحر والنذور والأضاحي وقوة الأشجار والصخور وشفاعة بعض القبور وأثرها في الرغبات البشرية فكانت تدليلاً كاذباً على مدى جهل السامريين من الناس وكان في إمكان الفريسيين أن يزدروهم أو يتجاهلوهم بسبب ما كان هؤلاء يرتعون فيه من رفاهية العيش وفّرهاً لهم مركزهم الرفيع . . ولكن بن عبد الوهاب لم يكن يعتقد هذا . .».

هل تختلف تلك الصورة المرسومة كثيراً عن الواقع الإسلامي اليوم وخاصة في الجزيرة العربية بعد ثلاثة قرون من ولادة محمد عبد الوهاب؟.

إن المراقب المتفحص لا يرى كبير اختلاف . . فلا زال العوام (السامريون) والطبقة الغنية المسيطرة (الفريسيون) كما كانوا قبل ذلك مع اختلافات طفيفة طبعاً بحكم تطور الزمن، ولا زالت النزعة الإنسانية للقداسة أو الاعتقاد بالغامض والخوف منه أمران متأصلان في الذات الإنسانية الإسلامية وغير الإسلامية، تقديس

---

(١) محمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) سانت جون فيلبي، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب السلفية، ترجمة عمر الديراوي، الأهلية للنشر، بيروت، بلا تاريخ ص٣٣.

الراحلين الصالحين والخوف من السحرة والكوارث ومحاولة اتقائها بالنذور . . . شاهد ابن عبد الوهاب في مكة والمدينة ما أثار حفيظته مما اعتبره مساساً بالإسلام في جذوره الأصيلة مما نقل عن السلف الصالح، وقد أثاره بالخصوص استغاثة المسلمين بالرسول(ص) والصحابة بمعنى اعتبارهم أحياء في مراقدهم وهذا بحد ذاته يمس عقيدة التوحيد كما اعتقد الشيخ. لكل هذا غادر الجزيرة كلها متجهاً إلى البصرة.

يلف غموض كبير تلك المرحلة التي غادر فيها الجزيرة متجهاً نحو الشمال، ويؤكد كثير من المؤرخين أنه تجول في أقطار كثيرة كالهند وإيران وزار دمشق والقاهرة[1] لم يعرف بالضبط متى غادر إلى البصرة ولا تاريخ عودته الدقيق إلى بلاده، ولكن شكوكاً كبيرة أحاطت بتلك المرحلة خاصة اتصالاته بعملاء من المخابرات البريطانية الناشطة جداً لفرص نفوذها على المنطقة الممتدة من الهند نحو إيران والعراق وصولاً إلى الجزيرة العربية[2]. في البصرة تتلمذ على الشيخ (محمد الجموعي)، ثم طرد من البصرة بسبب انتقاداته الشرسة لتصرفات المسلمين هناك ووصمهم بالكفر والخروج عن الإسلام[3].

عاد إلى الإحساء ثم حريملاء حيث كان يعيش والده إلى أن توفي الوالد عام ١١٥٣ هـ ١٧٤٢ م فذهب إلى العيينة مسقط رأسه ونال حظوة لدى أميرها عثمان بن معمر الذي زوّجه أخته جوهرة (الزوجة الثانية)، وكان سبب الحظوة هو اعتقاد الحاكم بأفكار محمد عبد الوهاب في البدع وتنقية الإسلام. وقد ساعد هذا الحاكم على إزالة ضريح أحد أحفاد عمر بن الخطاب وكان الناس يتبركون به وكذلك قطعت شجره لها نفس القداسة، مما استفز مشاعر مسلمي البلاد المجاورة وقد انتشر صيته بينهم، وتعرض بن معمر إلى ضغط شديد أدّى إلى الإيعاز بإعدام الشيخ ولكن خارج المدينة، ولكن هذا الإعدام لم ينفذ لأسباب ظلت غامضة، ويعزوها بعضهم

(١) محمد كامل ضاهر، الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث، ١٩٩٣ دار السلام ص٣٤.
(٢) محمد عوض الخطيب: صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، دار المعراج ١٩٩٥ ص٦١.
(٣) محمد بن عبد الوهاب، المرجع السابق ص٤٠ ـ ٦٤.

إلى عدم رغبة الأمير بذلك مكتفياً بإبعاده[١].

وأخيراً وصل إلى الدرعية التي كان يحكمها محمد بن سعود وكانت شهرته قد سبقته إليها وتوسطت له زوجة الأمير فمنحه الحرية المطلقة في الدعوة هناك. وهنا لا بد من نظرة متأنية إلى المسألة برمتها ـ ذلك أن الغموض يحيط بالأسباب التي جعلت الأمير يثق بهذا الداعية ـ فإن ما يرشح من النصوص وما تطرحه الأحداث التالية من أسئلة تجعلنا نرجح أن الطموحات السياسية الواسعة للأمير في الامتداد نحو الحجاز وتوحيد نجد، مع ما تلقاه من إشارات عن دعم بريطاني واسع في مرحلة اضطراب العلاقات العثمانية البريطانية، ومع ما تردد عن تسرب عدد من العملاء البريطانيين الذي تظاهروا باعتناق الإسلام نحو المنطقة برفقة الشيخ عبد الوهاب[٢]، إضافة إلى بعد النظر الذي تمتع به مؤسس الدولة السعودية الأولى، وخاصة فيما يتعلق بأن أية حركة توسعية لا بد لها من غطاء ديني تحت اسم الجهاد لإرساء قواعد الإسلام الصحيح، كل هذا جعل من التحالف الوثيق بين الشيخ والأمير سمة مرحلة من الانتصارات امتدت ثلاثة قرون من الزمن، أدت في النهاية إلى بروز المملكة العربية السعودية بشكلها الحالي.

والغريب في الأمر أن الاتفاق بين الطرفين شمل نصاً لبيعة تقول «نبايع على دين الله ورسوله وعداء أهل الباطل كما نبايع على عداء كل من عادى الشيخ وموالاة من والاه..»[٣].

---

(١) يروى مؤرخو الوهابية وخاصة بن غنام بعضاً من معجزاته عندما تعرض للموت أثناء خروجه من البصرة، فقد تعرض للموت عطشاً ولكنه استغاث بالله وحده فأرسل له من أنقذه من الموت، وعندما قرر حاكم العيينة قتله بسبب ضغوط الأمراء المحاورين ويقول «وبينما هو في منتصف الطريق شعر الفارس (الموكل بقتله) برعدة تتمشى في كل جسده وكاد يسقط عن صهوة جواده لكنه تجلد وتظاهر بالقوة حتى إذا وصل إلى قبر يعقوب قبض على حسامه ولكنه لم يتمكن من إخراجه من غمده إلا بصعوبة ثم هم بقتله غير أن يده لم تتحرك وفقدت قوتها وسقط منها الحسام وقذف الله في قلبه الرعب فلوى عنان جواده بعد أن أرجع السيف إلى غمده وقفل راجعاً، ص٥٩ من كتاب محمد عبد الوهاب (مرجع سابق).

(٢) صفحات من تاريخ الجزيرة العربية، ص٦٢ ـ ٦٤.

(٣) محمد بن عبد الوهاب مرجع سابق، ص ٦٠ ـ ٧٠.

توطد التحالف مع محمد بن سعود عام ١٧٤٥ م واشترط الأمير شرطين اثنين قبلهما الشيخ: أولهما أن لا يتركه مطلقاً، وثانيهما أن يسمح له بجباية الضرائب، بمعنى أن تكون للجباية تغطية دينية، ولكن عبد الوهاب رفض الثانية موضحاً أن الفتوحات القادمة سوف تعوّض الأمير بغنائمها الواسعة عن أيّة ضرائب وأنها سوف تجعل السكان يلتفون حوله، فبدل عن الأخذ منهم فإنه سوف يعطيهم الكثير. . وتعاهد الاثنان على الإخلاص للدعوة، ثم تعاهدا على موضوع أكبر أهمية وهو، القتال في سبيل نشرها. . وهكذا أصبح الشيخ والأمير شخصية واحدة[١] واتحدت بالنتيجة المؤسسة الدينية والسلطة السعودية حتى اليوم.

القتال لنشر الدعوة:

لقد عاش الشيخ محمد عبد الوهاب حتى أتيح له أن يشهد سقوط مدينة الرياض بيد آل سعود عام ١١٨٧ هـ. . ومما يجدر ذكره أنه عاش ٩٢ عاماً وتوفي عام ١٢٠٦ هـ. وفي خلال ذلك جرى سفك الكثير من الدماء باسم وتحت شعار تصحيح وتجديد الإسلام، أو ربما من أجل مقولة إعادة الإسلام إلى أصوله التي كان عليها السلف الصالح (الرسول وأصحابه). ويتساءل دارسوا تلك المرحلة عن مشروعية المبررات التي سفكت تلك الدماء من أجلها، وعن أهمية النتائج التي تم التوصل إليها، بما في ذلك الإشارة إلى إيجابيات تأسيس نظام قوي موحد لكامل الجزيرة العربية. . وهنا تجدر الإشارة إلى أن غالبيتهم تؤكد أن الإسلام كأيديولوجيا لم يكن له علاقة بكل ما جرى بل على العكس فإن ما جرى أساء لهذا الدين ولم يقدم له على صعيد التجديد أيّة إضافة تذكر، أمّا النظام القائم فهو أشهر من أن يعلّق على صلاحه وإسلاميته. كتب المؤرخون كثيراً عن مجريات القتال، مما لا بد أن يدفعنا لكي نشير هنا باختصار شديد إلى بعضه. . فعلى سبيل المثال تلقى التحالف أول هزيمة كبيرة له على يد أمير نجران حسن بن هبة الله واضطر عبد العزيز بن سعود ـ بعد أن تكبد ما يقارب الـ ٥٠٠ قتيل على دفع الجزية حتى لا تسقط الدرعية. وقد

(١) تاريخ نجد ودعوة الشيخ عبد الوهاب، مرجع سابق ص٣٩ ـ ٤١.

أثرت تلك الهزيمة على نفسية الشيخ واهتزت قداسته في نفوس اتباعه[1]. وتمت مفاوضات انسحب على أثرها المنتصرون إلى نجران.

في سنة ١٢١٦ هـ ١٧٩٣ م جهز سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود جيشاً من إعراب نجد وكما يقول السيد محسن الأمين «وغزا به العراق، وحاصر كربلاء ثم دخلها عنوة واعمل في أهلها السيف ولم ينج منهم ألا من فرّ هارباً واختفى في مخبأ أو تحت حطب وهم جيران قبر ابن بنت رسول الله السبط الشهيد ونهبت المدينة وهدم قبر الحسين ونهب جميع ما في المشهد من الذخائر ولم يرع لرسول الله حرمة وأعاد بأعماله ذكرى فاجعة كربلاء ويوم الحرّة وأعمال بني أمية والمتوكل العباسي ويقول أهل العراق أنه ربط خيله في صحن المسجد وطبخ القهوة ودقّها في الحضرة الشريفة ويقول السيد جواد العاملي: وفي الليلة التاسعة من صفر سنة ١٢٢١ هـ قبل الصبح هجم علينا سعود الوهابي في النجف ونحن في غفلة حتى أن بعض أصحابه صعد السور وكادوا أن يأخذوا البلد فظهرت لأمير المؤمنين معجزات باهرة فقتل من جيشه الكثير وعاد خائباً..»[2].

وكما هو واضح فإن مسألة القتال لنشر الدعوة بدا حالة فيها من الغزو الجاهلي القديم الشيء الكثير ولم يجد الباحثون في ثناياها، مع تكرار الشواهد التي اقتبسنا بعضها، مما له أية علاقة بنشر الدين أو إصلاحه.. ولعل ما حدث عن احتلال مكة والمدينة ـ مما سنشير له في حينه ـ ما يعطى صورة فيها الكثير من سمات البداوة الشرسة التي ظل الرسول(ص) يحاول الحد منها في زمانه.

اغتيل عبد العزيز بن سعود وعمره ٨٢ عاماً في مسجد الدرعية من قبل أحد سكان كربلاء، ولا بد أن القائم بالاغتيال وهو أحد سكان كربلاء كان يقصد ابنه

---

(١) المرجع السابق ص٥٨.

(٢) السيد محسن الأمين الحسيني العاملي: كشف الارتياب في اتباع محمد عبد الوهاب، دمشق، ابن زيدون ١٩٥٣ ص١٣.

سعود، وقد أقرّ بأن ما دفعه هو الانتقام لذبح الأبرياء في كربلاء ومنهم زوجته وأطفاله[1].

يعتبر مؤرخو المرحلة كل من قاوم السعوديين بأنه عدو للدعوة الوهابية ويعددون بعضهم مثل «دهّام بن دوّاس أمير الرياض (وهو أكبرهم) ثم أمير القطيف، ثم ابن ثويني أمير البصيرة[2]. . وكل هؤلاء في المنطقة الشمالية في نجد. أما في منطقة الإحساء حيث الأغلبية الشيعية فقد كانت الحروب أشد شراسة، وحوصر علي بن أحمد صاحب بلاد الشرق حتى استسلم بشروط لكنه أعدم بيد سعود ذاته، أمّا قبائل الخوالد في منطقة القطيف فقد أنهيت قوتهم عملياً سنة ١٢٠٤ في موقعة غريميل التي خاضها سعود بن عبد العزيز[3] على ضوء ما تقدم قسم المؤرخون تلك المرحلة إلى ثلاثة أقسام كان أشهرها القسم الأول الذي تميز بأنه مرحلة التأسيس وقد برز فيه كل من:

محمد بن سعود ثم عبد العزيز بن محمد الذي وحد نجداً واستولى على الطائف ومكة والمدينة ومعظم الجزيرة العربية وبويع بالإمامة عام ١٧٦٥ م، ثم سعود بن عبد العزيز عام ١٧٨٨ م وهو الذي هاجم كربلاء وقد امتد ملكه من مشارف الشام في الشمال إلى مجاهل الربع الخالي في الجنوب ومن ساحل البحر الأحمر في الغرب إلى الخليج في الشرق» وقد احتل مكة عام ١٨٠٣ وهدم ما فيها من آثار للرسول والصحابة مما ذكره في رسالته إلى السلطان سليم الثالث، وفي عهده شن محمد علي باشا والي مصر وعثمان باشا والي حلب الحرب المشهورة عام ١٨٠٦. وقد توفي عام ١٨١٤ وتولى ابنه عبدالله بن سعود الملك. . وفي عهده تمت هزيمة الدولة الأولى واعتقلوا وأعدموا عام ١٨١٨ م[4].

بدأت المرحلة الثانية في عهد تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الذي

(١) فيلبي سانت جون، مرجع سابق، ص١٠٣.
(٢) محمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص ٧١.
(٣) صفحات من تاريخ الجزيرة، مرجع سابق، ص١٧٣.
(٤) راجع خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد بن سعود ح١ بيروت ص٣٥.

استعاد ١٢٤٥ هـ توازن الأسرة واستطاع بعد التفاف البدو حوله من استرداد الرياض عام ١٨٢٠ م ثم جاء فيصل ابنه الذي ثابر على خوض القتال منذ سنة ١٢٧٦ هـ حتى جاء عبدالله بن الفيصل وهو المشهور بقتال قبائل العجمان والسيطرة على الدرعية ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م ولكن العجمان تمكنوا من احتلال الرياض ولكنهم لم يغيّروا النظام بل أبقوا السعوديين في السلطة، خاصة سعود الفيصل، وخلفه عبد الرحمن والد السلالة الحاكمة من الأسرة وأبرز أولاده عبد العزيز آل سعود.

وقد تميزت تلك المرحلة بانقسام الأسرة وتحالفات جرت مع ابن رشيد أمير حائل الذي تمكن من احتلال الرياض عام ١٣٠٩ هـ مما ألجأ عبد الرحمن إلى الهجرة نحو بلاد أخواله في الكويت.

كانت المرحلة الثالثة عملياً هي مرحلة عبد العزيز الذي تعلّم من مبارك الصباح حاكم الكويت درساً بليغاً في مسألة السلطة.. فقد قام الصباح بقتل أخويه حتى يوطد حكمه[1] وانتهت المرحلة الأولى باستيلاء عبد العزيز على مدينة الرياض نهائياً عام ١٩٠٣. وفي ختام معارك عديدة وضارية وطد عبد العزيز حكمه بمساعدة بريطانيا، برز فيها مستشاران بريطانيان: شكسبير ثم تلاه بعد مقتله جون فيلبي الذي اعتنق الإسلام وأصبح اسمه عبدالله فيلبي.

ومما يجدر ذكره أن عبد العزيز تمكن من إنهاء حكم الأشراف في الحجاز في سنة ١٩٢٥ بما في ذلك مكة والمدينة والطائف، ثم حاول التحرش بالأردن والعراق ولكن الإنكليز منعوه. وهكذا تم رسم الحدود الحالية لما يسمى المملكة العربية السعودية. وتبعاً لذلك تكون الجزيرة العربية قد حملت اسم آل سعود لأول مرة في تاريخ دولة في العصر الحديث أو القديم تصبح فيها الدولة إقطاعية كاملة باسم أسرة معينة. ومما لا شك فيه كما يظهر من مسار الأحداث والوقائع التي سجلها المعاصرون أن الاستعمار القديم كان له الدور الرئيسي في تثبيت وإبراز مجموعة

---

(١) صفحات من تاريخ الجزيرة، مرجع سابق، ص١٨٣ وما بعد.

كبيرة من الأنظمة في المنطقة الإسلامية: الجزيرة، الأردن، العراق، مصر.. وغيرها.

٢ ـ الوهابيـــــة:

أصبحت الوهابية اصطلاحاً لحركة دينية تحمل طابعاً إصلاحياً منسوبة إلى اسم والد الشيخ عبد الوهاب، أطلقها الباحثون هكذا حتى لا تختلط بالإسلام ـ تبعاً لمصطلح المحمدية الذي أطلقه المستشرقون على المسلمين جميعاً، نسبة إلى الإسم الأول للداعية المذكور.

لم تواجه دعوة إصلاحية دينية بالعداء والنبذ والاتهام كما ووجهت هذه الدعوة، فقد انتفض في مواجهتها جميع المذاهب الإسلامية المعروفة بما في ذلك الحنابلة الذين قامت الدعوة الإصلاحية على قاعدة مذهبهم. ولعلها الحركة المذهبية الثانية بعد الفاطمية ممن كانت والنظام القائم كلاً موحداً. فكما يقول الزركلي[1] «فإن محمد بن سعود تحول إلى إمام واصطبغت حروبه بالصبغة الدينية الخالصة على أساس أنها جهاد في سبيل الله ـ أما غاراته فصار اسمها غزوات (نسبة إلى غزوات الرسول(ص) وانتصاراته فتوحات ورعاياه المسلمون (على اعتبار أن من هم ليسوا معه فليسوا بمسلمين) والخروج عن طاعته ردّة ومرجع أحكامه الكتاب والسنة.. وأول من دعاه بالأمام كان ابن بشر[2] عام ١٧٥٣ واستمر لقب الامام لاصقاً به وبأولاده إلى اليوم».

ليس سبب العداء للوهابية ناتجاً عن أنها كفّرت جميع المسلمين حتى يتوبوا، وليس لأنه ثار على البدع «واستعمل السيف مع الوجدان حتى يؤمن الآخرون» كما يقول أحد دعاته)[3] إيماناً صحيحاً ويقبلون دين محمد ويسلمون قبولاً حسناً صافياً

---

(١) شبه الجزيرة في عهد سعود، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٢) ابن بشر عثمان بن عبد الله النجدي في كتابه «عنوان المجد في تاريخ نجد» وهو المؤرخ الثاني للحركة الوهابية.

(٣) محمد عبد الوهاب، مرجع سابق ص١٠٩.

نقياً من الأوشاب والبدع والضلالات بدافع الضمير والوجدان فذلك هو المبغي، وإلا فالسيف. . . ».

بل ـ وفي الدرجة الأولى ـ أنّ المسلمين أصابهم الذعر من شعارات الوهابية للمساس بشخصية الرسول وإنكارهم لقداسته وقولهم بأنه إنسان أدى واجبه ومضى إلى جوار ربه. إن ذلك لم يسجل في وثائقهم بشكل مباشر وإنما تم بطرائق لها ظواهر وبواطن ومظاهر سلوك. . وبدا ذلك بأجلى ما يمكن عند احتلالهم لمكة والمدينة ـ عندما تمت إزالة كل آثار آل بيت النبي والصحابة الأجلاء، ومسحت قبورهم بحيث لم يعد لها أثر يدل عليها. وربما كان السيد محسن الأمين العاملي أشدّ الباحثين صراحة في اتهامهم عندما أكد أن ما منعهم من هدم قبة النبي(ص) وضريحه التي حالها عندهم كحال غيرها أو أشد «إنما تم لشدة تعلق المسلمين بذلك وتعظيمهم له (ويقصد الرسول). وأدلة الوهابية وفتاواهم لا تستثني قبة نبي ولا غيره. . وما كان إعلانهم عن احترام القبة إلا تسكيناً لخواطر العالم الإسلامي»[1].

ولعلّني هنا أضيف عاملاً آخر له علاقة بتسرب فكرة القداسة وانتقام صاحب القبر إلى نفوس الغزاة الوهابيين، وكانت تلك الفكرة قد تسربت إلى أفكار مؤرخيهم ابن غنام وابن بشر عندما كتبوا عن الشيخ (كما أشرنا). . وأرجح أنهم خافوا فعلاً من هدم المسجد وليس احتراماً للعالم الإسلامي أو خوفاً من غضبته.

لقد عبر العالم الإسلامي عن خشيته من تحركاتهم في دولتهم الثالثة بأشد مما كان في دولتهم الأولى. . ففي المرحلة الأخيرة لم يكن بإمكان المسلمين التصدي لهم بأية وسيلة ممكنة بعد سقوط الامبراطورية العثمانية. . وقد عبر رشيد رضا صاحب مجلة المنار في تعليقاته رداً على أعداء الوهابية عن هذه الخشية وخاصة عن مدى عمق التأثير البريطاني في مخططاتهم (مع ما يتعلق بذلك من نزعة مسيحية يهودية أصولية تتضمن كراهية الرسول والسعي إلى المس بقداسته) عندما قال في مقاله «الوهابيون والحجاز» ما يلي «يرجف بعض الكتاب بأن السلطان بن سعود ينفذ

(١) كشف الارتياب في اتباع عبد الوهاب، مرجع سابق ص ٦١.

للإنكليز في الحجاز ما لم ينفذه الشريف حسين، وأنهم هم الذين أغروه بالاستيلاء على الحجاز» ويكذب صاحب المنار تلك العلاقة بروايته أن نوري الشعلان زعيم عشائر الرولة اشترط على ابن سعود حين أخذ منه الجوف أن يمنع الإنكليز من مد سكة حديد بين فلسطين والعراق، إنّ تمثيل الرواية بين الملك حسين والسلطان ابن سعود (كما يعلق السيد محسن الأمين) كان منشيء فصولها هم الإنكليز وهم الذين سهلوا لابن سعود احتلال الحجاز[1].

على أية حال لم يتمكن الوهابيون من المساس بشخصية الرسول كما كانوا يخططون، بل على العكس فقد مجدوها كثيراً بالإضافة إلى السلف بتأكيدهم على علم الحديث تحديداً ورفض الفقه المتسرب من المذاهب الأربعة واعتبارهم أن التقليد مرفوض وعلى كل مسلم أن يفهم أمور دينه، ولكن مداخلهم إلى نفي القداسة جاءت عن طريق مسألة الشفاعة.

كانت تلك المسألة مصدر جدل بين الوهابيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى، ويقول محمد عبد الوهاب في هذه المسألة.. أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن أن تطلبها منه وقال فلا تدعو مع الله أحداً.. يجب أن تقول اللهم لا تحرمني شفاعته اللهم شفّعه فيّ..».

«أما من ناحية التوسل بالرسول وهو المقرّ عند أهل السنة والجماعة فإنما هو مراعاة سبيل الله بالعلم والعبادة وتحرّى مكارم الشريعة، وأما التوسل بالنبي سابقاً فهو الاستسقاء به في حياته وثبت بغيره بعد وفاته بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتياً. وفي حديث عمر كما قال «كنا إذا أجدبنا نتوسل نبيك فتسقينا والآن نتوسل بعم نبيك»[2].

عندما يتم التدقيق في هذه النصوص تتضح قضية المماحكة الكلامية التي تبرر التمجيد وتنفي الامتداد في المستقبل كما يجب أن يكونه النبي ورسالته. وكما

(١) المرجع السابق، ص ٦٢.

(٢) محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق ص١٢٠ ـ ١٢١.

وضحنا في الفصل الأول فهل انتهى الرسول بانتهاء حياته؟ المنطق يقول أن الرسول(ص) إذا كان يمتلك قداسة مستجاب الدعاء في حياته، وإذا كانت النصوص تقرر شفاعته بالمسلمين تحديداً، فهو في رحاب الله أشد قداسة وهو بالتأكيد أفضل من الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، فلماذا لا تطلب الشفاعة منه مباشرة مثلاً في حياته أو بعد مماته ما دام قد أعطيها من الله. . فهل يكون الله واسطة لدى النبي، حتى يعطينا، أو يوافق على الشفاعة بالمسلم حسب طلب الشيخ عبد الوهاب (اللهم شفّعه فيّ) أو أن تطلب ذلك من الرسول مباشرة ليكون هو واسطة المؤمن والوسيلة عند الله؟؟

أما قضية طلب الشفاعة من الرسول ومخالفتها لمنطوق الآية (فلا تدعو مع الله أحد) ومساس هذه المقولة بالتوحيد المطلق، فإن المسألة برمتها ـ رغم الجدل المنطقي الوارد فيها وأحياناً وصول المتجادلين إلى حد السفسطة إنما هي مجرد تعبير عن النوايا المشكوك بها تجاه قداسة الرسول، ذلك أن التوسل به لا يؤثر في صفاء التوحيد أو إطلاقيته ولا يسيء إلى التعبد في شيء حتى يثار كل هذا الضجيج حوله من قبل الشيخ محمد عبد الوهاب ومدرسته.

السلفية والوهابية:

يطلق مصطلح السلفية مترادفاً والوهابية، ويستخدمه بعضهم بديلاً لها محددين زعماءها القدامى والمحدثين بثلاثة أساسيين وهم «أحمد بن حنبل، ابن تيمية، محمد عبد الوهاب»[1].

إن الذين يحاولون تقديم السلفية بتفسيراتها الحديثة لا يعدون عن كونهم تلخيصاً لهذا النص «إن من نظريات ومبتكرات العلم أموراً قد نجدها تخالف الإسلام فلا يجوز أن نقبلها(. .) لذا فإنه إذا ما اصطدم النص الشرعي الواضح الصريح القطعي بنظرية علمية أو إنكار حديث فيجب أن تكون ثقتنا بما جاء عن الله

(١) عيد عباس، السلفية وموقفها من الحركات الأخرى، تعليق الشيخ ناصر الألباني، دار الإيمان، الاسكندرية، ص٥، ومابعدها ص١٧.

ورسوله لا ريب فيجب أن نقدمه على هذه الأمور. . لهذا يجب اعتبار كل من استخدم عقله كالمعتزلة دخيلاً على الإسلام فهم أصحاب الرأي وأصحاب تفضيل العقل على النقل الذين لا يعتقدون بنصوص الكتاب والسنة ولا يهتدون بهدي السلف الصالح(. . .) فكلما ازداد المسلمون بعداً عن دينهم الصافي الحقيقي كلما أخذت الأفكار الأجنبية والثقافات الدخيلة على الإسلام تشتدّ».

إذا أخذنا هذا القول على عواهنه كمدخل إلى السلفية فإن الذين نقلوا الحديث النبوي وأصحاب الصحاح يحتلون مكانة تقترب من العصمة، لأنهم هم الذين يصلون إلى مكانة تفوق مكانة القرآن، وهم الذين يعرّفون لنا ماهية الإسلام والإيمان، وعن طريقهم وحدهم نأخذ إسلامنا من خلال اعترافنا بأنهم وحدهم الصحيح وكل ما ورد عن غيرهم فهو باطل.

لقد عالجنا في الفصل الأول مقولتي القرآن والعلم، وماهية الوسائل التي استنّها القرآن للوصول إلى التوحيد المطلق بواسطة العقل بالدرجة الأولى. . فإذا كان العقل هو السبيل إلى الله فكيف يمكن أن يخالفه المنقول عن الرسول؟ وبما أن الجدل بين العقل والنقل ليس موضوع هذا البحث فإن التمحيص في الدروب التي توصل إلى ما قام به السلف الصالح من سلوك أو قول في الأيديولوجيا الإسلامية بما في ذلك التوحيد، لا يمكن أن يتم إلا بواسطة العقل وحده.

هناك خمس صفات أو أسس للسلفية وهي:

١ ـ التوحيد الصحيح: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية (وهما ما يستعصى فهمه أو اتباعه على كثير من المسلمين في رأي أتباع السلفية أو دعاتها) فمن أخطأ فيهما أو جهلهما أو اعتقد خلافهما فهو مشرك ويحكم عليه بالخلود في النار. . إلا من لم تبلغه هذه الدعوة. ويتبع هذان ما يسمونه توحيد الصفات بمعنى أنه لا يجب أن يتصف أحد بصفة من صفات الله كعلم الغيب والمستقبل وحتى الرسول أو أي شيخ صوفي، ومن فعل ذلك سيكون مصيره الخلود بالنار حتى لو كان في أقصى درجات العبادة: (يقوم الليل ويصوم ويزكي ويقوم بأنواع النوافل ويتقرب إلى الله

بشتى القربات ويصل الأرحام) فلو أشرك في عمره مرة واحدة واستغاث بغير الله وقال كلمة وصف أحد المخلوقات بصفة الله.. فكل عمله باطل[1]..

٢ ـ الاتباع: المذهبية في الإسلام مرفوضة، وعلى المسلم أن يأخذ الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة.. لا يجوز التقليد وإنما يطلب الحكم والدليل معاً من رجل الدين عند الحاجة.

٣ ـ التزكية: وهي تعني رفض التصوّف جملة وتفصيلاً لأن أوله ابتداع وآخره زندقة ويستتبع ذلك رفض مقولة الكشف والاتصال الروحي بالله فهو كهانة مرفوضة.

٤ ـ التحذير من البدع.

٥ ـ تحري الضعيف والموضوع من الحديث[2].

استناداً إلى ما تقدم فإن المنفذ الوحيد إلى البحث الإسلامي مع تطوّر الزمن هو علم الحديث.. وبما أن رفض أعمال العقل أساسي في السلفية كما هو واضح وبما أن الصحاح المعتبرة قد تم إقرارها منذ زمن بعيد، فماذا بقي للدارسين في الإسلام أن يقوموا.. ثم من الذي يمكن أن يدعي تنصيب ذاته حكماً في شؤون الإسلام والمسلمين وهو يحمل في مذهبه كل هذا التعسف المنفّر من الإسلام كدين.. ألا يستدعي ذلك طرح تساؤلات وشكوكاً تمس النوايا قبل السلوك؟

في هذا المجال وفيما يتعلق بعلم الحديث يمكننا الرجوع إلى رأي أحد كبار السلفيين العرب وهو الشيخ ناصر الألباني الدمشقي حين يقول «لم يكن بن عبد الوهاب عالماً بالحديث النبوي، فهو قد استخدم أحاديث ضعيفة خاصة في كتابه آداب المشي إلى المساجد»[3] ونظراً لكون الشيخ الألباني من كبار المحدثين

---

(١) يعلق بعضهم على هذا التشديد المخالف للعقل بطرح مسألة معرفة جنس الجنين بواسطة الأجهزة، رغم أن الله اختصها لنفسه في القرآن الكريم، فكيف يمكن الفتوى حول هذه المسألة من قبل السلفيين.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق ص ٣١.

والمستعلين بهذا العلم حديثا فإن حكم القيمه هذا يدفع الدارسين للتساؤل. . ماذا بقي لدى بن عبد الوهاب من العلم المسموح الاشتغال به حتى يوصف بأنه عالم ومجدد وداعية إصلاح؟

مقولات أخرى:

غني عن القول أن الحنابلة خاضوا مع محمد عبد الوهاب معارك كلامية بما فيهم أخوه سليمان واعتبروه دون منزلة الاجتهاد[١]. . وحتى يمكن الإحاطة بمعظم مكوّنات هذه الطريقة المشتقة من الحنبلية والتي هي أقرب إلى بعض أفكار ابن تيمية، يجدر بنا تلخيص ما يمكن من مقولاتها كما يلي:

١ ـ لا بد من معاداة المخالفين للدعوة السلفية فلا يكفي معرفة الحق بل لا بد من محاربة مخالفية وبغضهم وبغض من يحبهم ومسبتهم ومعاداتهم، ولا يصح الإسلام إلا بمعاداة أهل الشرك.

٢ ـ يأتي على رأس هؤلاء الأعداء الشيعة الملقبين بالرافضة بما في ذلك موالاة من عاداهم تاريخياً كمعاوية بن أبي سفيان[٢]، فلم يكن ملك من ملوك المسلمين خير منه، فهو في مرتبة المهدي. . وعن أحمد بن حنبل عن أبي إسحاق السبيعي قوله: لو أدركتموه وأدركتم أيامه لعلمتم أنه المهدي. . ووصفه ابن عباس بأنه فقيه، وكان محبوباً من المسلمين فهو الأفضل تبعاً لحديث الرسول «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم. .»[٣] إلى آخر الحديث. الرافضة لا يقبل حديث الرسول منهم برأي مالك فإنهم يكذبون، ويقول الشافعي: لم أر أحداً أشهد بالزور من الرافضة، وعن شريك قال «أحمل العلم عن كل من لقيت إلا الرافضة فإنهم يضعون الحديث» وأصحاب الصحاح لم يرووا عن أحد من الشيعة[٤] . . . . .

---

(١) راجع كتاب الصواعق الالهية في الرد على الوهابية، القاهرة، مطبعة نخبة الأخبار ١٨٨٦ م.

(٢) عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، في عقائد الإسلام، دار الأمان الجديدة، بيروت ١٩٨١، ص٥٣.

(٣) النص الكامل عن البخاري «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلّون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم.

(٤) هذا النص لا يمتلك المصداقية العلمية ـ فقد روى أصحاب الصحاح عن بعض الشيعة ـ راجع كتاب الغدير =

. بما في ذلك اعتبار خروج الحسين خطأ الخ . .[1].

٣ ـ إذا رأيت من يبغض أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع وإذا رأيت من يبغض يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب.

٤ ـ في مسألة الذات والصفات: لم يرد عن أحد من أصحاب الرسول أنه قال (لا تعتقدوا بظواهر النصوص بل تأولوها على ما تقتضيه عقولكم ومقاييسكم). . وبما أنهم سكتوا عن ذلك وأمروا بتبليغ القرآن والسنة فيجب أن نسكت ونأخذ بظاهر النصوص.

٥ ـ فما ترك رسول الله وسكت عنه وجب على الأمة السكوت عنه، فالأمور التي ترك رسول الله وأصحابه الكلام فيها يجب على الأمة اتباعهم فيها، كما أن الأمور التي فعلها وأمر بها يجب على الأمة اتباعه في ذلك.

٦ ـ استناداً إلى قول أبي ذر فإن الرسول ذكر للمسلمين علماً من كل شيء، وكذلك فإن سلمان الفارسي يؤيد هذا القول. . فعلى المؤمنين أن يعتقدوا أن كل ما حدث بعدهم ليس من الإسلام بل من البدع والمنكرات العظام. . ومن فعل ما لم يفعله أصحاب محمد فقد جاء ببدعة.

٧ ـ إن الفرقة الناجية هم أصحاب الحديث وليس العقل والرأي.

٨ ـ الإسلام الصحيح الاعتقاد هو إثبات الصفات مع نفي مماثلة المخلوقات وهو دين الذين آمنوا وعملوا الصالحات[2] فالله سبحانه فوق سماواته على عرشه عالٍ على خلقه كما يقول ابن تيمية.

٩ ـ الصلاة خلف كل بر وفاجر صحيحة والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح فريضة والخروج عليهم عند الانحراف محرّم قطعاً[3]، والخارج على سلطانه كافر.

= بعد الحسين الأميني.

(١) في عقائد الإسلام، مرجع سابق، ص ٥٤ ـ ٦٣.

(٢) في عقائد الإسلام، نفس المرجع، ص ١٣٢.

(٣) جعفر السبحاني، الوهابية في الميزان، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٩٨٦، ص ٨ . . . . . . =

١٠ ـ رفض الأحاديث المروية في فضل زيارة رسول الله تبعاً لرأي ابن تيمية في كتابه الرد على (الأخنائي)[١]. ويحرّم تجصيص القبور وبناء المساجد عليها، ويحرّم الاتجاه إلى حجرة النبي عند الدعاء والأولى منعه لأن أفضل الجهات القبلة[٢].

١١ ـ حرمة النذور بالإطلاق لقول ابن تيمية «من نذر للنبي أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور أو ذبح ذبيحة كان كافراً ومشركاً» مع تأكيد محمد عبد الوهاب لذلك.

١٢ ـ تحريم التبرك بآثار الأولياء باعتبارها شركاً بالله.

١٣ ـ تحريم عادة القيام احتراماً للضيف أو القادم إلى المجلس فلا قيام إلا لله.

١٤ ـ ليس للمخلوق حق على الخالق[٣] (وهي فكرة مأخوذة عن الأشاعرة).

١٥ ـ إن قول المسلم (سيدنا محمد) بدعة[٤] (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) بما في ذلك وضع الستائر على نوافذ حجرة النبي(ص) فهي أيضاً بدعة.

إن ما ورد أعلاه يتضمن معظم عقائد الوهابية، فيها ما هو خاص بهم وبعضها مأخوذ عن ابن تيمية خاصة ما تضمنه كتابه «منهاج السنة النبوية»[٥] أما فيما يتعلق بمذهب ابن حنبل فقد اقتبسوا منه ما يتعلق بمسألة العقل والنقل واعتبار النقل هو القول الفصل في التدين. واستطراداً فإن الإمام ابن حنبل هو الذي أخرج حديث الغدير بنصه الأساسي المعتمد لدىٰ الشيعة في إثبات ولاية الإمام علي، وهو الذي

= ، نقلاً عن مقالات الإسلاميين لمحمد عبد الوهاب.

(١) المرجع السابق ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٤.

(٣) وهي تناقض الآية الكريمة: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ نفس المرجع، ص٣٣٥.

(٤) سلطة النص، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٥) صائب عبد الحميد: ابن تيمية حياته وعقائده. دار الغ/ ير، بيروت، بلا تاريخ.

ألف كتاباً خاصاً بالأحاديث المرفوعة إلى الرسول(ص) عن فضائل آل البيت.

لقد شهد نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وحتى قيام المملكة العربية السعودية أشرس المساجلات الكلامية بين الوهابية وباقي المفكرين المسلمين الذين عارضوها، وتجدر الإشارة إلى موقف المؤسسة الإسلامية في الأزهر، إن عبر مجلة الأزهر أو الفتاوى أو الكتب الصادرة باتهام وإدانة الحركة الوهابية واعتبارها خروجاً عن الإسلام. وقد انصبّ الرفض على أمرين أساسيين: أولهما ما يتعلق بالمساس بشخصية الرسول محمد(ص) ومرقده وآثار الصالحين مما تعرض للهدم والتخريب (كما أشرنا) وثانيهما الرد على الحركة بالنسبة لمقولات تكفير كل المسلمين المخالفين، وحول مقولتهم في التوبة والإيمان الصحيح «وإلا فالسيف في حده الحد بين الجد واللعب». وفي الواقع السائد في تلك الأيام فإن المؤسسات الإسلامية جميعاً اعتقدت بشكل جازم أن بريطانيا ستقوم بتمكين آل سعود من السيطرة على العالم الإسلامي لتحطيم الإسلام ذاته ممثلاً بمؤسساته المذهبية.. وغني عن القول أن هذا الإعتقاد كان مبالغاً فيه.

على أية حال فإن الردود على الوهابية انطلقت من منطق الحركة ذاته.. وكلها تستند إلى المأثور عن الرسول والصحابة وسلوك أحمد بن حنبل وحتى ابن تيمية كما يمكن العودة إليه في المراجع المثبتة في هذا الكتاب. ورغم كل ما قيل أو سيقال عن النتائج، فقد تم تحجيم المؤسسة الوهابية بتحجيم السلطة التي تستند إليها، وحتى في الجزيرة العربية فإن الملوك قاموا باستخدام المؤسسة لأغراضهم الذاتية، في صراعهم على السلطة فيما بينهم. وأشير هنا إلى عزل الملك سعود بن عبد العزيز وتولية الملك فيصل استناداً إلى فتوى من أقطاب المؤسسة المعروفين ومنهم الشيخ ابن باز عام ١٩٦٤.. وتشير المصادر التي تابعت تلك المسألة إلى أن المؤسسة بإصدار هذه الفتوى كانت تدعم شخصاً ينتمي إلى آل الشيخ عبد الوهاب من جهة والدته[1]، ضمن أسباب كثيرة استدعت هذا

(١) والدة الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز هي: طرفة بنت عبدالله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ عبد الوهاب. وقد تميز الملك الراحل بقوة الشخصية والدعم الأمريكي، وكان استيلاؤه على =

الدعم[1].

٣ ـ محمد بن عبد الوهاب بين دعاته ومعارضيه:

ينطلق دعاة الحركات الدينية الإصلاحية أو من تعتقد أنها تسعى إلى الإصلاح عادة في العالم من مقوله أن هناك انحطاطاً فكرياً وانحرافاً عن أصول الدين. بالنسبة للحركات الإسلامية فهي توصّف الحالة السائدة بالتخلف أو بالإنصراف عن الدين وتحوله إلى الجمود ومجموعة من الطقوس المخالفة للجوهر، وبعضها يستند إلى الحديث النبوي القائل «في مطلع كل قرن يرسل الله للمسلمين من يجدد لهم دينهم».

دعاة الوهابية يتحدثون بشكل مختلف قليلاً، فهم يضيفون للانحطاط الفكري مسألة اختلاط السنن بالبدع والتحول إلى التقليد ورفض أعمال الفكر والجمود وغياب السلطة الشرعية التي تسند الحق وتدافع عنه[2]، وأن الدعوة جاءت لتقويض المذاهب وتصحيح العقائد وردها إلى مصدرها الأصيل.

واستطراداً فإن هؤلاء يحددون الهدف الأبعد من الإصلاح والتجديد بأنه إنشاء وحدة إسلامية، أو مجتمع إسلامي موحد تطبق فيه أحكام الشريعة السمحاء وبالتالي تشكيل دولة مؤمنة عادلة قوية الشكيمة: وفي اعتقادهم أن ذلك ينطبق على ما قامت به الأسرة السعودية في ظلال الدعوة الوهابية حيث قامت دولة واسعة الأرجاء تحت راية الإسلام والقرآن[3]. وربما كان بعضهم أكثر صراحة في توضيح مقولة الإصلاح، فهم يتهمون تسرّب العلوم الحديثة القادمة من الحضارة الأوروبية، بما

= السلطة مجرد إقرار الأمر الواقع.

(١) عبد الرحمن الشمراني، فيصل القاتل والقتيل، بيروت، دار الإنسان، ١٩٨٨، ص١٨١.

(٢) محمد بهجة الأثرى، محمد عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد، الرياض ١٩٨٤، في العصر الحديث ص٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠.

في ذلك فلسفات هذه الحضارة التي أفسحت المجال واسعاً لهز المجتمع الإسلامي من الأعماق[١].

لكن الباحث لا يستطيع الاقتناع بأن هذا التوصيف يمكن إسقاطه على الحالة في نجد وهي كما يصفونها عند ظهور محمد عبد الوهاب «غلب على الأكثرين ما كان عليه أهل الجاهلية وانطمست أعلام الشريعة في ذلك الزمان وغلب الجهل(. . .) فهم جدوا واجتهدوا في الاستغاثة بغير الله من الأولياء والصالحين والأوثان والأصنام والشياطين[٢].

وفي هذه الحال لا بد من تجديد ماهية الإسلام الحقيقي المنقذ من التخلف والجهل خاصة في المنطقة التي ظهر فيها داعية التجديد والإصلاح (وأعني نجدا)، وهم عادة يتحدثون عن الإسلام الحقيقي بأنه اتباع الرسول وصحابته حيث لم تكن تعاليمه قد تعقدت بشروحات وكتاب الفقهاء والمتكلمين، أو شوّهت بالبدع الغريبة التي انسابت إليه من عادات وديانات الشعوب التي اعتنقته من غير إيمان صحيح بأركانه[٣].

فهل كان الشيخ محمد عبد الوهاب ممن ينطبق عليه الشروط، أو هل كانت المنطقة مما تسرب إليه بدع الحضارة الأوروبية. . بل ربما كان السؤال الأكثر وجاهة ما علاقة الاستغاثة بغير الله واحترام الأولياء والصالحين أو عدمه بإصلاح أحوال الإسلام والمسلمين وإنقاذهم مما هم فيه. . ؟

ولنكن أكثر وضوحاً. . من أين نأخذ ما كان عليه الرسول وصحابته إن لم نأخذها من الفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والمهتمين بهذه الأمور؟

يبقى العنصر الأخير في المسألة برمتها، وأعني به، ما تحدثوا به عن «إيقاظ

---

(١) محمد كامل ضاهر، الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث، دار السلام، بيروت ١٩٩٣ ص١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١.

العملاق العربي المسلم من سباته في جزيرة العرب الذي دام دهراً داهراً. . وإعادة دينه الصحيح ودولته العزيزة المؤمنة»[1] فإنه يبدو لنا الأكثر أهمية في هذه الدعوة. . وهذا ما جرى فعلاً تحت مظلة الإسلام الجديد الذي تم إصلاحه من قبل الدعاة الوهابيين وذلك بقتل مخالفيهم وتنقية الجزيرة من الكفّار الجدد!!

والغريب في تراجيديا تلك المرحلة الدامية أن بعضهم يحلو له أن يشبه محمد عبد الوهاب برسول الله في انطلاقته قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً[2]. والأكثر غرابة هو إصرار هؤلاء الدعاة على أن ما جاء به ابن تيمية وعبد الوهاب بأن العقل مضل، وأن القرآن وحي إلهي وحقائقه مطلقة، ولا يجب أي تفسير خارج هذا النطاق. . بحيث بدا إلغاء العقل سمة التجديد والإصلاح. . يترافق ذلك مع أمر يبدو متناقضاً بشكل حاسم مع مقولة (رفض أعمال العقل)، وهو إقرارهم بضرورة الاجتهاد ورفض التقليد. فكيف يمكن أن يكون اجتهاد دون أعمال عقل في النصوص والمنقول والمأثور والتأويل؟ ولننظر إلى هذا التعريف الأكثر إثارة للجدل عند ابن تيمية (الذي هو أستاذ الوهابية الأول): «سلطان العقل هو التصديق والإذعان وتقريب المنقول من المعقول ورفع التعارض بينهما أي أن يكون شاهداً وليس حكماً. . مقرراً مؤيداً وليس ناقضاً ولا رافضاً، ويكون موضحاً لما اشتمل عليه القرآن من الأدلة»[3].

والسؤال الذي يفرض ذاته هو حول ماهية العقل عند أولئك المجددين. . فالمعلوم بداهة أن العقل الذي يوصل إلى الله ينطلق أساساً من الشك وطرح الأسئلة، وأن إزالة التعارض بين المنقول والمعقول تنطلق أساساً من سلطة العقل الذي يظل هو المرجع الأخير في مشروعية المنقول وانطباقه مع الواقع بالعودة إلى مجتمع النص وحداثته مع ذاته. . وإلا فإن الناقلين للحديث ومفسريه ومفسري القرآن يُقرُّون عملياً على أنهم هم الإسلام، فهم القناة الوحيدة التي تصلنا بالرسول

(١) محمد عبد الوهاب، مرجع سابق ص ١٢٤.
(٢) محمد عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد، مرجع سابق ص ٣ وما بعد.
(٣) الدعوة الوهابية وأثرها. . . مرجع سابق ص٧٣.

والصحابة. . فهل يمكن أن يقال غير هذا؟ في هذا السياق يذكر دوماً أن اختلاف العلماء رحمة للأمة لأنه محرض على البحث العلمي.

أثر محمد عبد الوهاب في مصر:

ليس من شك في أن بعض دعاة الإصلاح المسلمين تأثروا بالحركة الوهابية. وعند التمحيص بمقدار هذا التأثر نقتبس رأياً للشيخ محمد عبده فهو يقول عن الدعوة إنها «تحرير الفكر من قيود التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره (أي الرجوع) من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من أخطائه وتضبطه، لتتم حكمة الله تعالى في حفظ نظام العالم الإنساني»[1].

في ذلك الزمن. . «وأعني نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ومرحلة بداية النفوذ الاستعماري القديم في الوطن الإسلامي» أرجح أن وثائق الحركة الوهابية ومطبوعاتها لم تكن متوفرة بين أيدي القراء، وكل ما كان يمكن توفيره هو أخبار شفهية، ولا بد أن الجماهير الإسلامية والعربية كانت تتوق للتغيير بما في ذلك الاضطراب والتشوش في مسألة البت في مصير الدولة العثمانية[2]، وكان الجميع يسعون إلى وحدة إسلامية تستند إلى وحدة في التفكير الأيديولوجي الإسلامي. لقد كانت هناك دولة ناشئة موحّدة في المقر المقدس للإسلام، وكان لذلك أن يثير التساؤل والتقييم لكونه واقعاً في المركز الإسلامي، ومن هنا تنبع أهميته. ويبدو أن الدعاة الوهابيين تمكنوا من نقل صورة أكثر إشراقاً لوفود الحجيج تنطلق من مسألة الوحدة الإسلامية بالدرجة الأولى. . وإلا فإن المصلحين الجدد (الأفغاني ـ عبدو ـ رضا وغيرهم) كانوا من كبار العلماء ومن الرافضين لأفكار ابن

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٢) حاول جمال الدين الأفغاني ومريدوه إصلاح الدولة العثمانية مع الابقاء على وحدة الخلافة الإسلامية، ويبدو أنهم اكتشفوا أن ذلك أمر مستحيل. . فقد أصبحت السلطنة العثمانية بعد مئتمين من السنين عبئاً على الإسلام ومقراً للتخلف الفكري والاقتصادي والاجتماعي بينما كانت أوروبا تتقدم بوتائر عالية. . مما أتاح الفرصة التاريخية لأوروبا المسيحية في السيطرة المطلقة على معظم بلاد المسلمين.

تيمية بالدرجة الأولى تبعاً لتقاليد الأزهر المعروفة، هذا في الجانب الأيديولوجي. . أما في الجانب السلوكي فإن أخبار المذابح والتكفير والارتباطات المشبوهة بالنفوذ البريطاني، وحتى ماهية المخططات الاستعمارية المعدة للوطن الإسلامي، فإنها لم تكن في متناول تلك الطبقة من العلماء رغم أنها درست في أوروبا أو اتصلت بها بشكل من الأشكال.

إن من المعروف جيداً أن هؤلاء المصلحين حاولوا التوفيق بين السلفية ومسألة العقل وتقاليد الحضارة الأوروبية المذهلة مقارنة بالتخلف القابع فيه أقطار الوطن الإسلامي. ذلك أن الشيخ محمد عبدو وهو يقيّم الدعوة الجديد يعود إلى القول «واقترح أن يتم تفسير الشرع الإسلامي على ضوء العقل وأن يقدّم العقل على النقل عند التعارض بينهما، أما التقدم فلا يتم إلا بتبني نسق العلوم الغربية في التربية والتعليم».

كان الاضطراب الفكري سمة تلك المرحلة في مصر الأزهر، فرغم أن رشيد رضا صاحب مجلة المنار كان من أقطاب تيار الإصلاح والعلمنة فإنه ظل ينادي باعتبار الإسلام هو الحل الكافي والوحيد لأمور الاجتماع والسياسة والاعتقاد في العصر الحديث[١].

وفي المقابل جاء متطرفون أمثال علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) إلى ضرورة فصل الدين عن الدولة نهائياً ومثلهم الدكتور عبد الرزاق السنهوري واضع القانون المدني المصري الحديث بعيداً عن الشريعة الإسلامية.

فهل كان ظهور حركة الإخوان المسلمين في مصر من إرهاصات هذا الاضطراب بين الدين والعلمنة؟ ولكن لا يمكن أن نمنح الوهابية شرف هذا التأثير الواقع في الحركة الثقافية المصرية كما يقول دعاتها، فقد كان ذلك أمراً طبيعياً في بداية المرحلة الجديدة لهذا القرن.

من ناحية أخرى (ويبدو أن ذلك تم بعد تحجيم حركة الشيخ محمد عبدو)

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ـ٢٠٩.

كان الأزهر من أشد المعادين للوهابية. . فإذا تابعنا مجلة الأزهر أو ما كتب حول مقالاتها من قبل الدعاة الوهابية، نجد مقالات ترشح بالمرارة.

فالدعاة يتهمون الأزهر بمحاربة عبد العزيز آل سعود في صراعه مع انتفاضات الجزيرة العربية أثناء سعيه للاستيلاء عليها[1]. فهو (أي الأزهر) يتهم الملك بالخروج عن الإسلام لأنه يكفر المسلمين ويسفك دماءهم دون وجه حق، وإن الأزهر يمنع علماءه من الذهاب إلى الحج. وقد قام الشيخ الظواهري بأشرس هجوم على الحكومة السعودية في المؤتمر الإسلامي في مكة عام ١٩٢٩، عند حضوره لهذا المؤتمر.

ولعلّ أشد هجوم على محمد بن عبد الوهاب وتعبيرات حركته المتمثلة بالمملكة السعودية جاء في مجلة الأزهر فهي تقول «إن السعوديين هم الخوارج المارقون الذين قال في شأنهم رسول الله «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» وأنهم كفار وقطاع طرق وأنهم أشرار الخلق والخليقة عند الله وأنهم أضر الناس على الإسلام»[2].

وبالمحصلة النهائية لجدل الدعاة والمعارضين، خاصة بين ممثلي المؤسستين في مصر وخارجها، اتهام الدعاة للأزهر بأنه مجرد معبّر عن صوت الحكومة المصرية ومناوراتها السياسية[3]، وأخيراً يطالب الدعاة أو بالأحرى المتطرفون منهم بهدم الجامع الأزهر[4] لأنه خرج عن الإسلام. تميزت تلك المعركة العنيفة بين الطرفين باستخدام كل منهما للمنطق الإسلامي ضمن أسلحته المتعددة بما فيها تحليل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. . وما من شك في أن تلك المعارك الفكرية أغنت الفكر الإسلامي ذاته، في مرحلة من أدق المراحل في

---

(١) عبدالله النجدي القصيمي، الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم، القاهرة، مطبعة التضامن الأخوي، ١٩٣٤ ص ١٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦.
(٣) المرجع السابق، ص ١٤.
(٤) المرجع السابق، ص ٨٣

التاريخ المعاصر للعالم الإسلامي المنفتح على الحضارة الغربية. في هذا المجال يمكن الإشارة إلى مساهمة الولايات المتحدة بأجهزتها الدعائية في دعم هذا الطرف أو ذاك عن طريق نشر دعاواه بمساعداتها المالية.. نشير هنا إلى هدفين بارزين من ضمن أهداف متعددة بهذا الدعم: كان أحدهما نشر الكتب المذهبية الوهابية، أما ثانيهما فترويج الكتب التي تهاجم الحركة الشيوعية[1].

وبالرغم من تعميم إيجابية وحيدة في الحركة الوهابية، وهي موقفها المناهض لمظاهر التخلف والخرافة في حركة التصوف الإسلامي المعاصرة، فإن تحالف المسلمين بكافة مذاهبهم لم يتح لاتباع عبد الوهاب من التواجد إلا جزراً محدودةً معزولة في العالم الإسلامي الفسيح بما في ذلك مصدر انبعاثها بالذات، وأعني المملكة العربية السعودية. ويمكن في هذا المجال تسجيل شهادة (فيلبي) حول توصيفه لمصير الوهابية، يقول «إن استمرار اعتناق المذهب الوهابي والارتداد عنه خلال هذه السنوات تعكس روح العصر بين الحضر والبدو على السواء.. لقد كان نفور العرب (هناك) من أي شكل من أشكال النظام، والخضوع، في صراع متزايد مع الحركة الروحية المؤسسة على مبادىء السلطة، تلك المبادىء التي كانت تعتبر مشروعة وإن كانت الغالبية العظمى تخل بها بدلاً من أن تحترمها، وقد أدرك عبد الوهاب منذ البداية بأن الحاجة إلى قوة ساحقة لنشر كلمة الله والتغلب على عادات البدو نصف الوثنية!! أما في الدين فكانت المنازعات المحلية هي العامل المؤثر في اعتناق المذهب الوهابي أو رفضه، وفي تلك العهود وما رافقها لا يمكن للمرء أن يلمس أي معنى من معاني الإخوة الإنسانية! التي كانت ستصبح حجر الزاوية في حركة القرن العشرين» ص٣٧ (تاريخ نجد.. مرجع سابق).

(١) قامت أجهزة المخابرات الأمريكية بتمويل عدد من دور النشر التي تخدم أهدافها الفكرية، ومن ذلك طبع الكتب التي تمدح الوهابية. وقد ذكر لي الشهيد الصدر أن داراً منها مولّت طبع كتاب فلسفتنا (دون إذنه) لأن فيه هجوماً على الماركسية.

الفصل الرابع

الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية
ـ نظرة في مشاريع التسوية الراهنة ـ

١ ـ التاريـــــخ:

يشيع اليهود عادة أن تاريخهم هو تاريخ العالم منذ ستة آلاف سنة كما هو مدون في العهد القديم. وتدل معطيات حركتهم عبر التاريخ أن ما يسمى بالصهيونية نظام أكثر قدماً من تاريخ إعلانه بعيد المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في بال عام ١٨٩٧.

الصهيونية نسبة إلى صهيون، ولم تحاول النخب المثقفة العربية أن تتقرب إلى فهم هذه الحركة إلا منذ ثلاثة أرباع القرن، ولم تتجه الأنظار إلى التدقيق في تاريخها إلا عندما شعر العرب والمسلمون أن الأهداف الراشحة من تقارير الكتاب الأجانب عنها والتي تمت ترجمتها إلى العربية في منتصف الأربعينات من هذا القرن، تمتلك جدية لم تكن تحملها عيون هؤلاء منذ بدء إعلانها كحركة في نهاية القرن الماضي. وتأكيداً لما تقدم فإن الحركة الصهيونية كانت تمارس نشاطها الكامل في المملكة المصرية حتى ما يقارب بدء دخول الجيش المصري إلى فلسطين عام ١٩٤٨[١] دون أن تجد مقاومة تذكر من السلطات.

---

(١) راجع بدايات الحركة الصهيونية في مصر العربية، قسم الدراسات .... =

لم تخف الصهيونية أهدافها، فهي تعلن حدودها منذ نشأت، بما تذكره كتبهم وخاصة العهد القديم، وبلغت بهم الجرأة أنهم كلفوا الرئيس الأمريكي روزفلت بالتحدث مع عبد العزيز آل سعود عندما اجتمعا على ظهر سفينة في بحيرة قارون (قناة السويس) عام ١٩٤٥ بطلب موافقة الأخير على استعمار أراضي المدينة المنوّرة وما جاورها مقابل ٢٠ مليون ليرة ذهبية. . وكان ذلك الجانب السري جداً في المحادثات[١] . . ولا بد أن الملك رفض ذلك فقط، على عكس ما تذكره الوثائق من أنه رفض إقامة دولة إسرائيل.

يشتق معنى صهيون من التوراة فقد ذكر الإسم عدة مرات كما يلي «لأن من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب» سفر أشعيا. وفي سفر إرميا «قوموا نصعد إلى صهيون إلى الرب إلهنا لأنه هكذا قال الرب» وتم وصف صهيون بأنه جبل في فلسطين كما جاء في المزامير ٣ ـ ٤ «بصوتي إلى الرب أصرخ فيجيبني من جبل قدسه» وفي سفر عوبيد جاء «وأما جبل صهيون فتكون عليه النجاة والخلاص والملاذ ويكون مقدساً ويرث بيت يعقوب مواريثهم» أو كما جاء أيضاً في المزامير «لأنه في جبل صهيون وفي أورشليم تكون النجاة كما قال الرب» يوئيل ٢ ـ ٣٢، وأيضاً في المزمور ١٣٤ «ارفعوا أيديكم نحو القدس وباركوا الرب يباركك الرب من صهيون الصانع السموات والأرض» وفي المزمور ١٣٢ «لأن الرب قد اختار صهيون، اشتهاها سكناً له، طعامها أبارك بركة، ساكنيها أشبع خبزاً، كهنتها ألبس خلاصاً، وأتقياؤها يهتفون هتافا».

أو في المزامير ١٢٥ «المتوكلون على الرب مثل جبل صهيون الذي لا يتزعزع بل يسكن إلى أبد الدهر أورشليم الجبال حولها والرب حول شعبه» أو في أشعياء الإصحاح ١٤ ـ ٣٢ «إن الرب أسس صهيون وبها يحتمي بائسو شعبه»[٢] .

= ، المخابرات العامة، دمشق، الفصل الاول ١٩٨٦ .

(١) عابد توفيق الهاشمي، عقيدة اليهود في تملك فلسطين، مكتبة أم القرى، القاهرة ١٩٩٥ ، ص٥٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤ .

وقد ورد هذا الإسم لدى مفكرين مسلمين قدامى مثل ابن القيم الجوزية في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» معتبراً أن كلمة صهيون الواردة في العهد القديم هي الكعبة ويؤكد أن ذلك دليل على البشارة بالرسول محمد(ص) في التوراة، يقول ابن القيم «أما قول أشعياء في ذكر الحجر الأسود قال: الرب والسيد ها أنذا مؤسس بصهيون حجراً في زاوية ركن منه فمن كان مؤمناً فلا يستعجلنا واجعل العدل مثل الشاقول والصدق مثل الميزان فيهلك الذين أولعوا بالكذب»[١].

لم تنشأ الفكرة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كفكرة بغية إقناع هؤلاء كي يؤازروا مشروع استيطان فلسطين. ولم تكن بداية عندما سعى هرتزل الملقب (ببنيّ الصهيونية) لدى ملوك تلك المرحلة بأن الصهيونية تشكل مصلحة سياسية ملائمة لتلك الدول التي تبحث عن شيء في آسيا[٢] (خاصة الأوروبية منها والطامحة لاقتسام الدولة العثمانية). ولم تكن بكل تأكيد في بداية عهدها عندما خسر نابليون جيشه لغزو مصر عام ١٧٩٩ وندائه الخاص حول مسعاه لبناء الهيكل من جديد في القدس لإقناع اليهود بالالتحاق بجيشه[٣]. إن الحركة أقدم من ذلك بكثير.

لم يعرف بدء تأسيس الحركة الماسونية (وهي التأسيس الأول لبدايات الصهيونية) بالتحديد، ولكن الباحثين يحددون بالتقريب سنة ٧٠ للميلاد بعد خراب الهيكل في القدس (كما يرجحون)، فقد انعقد مجلس حكماء اليهود وأصدر قرارات عديدة أهمها[٤]:

١ ـ المحافظة على اللغة العبرية في كل زمان ومكان. ٢ ـ تعليم الأبناء أصول الدين. ٣ ـ عدم اتخاذ الديار التي ينزلون فيها أوطاناً وأن وطنهم هو أورشليم. ٤ ـ

---

(١) المرجع السابق، ص٦٦.

(٢) يوري ايغانوف احذروا الصهيونية، منشورات نوفوستي ١٩٦٩ ص٢.

(٣) كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة، بلا تاريخ ص٥٩.

(٤) عبد الرحمن عصمت سامي عصمت، الصهيونية والماسونية، ط ٢، ١٩٥١، الاسكندرية بدون دار نشر، ص٦٤ ـ ٦٥.

يعمل الفرد للكل والكل للفرد متعاونين متضامنين للمصلحة العامة والخاصة. ٥ ـ إنشاء جمعيات سرية لتنفيذ هذه الأهداف.

ومنذ تلك الأيام انتشرت في العالم تنظيمات سرية ظاهرها العمل الإنساني بغاية محددة هي استخدام طاقات النخب المثقفة ورأس المال العالمي لدعم عودة اليهود إلى أورشليم وفي ذلك الاجتماع تم ترسيم الحكيم الأعظم ومستشاريه الذين لقبوا بالحكماء فيما دعي بالماسونية الكونية، ووضعت ألقاب تعبر عن الدرجات التنظيمية مثل (الرفقاء الأعاظم)، متفرعاً عن ذلك المركز اليهودي فرع آخر سمي بالماسونية اليهودية الملوكية، برموزها وأسرارها وتنظيمها الحديدي المتسم بالطاعة العمياء، وتحريم البوح بالأسرار تحت طائلة الموت.

وفي تخطيط ذكي أحدث فرع آخر للحركة لكي يستوعب غير اليهود ويتيح لهم مجالاً للتقرب إلى درجات التنظيم المتعددة، سمي بالماسونية الرمزية العامة تحت شعار (المساواة، الإخاء، الحرية)[١]، وكان الهدف هو الإخاء بين الناس أو الأغيار واليهود. ومن المعروف أن الأغيار لا يتجاوزون الدرجة الثالثة والثلاثين في التنظيم، وأن ملوكاً ورؤساء جمهوريات عينوا رؤساء شرف لتلك المحافل[٢].

وبسبب من تلك الشعارات البراقة وخاصة ما أطلق التنظيم على ذاته بأنه حركة إنسانية تتسم بالبناء والحرية. فقد أصبحت هذه الحركة من أوسع الحركات الإنسانية انتشاراً وتأثيراً وقدرة على تحريك الشارع وإثارة الاضطرابات، وأصبحت مع الزمن الاختراق اليهودي الأكبر لكل التنظيمات والأحزاب والقوى الوطنية، وخاصة في الدول التي يشكل رأس المال الحر عنواناً لاقتصادها.

في العصور الحديثة، يعتقد المؤرخون أن تاريخ الصراع في أوروبا يحمل بصمات الحركة الصهيونية وتفرعاتها على كثير من الأحداث والثورات والانعطافات

---

(١) يلاحظ أن هذا الشعار هو نفس شعار الثورة الفرنسية الكبرى ١٧٩٨، وقد سمى الماسونيين بالبنائيين الأحرار واتخذوا رموزاً هندسية لتكون شعارات لمحافلهم.
(٢) المرجع السابق ص٦٥.

الحادة والفوضى العالمية. وبالتأكيد فليس من الممكن تبيان الحقيقة الصافية من خلال فرز ذلك الكم الهائل من المعلومات المتوفرة عن هذا الموضوع خاصة بعد ظهور الصحافة. وقد أدى إلى إصدار هذا الحكم، الذي قد يكون مبالغاً فيه، ظهور بروتوكولات حكماء صهيون في طبعتها الأولى عام ١٩٠٥ باللغة الروسية. ونحن نرجح أن اليهود في حركتهم الصهيونية ساهموا في الترويج لمقولة أنهم هم الذين يحركون الأحداث في العالم حتى يكتسبوا الأهمية ويثيروا الذعر في مراكز القرار العالمي القديم وصولاً إلى دفعها لمساعدتهم في تحقيق أهدافهم بالعودة إلى فلسطين من جهة، وأخذ نصيبهم في السلطة في الدول التي يعيشون فيها إلى أبعد الحدود.

بروتوكولات حكماء صهيون:

يعتقد البعض أن هذه النصوص المسماة هكذا والذائعة الشهرة قد تم إقرارها في المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ وأنها الجانب السري من المؤتمر، لكن التمحيص في المتون يثبت أنها وضعت قبل ذلك بكثير، خاصة فيما يتعلق بالتخطيط لكي يكون الذهب هو مصدر القيمة الأول للعملات أو بالنسبة للسيطرة على وسائل الإعلام أو إثارة الفوضى في العالم[١]. لكننا إذا نظرنا إلى أحداث القرن العشرين في نصفه الأول ـ الحربان العالميتان ١٩١١ ـ ١٩٣٩، الثورة البلشقية) أو إلى العقد الأخير من القرن العشرين (سقوط الاتحاد السوفيتي وبروز النظام العالمي وحيد القطب مع كل الفوضى القائمة في العالم) نجد الوقائع تدفعنا إلى الترجيح بأن الفوضى وإن لم تكن كلها بتخطيط من الصهيونية، فإنها السمة الأبرز لوقائع هذا القرن المشرف على نهايته، وتساهم الحركة الصهيونية بنصيب منها للوصول إلى السيطرة النهائية على الوطن الإسلامي تحديداً.

يمكن تلخيص هذه البروتوكولات التي ترجمها وصدّرها القس (سيرجي

---

(١) علي الجوهري بروتوكولات حكماء صهيون، مكتبة ابن سيناء، القاهرة ١٩٩٣، المقدمة.

نيلوس) الذي مات في معسكرات الاعتقال الشيوعية[١]، بسبب أن النصوص تشير إلى الربط بين الصهيونية والشيوعية، ولكن هذا التلخيص لا يغني عن العودة إليها لأهميتها والتأكيد القاطع للمؤرخين بصحة نسبها إلى الحركة الصهيونية.

تتألف من أربعة وعشرين بوتوكولاً، وهي تلخص أهداف الصهيونية ومسيرتها، ومعلوم أن قسماً كبيراً من الأهداف الواردة فيها قد تحققت، وهذا يدل على صحة نسبتها إليهم.

ولعل أكبر دليل على ذلك هو ما أعلن فيها عن هدف شق المجتمع البريطاني إلى كاثوليك وبروتستانت وتسعير الحرب الطائفية، وبما أن ذلك قد تحقق بواسطة انقلاب كروموبل على الملك شارل الأول عام ١٦٤٧ م، فإن المؤرخين عثروا على رسالة بخط كروموبل في أحد المعابد اليهودية في امستردام بهولندا (كنيس مولجتيم) يطلب فيها دعماً مالياً من (آين ايرزبرات) أحد زعماء الحركة الصهيونية لانقلابه مقابل قبول اليهود في انكلترا واغتيال الملك (الذي سعى إلى طردهم من بريطانيا بسبب فسادهم)[٢].

البروتوكول الأول:

١ ـ السعي للسيطرة على الغالبية العظمى من البشر بطريقة وحيدة هي البطش ورفض القيم الأخلاقية والتعايش السلمي وتحبيذ الأنظمة الدكتاتورية لأن الحرية السياسية هي مجرد نظريات غير قابلة للتطبيق.

٢ ـ اعتماد الذهب كقوة مطلقة للسيطرة[٣].

---

(١) يثير اعتقال هذا الإنسان من مثل الشيوعيين الروس إشارات استفهام كبيرة حول منبع هذه الحركة خاصة وأن الأحداث تشير إلى أن الحركة الصهيونية ساهمت في صنعها، وإذا علمنا أن أول مكتب سياسي للحزب الشيوعي الروسي ضم ٩٠٪ من اليهود حتى أن لينين زعيم الحزب كانت زوجته يهودية. ويذكر هنا أن ستالين تمكن من تصفيتهم جميعاً حتى العام ١٩٥٣ عند وفاته.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) وقد تم ذلك فعلاً لأن كل عملات العالم بناء على المذهب الميركانيلي في الاقتصاد مدعومة بالذهب المخزون في البنوك المركزية.

٣ ـ اعتماد مبدأ الغاية تبرّر الوسيلة في السياستين الداخلية والخارجية وهذا يعني فصل السياسة عن الأخلاق.

٤ ـ اعتماد العمل السري لليهود في تحركاتهم.

٥ ـ احتقار الآخرين (الأغيار أو الأمم) واعتبارهم مجرد قوّة عمياء فاقدة للإحساس السليم والعقل الحكيم.

٦ ـ السعي لإفساد الأغيار وخاصة الأغنياء بالخمور والمخدرات والدعارة.

٧ ـ القوة تصنع العقيدة ومن ضمن وسائل القوة استخدام الغش والرشوة والخيانة.

البروتوكول الثاني:

١ ـ تشجيع الحروب بين البشر بشرط ألا تسفر عن مكاسب إقليمية لأي طرف.

٢ ـ خلق عملاء للصهيونية يستطيعون الوصول إلى السلطة في بلادهم بحيث تصبح الدنيا قرية صغيرة تحكمها لكي تعلو أهدافنا وتكون لها الأولوية في التحقق مكتسحة أهداف الدول الأخرى ومحطمة لها[١].

٣ ـ جعل اليهود مستشارين سريين للحكام (دون أن يعرف هؤلاء أنهم يهود)[٢].

٤ ـ خلق مذاهب في العلم والسياسة تساعد على بلبلة العالم: الداروينية ـ الماركسية ـ النيتشويه (نسبة إلى نيتشه).

٥ ـ ضرورة السيطرة على الصحافة في العالم.

---

(١) جاء تعبير القرية الصغيرة حول حكم العالم على لسان الصهيوني بريجنسكي مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس كارتر، علماً أن هناك تحالف وثيق بين الصهيونية وأمريكا خاصة فيما يتعلق بالوطن العربي الإسلامي والسيطرة الاقتصادية.

(٢) ثبت أن كثيرين من رؤساء الدول إسلامية كانت أو أوروبية وخاصة أمريكا كان المستشارين فيها يهوداً فاعلين، ولعل مثال بريجنسكي ومارتن انديك دروس ووزير خارجية أمريكا الأسبق هنري كسنجر.

البروتوكول الثالث:

١ ـ بحث في فلسفة السلطة وطريقة السيطرة عليها في العالم.

٢ ـ الدفع باتجاه فوضى عالمية إذا كان ذلك يخدم أهدافنا بما في ذلك الدفع باتجاه برلمانات فوقية لا يصل إلى دخولها الفقراء ثم بروز اليهود كقوّة مخلصة للفقراء في العالم عن طريق دعم الشيوعية والسيطرة عليها[1].

٣ ـ الدفع للسيطرة على العلوم والفنون من خلال عباقرة يهود بما في ذلك تنظيم المذاهب الأدبية والعلمية والفنية للأغيار تحت مظلة اليهود.

٤ ـ السعي لخلق وضع يمكننا من السيطرة بحيث نخلق الأزمات الاقتصادية في العالم.

٥ ـ صنعنا الثورة الفرنسية.

٦ ـ نحن قوّة لا تقهر.

البروتوكول الرابع:

١ ـ المحافل الماسونية في العالم ترتبط بحركتنا.

٢ ـ يكون تشجيع الحرية الدينية مرتبطاً بخدمة الاقتصاد الموجه نحو الرأسمالية.

٣ ـ الدعوة للأخوة الإنسانية ورفض مفهوم المساواة بين الناس.

٤ ـ أضعاف الإيمان بالله ونشر الإلحاد في صفوف الأغيار.

٥ ـ تشجيع التجارة على أساس المنافسة الحرة وجعل كل مكاسب الأغيار تضب في صناديقنا.

٦ ـ خلق مجتمعات لا إنسانية يكون الذهب فيها هو الإله المعبود.

البروتوكول الخامس:

---

(١) تمكن اليهود من تحطيم الاتحاد السوفياتي بخلق الأسباب (الاقتصادية) المؤدية إلى ذلك ويشار هنا إلى أن اليهود في الثمانينات قبيل سقوطه كانوا يسيطرون على: الاعلام، الذهب، الأكاديميات العلمية، فروع الحزب الأساسية، ومعلوم أن زوجة غورباتشوف يهودية.

١ ـ خلق حكومات ديكتاتورية في العالم يكون الدكتاتور فيها مرتبطاً بالمركز المسيطر عليه من قبلنا[١].

٢ ـ تشجيع طائفة اليسوعيين لأنهم أقرب إلى مصالحنا.

٣ ـ يجب أن يحكم العالم شخص صهيوني وليس كاثوليكياً[٢].

٤ ـ نحن شعب الله المختار.

٥ ـ حماية حرية رأس المال.

٦ ـ بلبلة الرأي العام بشكل مخطط يحترم مصالحنا بواسطة الصحافة (وسائل الإعلام)[٣].

البروتوكول السادس:

١ ـ إنشاء الاحتكارات الضخمة كأوعية للاستقطاب الرأسمالي وضمان سيطرتنا عليها[٤].

٢ ـ محاربة الأرستقراطية الإقطاعية.

٣ ـ فرض السيطرة على مضاربات رأس المال.

٤ ـ التحكم بحركة المضاربات الرأسمالية والأسعار العالمية بفرض السيطرة على العمال مع الاستمرار في الإعلان عن دعمنا للحركة العمالية ضد هذه المضاربات.

---

(١) صار معروفاً أن السيطرة (الأمريكية ـ الصهيونية) على الوطن العربي تمت عبر مجموعة من الانقلابات العسكرية المدعومة أمريكياً بحيث وصل إلى السلطة حكام دائمون يرتبطون عضوياً بالمركز ذاته.

(٢) بحكم الولايات المتحدة طائفة البروتستانت التي تؤمن بالمسيح اليهودي الذي يحكم العالم ألف سنة من أورشليم ومعروف أن ريجان كان يؤمن بهذه الخرافة، وتم اغتيال كندي الكاثوليكي لهذه الأسباب عام ١٩٦٣.

(٣) يسيطر اليهود على أكبر محطات التلفزيون في العالم وكان امبراطور الصحافة (باروخ) الذي اغتالته المخابرات الأمريكية عام ١٩٩١ يهودياً.

(٤) عندما نشرت البروتوكولات لم يكن هناك احتكارات ضخمة وكانت هذه الكلمة غير مألوفة إلى أن تحققت في أمريكا بطريقة مدهشة تمكنت من السيطرة على الاقتصاد العالمي فعلاً، ويسيطر عليها البروتستانت وليس اليهود.

البروتوكول السابع:

١ ـ تشجيع تضخيم الجيوش والشرطة في العالم مع تأمين أن يكون يهود قادة للعمال الفقراء وللأغيار الكبار جداً في نفس الوقت.

٢ ـ نشر النزاعات الدولية وتشجيع الحروب العالمية إذا كان ذلك فيه مصلحة اليهود أو تعرضوا للتهديد (تكرر ذلك في البروتوكول الأول).

٣ ـ السيطرة على الصحافة (تكرر ذلك في الخامس والرابع).

٤ ـ تشجيع الإرهاب الدولي ضد الأنظمة (بشرط أن يكون مسيطراً عليه من قبلنا).

البروتوكول الثامن:

١ ـ جعل النظام العالمي المسيطر عليه (لننتبه إلى أن تعبيراً كهذا ورد في البروتوكولات) مسلحاً بأرقى ذروة بلاغية في التعبير والكلام وأقوى تبرير قانوني لتعزيز المواقف والاتجاهات بالنسبة للقضايا التي نتبناها (نلفت النظر إلى أن أمريكا تبرر كل تصرفاتها بالشرعية الدولية والقيم الأخلاقية وهذا يدل على تحقيق بروز هذا النظام في أواخر القرن العشرين) ولكي يتحقق ذلك نحيط أنفسنا بكبار الناشرين ورجال القانون والأطباء ورجال الإدارة ـ بواسطة التجنيد، غير المباشر ـ مع أبرز علماء الاقتصاد.

٢ ـ السعي لكي يكون في قيادة دول الأغيار (الغوييم) رجال من أسوأ البشر ذوي الماضي المشين والسمعة السيئة لكي نتمكن من استمرار السيطرة عليهم أبداً.

البروتوكول التاسع:

١ ـ صياغة المبادىء الإنسانية بمرونه تسمح لها بالتكيف مع الظروف.

٢ ـ صياغة الشعارات الماسونية لكي تصبح مجرد كلمات غير قابلة للتطبيق مثل (الحق مع الحرية، الواجب مع المساواة مثالية المؤاخاة) (وقد تم ذلك فعلاً).

٣ ـ العمل على صياغة قوانين العالم كله.

٤ ـ أسلحتنا هي طموحاتنا التي لا حدود لها.. سندمر ونذبح ونسلخ ونحكم بقوة ولن نذر عدواً يواجهنا سالماً.

٥ ـ امتلاك السيطرة على المناهج التربوية في العالم.

٦ ـ الاستعداد لتدمير العالم إذا لم نستطع تحقيق أهدافنا وتم كشفنا.

البروتوكول العاشر:

١ ـ خلق قيم جديدة كالفهلوة والمهارة والبراعة والشطارة وجعلها بديلاً عن القيم الأخلاقية.

٢ ـ تدمير الأسرة عند الأغيار.

٣ ـ تشجيع الانتخابات المتحكم بها لأنها وسيلتنا إلى السلطة[١].

٤ ـ تشجيع خلق الدماغ الواحد المسيطر في كل مكان رغم التعددية الظاهرية ذات المسميات المختلفة.

٥ ـ تشجيع بروز حكومات الغوغاء والرعاع التي تدمر الملكية عند الأغيار باسم التحررية لأنا نستطيع النفوذ من خلالها[٢].

٦ ـ رفع الرؤساء الضعفاء إلى السدة للسيطرة عليهم مع العمل على إسنادهم وخلق شعبية واسعة حولهم بوسائل إعلامية.

٧ ـ صياغة الدساتير الجمهورية الملائمة.

٨ ـ غرس فكرة الحكومة العالمية في نفوس البشر وجدواها وضرورتها.

البروتوكول الحادي عشر[٣]:

١ ـ ترويج فكرة أننا الأقوى في العالم وأننا الأقدر على تخليص البشرية من عذاباتها بمجرد تخلصنا من أعداء الشعوب ومثيري الفتن!! ويتم ذلك بالماسونية.

---

(١) في اول انتخابات جرت في المعسكر الاشتراكي السابق (اتيح لي مراقبتها) بعد نهاية المعسكر تمكن اليهود من تحقيق انتصارات انتخابية مذهلة رغم قلة عددهم.

(٢) يلفت النظر هنا الى ان اليهود ضد النخب الحاكمة الاستقراطية كما ذكروا، رغم محاولاتهم خلق عائلات الاستقراطية يهودية باسماء مختلفة وبأديان مختلفة وقد فشلوا في ذلك وانكشفوا، حكومات الرعاع هي الحكومات العسكرية في بلدان العالم الثالث كاكبر مثال وغنى عن الذكر مصير بلدانهم ومدى سيطرة اليهود وامريكا عليهم.

(٣) هذا البروتوكول يعبر باجلى وضوح اليوم عن صحة نسبة النصوص لليهود فهذا ما يجري فعلاً اليوم.

البروتوكول الثاني عشر :

١ ـ تحديد مفهوم الحرية على انها هي الحق في ان تعمل ما يسمح به القانون وبالسيطرة على صياغة القانون من قبلنا نحدد مفهوم الحرية نهائياً .

٢ ـ الاغتيال لكل إعلامي يهاجمنا .

٣ ـ خلق فن صياغة الخبر بما يخدم مصلحتنا .

٤ ـ وضع خطة للسيطرة على الصحافة والمطبوعات (خطة مفصلة) .

٥ ـ جعل كلفة قراءة الكتب عالية في دول معينة ودفع أولئك لقراءة الكتب الرخيصة (الجنسية والسياسية الدعاوية المؤيدة لنا) ومحاربة أي كاتب (وقتله) يقف ضدنا .

٦ ـ تملك كل صحف العالم المؤثرة ومن أي اتجاه في المعارضة أو السلطة .

٧ ـ تشجيع الجمعيات الأدبية الموجهة من قبلنا للسيطرة والتحريك بما نراه مناسباً .

الثالث عشر :

١ ـ ويتضمن أساساً مهمات الصحافة الموجهة وبالدرجة الأولى : إلهاء الناس بالبحث عن اللقمة حتى لا يعملوا بالسياسة ! ! ؟ ؟ .

٢ ـ تشجيع أصحاب النظريات الكبيرة غير القابلة للتطبيق .

الرابع عشر :

١ ـ تحطيم كل ما عدا الدين اليهودي فنحن النخبة والآخرون رعايا لنا وعبيداً .

٢ ـ تزوير التاريخ لإبراز تفاهة تاريخ الأغيار بحث نصبح نحن البديل لأننا تاريخ العالم .

٣ ـ تحطيم مقولات الأغيار الفلسفية .

٤ ـ إشاعة الثقافة العبثية وإنعدام الالتزام وإفساد النفوس .

الخامس عشر: يبحث في مسألة السيطرة:

١ ـ اغتيال كل من يقف في وجهنا خلال الفترة التحضيرية الممتدة قرناً من الزمان.

٢ ـ عندما نسيطر على العالم سنقتل كل من يعرف أسرارنا من الأغيار.

٣ ـ العدو الأول لنا في أوروبا هي البابوية والقيصرية[١].

٤ ـ التأكيد على أن الذين يفهمون والعباقرة هم من اليهود.

٥ ـ التأكيد على الاغتيال للأعداء والخونة.

٦ ـ وصف ملامح الحكومة العالمية ودور الأغيار فيها.

٧ ـ النص على ملك اليهود هو ملك العالم في النهاية.

السادس عشر:

١ ـ رفض ديمقراطية التعليم.

٢ ـ رفض ومحو حرية التعليم وصياغة البرامج بما يخدمنا.

السابع عشر:

١ ـ السيطرة على مهنة المحاماة والقضاة.

٢ ـ اختراق الأديان الأخرى بزرع رجال يهود فيها.

٣ ـ النفاذ إلى المؤسسة البابوية.

٤ ـ خلق الحكومة السرية ذات المئة يد والعيون المفتوحة على كل شيء في العالم[٢].

٥ ـ تشجيع مراقبة الإنسان للآخر ونقل المعلومات إلى السلطات بحيث تنتقل بعد ذلك إلينا.

البروتوكولات من الثامن عشر إلى الرابع والعشرين فيها تكرارات سابقة وأمور

---

(١) اصبح معلوماً ان البابا الخامس تم اختياره بدعم من المخابرات الامريكية الصهيونية وقد حاول الاتحاد السوفيتي اغتياله عام ١٩٨٠ ونجا باعجوبة.

(٢) لدى الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة اكبر بنك في العالم يحوي معلومات عن كل شيء، وهذا شيء معروف.

اقتصادية تتعلق بحركة رأس المال والاستثمارات والتأكيد على أن اليهود قدر العالم وحكامه وأن الآخرين مجرد عبيد وأرانب ومطيعين. . وأخيراً بحث عن طريقه تدريب واختبار ملوك اليهود من نسل داود وأن يكونوا فوق الدرجة ٣٣ في التقاليد الماسونية.

إن ما ورد أعلاه لا يحتاج إلى كبير تمحيص للوصول إلى توصيف ماهية الحركة الصهيونية واستحالة التصالح معها تبعاً لأي موازين قوى متاحة ولا مفر من القتال الطويل الأمد ذلك أنهم الأقدر على جر الأمور لصالحهم بغاية الوصول إلى أهدافهم سلماً إن قبل الخصم بذلك، ويوفرون على أنفسهم بعض ما يبذلون من دم.

٢ ـ المسار الحديث لتاريخ الصهيونية واستيطان فلسطين:

إن نظرة إلى وقائع القرن التاسع عشر والعشرين من الزمن تبدي توجهاً يهودياً نحو فكرة التكون القومي، آخذين بعين الاعتبار بروز هذا المفهوم في هذه المرحلة الزمنية. وفي إطار هذا التطور التاريخي الحاد نحو القومية هل يمكن القول أن اليهود أصبحوا قسمين. . الأول صهيوني والآخر يهودي ديني مندمج في مجتمعاته، وأن هناك قسماً ذاب نهائياً في الأمم التي عاش بينها؟

هناك اختلاف كبير حول هذه المسألة. . علماً أنه لا توجد لدى المدقق أية معطيات تاريخية قديمة ذات شأن حول هذا الموضوع. . فإذا نظرنا إلى المتوفر منها وجدنا أن جهود قادة الحركة الصهيونية انصبت باتجاه تجنيد اليهود صهيونياً ورفض اندماجهم في الدول التي يعيشون فيها يقول موسى هيس (١٨١٢ ـ ١٨٧٥) هـ «إذا ما استمر اليهودي في إنكار قوميته وإذا ما استمر في إنكار انتمائه إلى شعب مضطهد ومنبوذ فإن موقفه سيصبح غير محتمل. لقد اعتبرت الشعوب الأوروبية بأن وجود اليهود بينها هو شذوذ، سوف نبقى غرباء بين الأمم إذا ظل اليهودي ينكر قوميته فسوف لا يكسب احترام الأمم التي يعيش بينها»[١].

---

(١) هشام الدجاني، اليهودية والصهيونية، دار الحقائق، دمشق ١٩٨٥، ص١٣.

وهذا يؤكد أن كل يهودي ليس بالضرورة صهيونياً، وليس شرطاً أن يكون كذلك، ويؤكد هرتزل ذلك بقوله «لقد حاولنا بإخلاص أن نختلط بالمجتمعات التي عشنا فيها ولكننا ما زلنا نتعامل كغرباء في وطننا (. . .) ولكن اليهود سيندمجون في أي مجتمع إذا مكثوا فيه مدة بأمان وسلام وهذا ليس في صالحنا»[١].

وغني عن القول أن تاريخ الحركة الصهيونية الحديث ظل محاولات مستمرة لجذب اليهود إلى الحركة، ودفعهم نحو فلسطين.

ولم توفر الحركة أية مساع بما في ذلك إرهاب اليهود أنفسهم، ومما أصبح معروفاً ذلك التعاون مع النظام النازي في ألمانيا لتهجير اليهود بالقوة إلى فلسطين. . ومما يذكر في هذا المجال أن إيخمان أحد مؤسسي فرق العاصفة[٢] كان ضابط الارتباط بين الصهيونية ونظام هتلر. . زار فلسطين في أيار ١٩٣٧ بدعوة من عصابة الهاجانا الصهيونية ممثلة بأحد قادتها (فولكس). . وقد أبدى الأخير ارتياحه للاضطهاد الذي يتعرض له اليهود في إلمانيا لأنه سيؤدي إلى ازدياد كبير في عدد المهاجرين إلى فلسطين[٣].

بدأت محاولات اليهود للحضور إلى فلسطين بدءاً من العام ١٨٣٨ حينما عينت بريطانيا مستشاراً في مكتبها بالقدس لتوثيق العلاقات مع اليهود المتواجدين هناك، وكان عددهم ٩٧٠٠ نسمة لا غير. لقد اهتم وزير خارجية بريطانية (بالمرستون) بإفهام العثمانيين بأن بريطانيا مستعدة لدعمهم ضد محمد علي إذا سمحت لليهود (بالعودة) إلى فلسطين، وأن بإمكان هؤلاء المساعدة للقتال مع الجيش العثماني في مواجهة هجوم محمد علي عام ١٨٤٠[٤] على بلاد الشام وتهديده الاستانة. ظهرت في تلك الفترة لأول مرة مصطلحات الشعب اليهودي،

---

(١) المرجع السابق ص ١٧.

(٢) تمت محاكمة (ايخمان) وإعدامه في الكيان الصهيوني بعد اختطافه من الارجنتين بتهمة اضطهاد اليهود وقتلهم في المانيا!! تمت المحاكمة عام ١٩٦١ لاثبات مقدرة الكيان على الانتقام من اعدائه.

(٣) نظام عباس، العلاقات النازية الصهيونية، الكويت ١٩٨٤، ص٤٥.

(٤) كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، مرجع سابق ص ٦٠ ـ ٦١.

والعودة إلى إسرائيل رغم أن تلك المصطلحات قديمة التداول ولكنها لم تظهر في الإطار الدبلوماسي الدولي.

يمكننا أن نحدد البدايات الأساسية لتحرك اليهود شرقاً من بريطانيا، وتعتبر هذه الدولة عملياً صاحبة فكرة المشروع الصهيوني في فلسطين في مجاله التطبيقي.. ولقد عاشت الحركة الصهيونية هناك عصورها الذهبية[١].

تأسست في بريطانيا منظمات عديدة تحمل بصمات الحركة الصهيونية منها على سبيل المثال «الجمعية البريطانية للعمل على إعادة الدولة اليهودية في فلسطين، أو جمعية تشجيع الاستطان اليهودي في فلسطين. وكان ذلك يتم بمعرفة الدولة العثمانية. وفي تلك الفترة تأسست مجلة (الجويش كرونيكل) عام ١٨٦١ م لنشر فكرة الاستيطان.

بعد ذلك بسنوات، خاصة بعد المشكلات الطائفية في لبنان التي نشبت عام ١٨٦١، رفعت فرنسا شعار حماية لبنان المسيحي وفلسطين اليهودية.. وعندما اغتيل القيصر اسكندر الثاني عام ١٨٨١ وما تلاه من مذابح لليهود في روسيا نشأت جمعية إحياء صهيون وبعث اللغة العبرية.. ويسجل هنا بدء نشاط آل ـ روتشيلد (وهم أصحاب بنك روتشيلد المشهور) لتحويل هجرة اليهود الروس إلى فلسطين بدلاً من أوروبا، بتوفير الدعم المالي. تم استيطان أول أرض قرب مدينة حيفا شمالي فلسطين من قبل (كاليستر) البولندي وبعدها بقليل أقيمت مستعمرة ريشيون ليزيون قرب يافا.

في تلك الفترة برزليون بنسكر أول من دعا إلى وطن قومي في فلسطين[٢].. وربما كان أول من سجل ذلك في مقال منشور، لكننا نرجح أن الدعوة إلى دولة إسرائيل والعودة ظلت من تقاليد الحركة الصهيونية المتداولة منذ أزمان بعيدة..

---

(١) يمكن التأكيد ان بريطانيا هي العدو الاول للامة العربية وللاسلام ويحمل تاريخها اكبر تأثير مدمر على حركة النهوض الاسلامي والعربي رغم انها اليوم تأخذ مواقف تبدو محايدة بشكل خادع ومريب.

(٢) المرجع السابق ص ٦٠ ـ ٦٧.

ومثله سيظل اسم روتشيلد يتردد كزعيم أبرز في تاريخ الحركة الصهيونية دعم هذا التنظيم الاستعماري بلا حدود.

يعتقد البعض ممن تابعوا الحركة بأن هرتزل لم يبدأ صهيونياً، بمعنى أنه لم يكن يسعى لتهجير اليهود إلى فلسطين بدلاً من دمجهم في المجتمعات التي يعيشون بينها، وإن حادثة درايفوس في فرنسا[1] قد دفعته إلى ذلك. وكان من أولى تعبيراته كتابه الدولة اليهودية (١٨٩٦ الذي مهّد للمؤتمر الصهيوني الأول)، وقد ثبت أنه سرق معظمه من كتاب (بوريس جولي) الماسوني الفرنسي والذي عنون باسم «حوارات جنيف». . وبما أن تلك نظرة ساذجة للأحداث، فإن المنطق يفترض أن اليهود بحركتهم الصهيونية التي تمتلك كل تلك الأسرار والباطن المذهل كما وجدنا في البروتوكولات، كانت تعلم أن فلسطين لا تتسع لهم وأنهم لا يمكن أن يضعوا بيضهم في سلة واحدة وهم يخططون للسيطرة على العالم أجمع.

يقول هرتزل ملخصاً كتابه «أننا نضع حجر الأساس في بناء البيت الذي سوف يؤوي الأمة اليهودية» وربما كانت تلك أول مرة يستخدم تعبير الأمة ملتصقاً بطائفة دينية متعددة الاعراف.

لقد أصبح واضحاً أن المؤتمر الأول في بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ لم يحدد مكاناً ليكون وطناً لليهود، بل عمد إلى المناورة. . وجرى الحديث عن أوغندا وغيرها كأوطان تجمعهم، ولم يتم الأعلان عن فلسطين إلا عام ١٩٠٥ مشيراً إلى اليهودية كقومية وليست كدين سماوي. وقد ظلت المؤتمرات الصهيونية تعقد كل سنتين. . وكانت تعقد معها وقبلها مؤتمرات دينية موازية لم تتحدث عن هدف اليهودية نحو فلسطين، مثل مؤتمر فيلادلفيا ١٨٦٩، ومؤتمر لبسبرج ١٨٨٥ حتى أن بعضهم صرح (أشادها عام ١٨٩٧) «إن اليهود لا تحتاج إلا إلى الشيء القليل إنها لا تحتاج إلى دولة مستقلة بل إلى خلق ظروف في أوطانها الجديدة الحالية ملائمة لتطورها». وقد سمعت أصوات كثيرة مشابهة، ولكن النتائج تقول أن الجميع كانوا

(١) درايفوس ضابط يهودي اتهم بالتجسس لحساب المانيا في الجيش الفرنسي ١٨٩٤.

يحلمون بفلسطين أرض الميعاد مع حلم تحطيم الإسلام هناك. ولا يمكننا في الوقت ذاته إنكار مصداقية بعض هذه الأصوات (خاصة العالم أينشتاين ١٩١٨ برفض الدولة اليهودية لأن اليهود الحاليين ليسو هم اليهود القدماء) وغيره كثر[١]، لكن النتائج تقرر أن الحركة الصهيونية ظلت الأقوى. والتعبير الأساسي عن الغالبية اليهودية في العالم.

وهكذا جرت المحاولات المشهورة لإقناع السلطان عبد الحميد ببيع فلسطين (ما بين ١٨٧٨ ـ ١٩٠٩) وقد قيل أنه رفض العرض ودخل التاريخ الإسلامي كقديس بسبب ذلك، رغم أنه في الآن ذاته كان في عهده المستعمرات اليهودية يرتفع في فلسطين وقد بلغت ثلاثين مستعمرة بما فيها تل أبيب عاصمتهم الحالية.

من الذي يمكنه تبرئة العثمانيين من مسؤولية المأساة الفلسطينية إذن؟ ذهب عبد الحميد وجاء الاتحاد والترقي فارتفع عددهم من ٥٠ ألفاً عام ١٩٠٧ إلى ما يزيد عن المئة ألف قبيل نهاية الأمبراطورية الإسلامية الأخيرة، حتى أن طلعت باشا أعلن من راديو برلين عام ١٩١٨ بقبول مبدأ الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومنحهم الحكم الذاتي فيها[٢]. هنا لا بد من وقفة مع حدث يمكن اعتباره حرب التحرير اليهودية كما سمّاه أحدهم[٣] وأعني به الحرب العالمية الأولى.

الحرب العالمية الأولى:

يتهم الاتحاد والترقي بأنه شكّل أساساً من يهود الدونمة الذين أعلنوا الإسلام قبل ذلك بزمن، وقد اعتبروا وصولهم للسلطة تحقيقاً لسيطرة كاملة للماسونية على مقدرات تركيا والدولة العثمانية وإنهاء الخلافة الإسلامية. ولعلّ أكبر دليل على ذلك

---

(١) يراجع كتاب ناحوم حولدمان «اسرائيل الى اين» طبع مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ويعتقد الرئيس السابق للمؤتمر الصهيوني ان الحكم الصهيوني يختلف عن الوضع الحالي للدولة الصهيونية لانه حلم انساني لا تلبيه الاوضاع الحالية والارتباطات الخارجية للدولة.

(٢) المرجع السابق ص ٧٥ـ٧٦.

(٣) راجع سليمان ناجي: زحف الطاعون المزمن، الحركات اليهودية عبر التاريخ، دار النبراس، دمشق ١٩٨٠، ص٣٣٣.

ما أعلن عن سياسة التتريك التي مورست تجاه الشعوب الإسلامية الخاضعة للدولة، في فترة الصعود القومي كفلسفة عالمية.

لم تكن أوروبا مؤهلة للحرب، وحاولت تجنبها، خاصة في الجانب الفرنسي والنمساوي. وحاول اليسار الفرنسي بشخص زعمائه (كايو) وزير المالية وجان جوريس ينادى بضرورة التفاهم مع المانيا. وكانت بريطانيا تجابه خطة الحرب الأهلية في إيرلندا[١].

لقد ثبت اليوم دور المحافل الماسونية في أوروبا في إثارة الفوضى، في كل أوروبا، بما في ذلك بدء الثورة الشيوعية في روسيا كمقدمات كانت واضحة قبل بدءالحرب، بأهداف معلنة، وهي القضاء على القيصرية وإنشاء نظام اشتراكي، بزعامة رئيسية يتولاها يهود روسيا في الجانبين: الحزب الشيوعي واليسار الإصلاحي معاً. عندما تم اغتيال ولي عهد النمسا في سراييفو (٢٨ حزيران ١٩١٤) من قبل جمعية الكف الأسود الصربية ثبت أن كلاً من القاتلين الصربيين: تشابير نيوفيتش (وبرنسيب) كانا ضحية لتغرير كل من الرائد تانكوسيك والسيد سيكانوفيتش والدكتور كازيمير وفتج أعضاء المحفل الماسوني في بلغراد.

كانت الصهيونية تعتبر الحرب مخرجها الوحيد لتحقيق حلمها (بإنشاء إسرائيل)[٢] قال العامل الالماني ويلهلم الثاني من خلال تصريحه الذي أدلى به لرئيسة دير مندرة أبان زيارته لآخر مرة إلى بلجيكا «سيدتي: شهد الله أنني لم أكن راغباً في ويلاتها ولقد تجنبتها طويلاً ولكن ما حيلتي وهي قد فرضت عليّ فرضاً من قبل اليهود وأنصارهم الماسون فأرجو أن تثقي بأني قطعاً لست المسؤول عن اندلاعها»[٣].

هذه الحرب أثبتت نجاح التخطيط الصهيوني المعلن في البروتوكولات حول

---

(١) المرجع السابق ص٣٣٤.
(٢) المرجع السابق ص ٣٣٧.
(٣) المرجع السابق ص ٣٣٧.

مسألة الحرب العالمية . . وكان من نتائج هذه الحرب :

١ ـ نكوص الحلفاء عن وعودهم التي قطعوها للعرب بإعطائهم دولة عربية موحدة في آسيا .

٢ ـ صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ بالنص التالي : إن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلى مسألة إقامة وطن قومي للشعب اليهودي وستبذل أقصى ما في وسعها من مساع لتذليل إحراز هذه الغاية . . . » وقد خلت الوثيقة من ذكر العرب نهائياً .

٣ ـ توقيع اتفاقية سايكس بيكو المشهورة عام ١٩١٦ بتقطيع أوصال بلاد الشام والعراق بهدف معلن ضمن الاتفاقية وهو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . ومع ذلك فقد طالب اليهود بتعديلها في رسالة إلى الرئيس الأمريكي من قبل زعماء الحركة الصهيونية تضمنت ما يلي «أن اتفاقية سايكس بيكو تقسم البلاد في إغفال تام للحدود التاريخية والضرورات الطبيعية ، وأن المنظمة الصهيونية تعتمد بالدرجة الأولى على الحدود الشمالية المنطقية والحدود الشرقية المعقولة بشأن تطوير إسرائيل الاقتصادي وهذا يعني أنه يجب أن تشمل فلسطين من ناحية الشمال على نهر الليطاني ومساقط مياه حرمون كما ينبغي أن تشتمل في الشرق على سهل الجولان وحوران . . »[١] .

٤ ـ إخراج الولايات المتحدة من عزلتها وضمها إلى جانب الحلفاء . . وقد تم ذلك بضمانات من قبل زعماء الصهيونية هناك قبل الحرب ، وشملت هذه الضمانات أيضاً إقناع قيصر روسيا بدخول الحرب رغم تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فيها[٢] . . .

وقد أصبح معروفاً أن الثورة الشيوعية نشبت عام ١٩١٧ ووقعت الصلح مع إلمانيا في برست ليتوفسك ، وتولى السلطة مبدئياً كيرنسكي العميل البريطاني الذي

---

(١) اليهود تاريخ وعقيدة ، مرجع سابق ص ٨٩ .

(٢) زحف الطاعون المزمن ، مرجع سابق ص ٣٤١ـ٣٤٩ـ٣٦٠ .

أعلن عن يهوديته عام ١٩٥٦ في المؤتمر الذي عقد في سويسرا لمناوأة الشيوعية. ولم يعد خافياً أن فرونسكي العضو الأبرز في الحزب كان يهودياً وصهيونياً ومن المعترفين بدولة إسرائيل وحقها في الوجود رغم شيوعيته المتطرفة. ويشار هنا إلى أن الحركة الصهيونية استطاعت سرقة ذهب روسيا ومجوهراتها، رغم دعمهم الهائل لهذه الثورة بأموال الوسيط الصهيونية يعقوب شيف[١].

٥ ـ استغلال انهيار أوروبا لدعم دور أمريكي بارز في القضية اليهودية نحو تأسيس إسرائيل. فقد ثبت أبان مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس بعيد الحرب بزعامة الرئيس الأمريكي نيلسون ـ صاحب البنود الأربعة عشر الشهيرة ـ أن معظم حاشيته كانت صهيونية من أمثال «القاضي العام اليهودي لويس برانديس، والزعيم الصهيوني باروخ مدير عموم المصانع الحربية، هاري مورغانتو سفير أمريكا السابق في تركيا، وراندولف هيرست صاحب عديد من الصحف، ودون ليفي زعيم حزب العمال الأمريكي، والمصرفيون: يعقوب شيف، بول فاربورغ، وغيرهم[٢].

وهكذا أدخلت دولة قوية لتولي شؤون دعم الصهيونية بديلاً عن أوروبا العجوز المنهكة.

٦ ـ تم فرض الانتداب البريطاني على فلسطين بعد اقتسام الأمبراطورية العثمانية، وكان تعيين أول مندوب سام فيها، وهو الصهيوني البارز: هربرت صموئيل (مؤسس شركة شل) الذي يقول عنه وايزمن انه (صموئيلنا) والمشهور بإصدار القرارات التي تسهل انتقال أراضي فلسطين إلى اليهود مجاناً بما في ذلك احتكارهم للكهرباء واستصلاح الأراضي، والبحر الميت وهي كل ما كان في فلسطين من مشاريع[٣].

٧ ـ تمكنت الحركة الصهيونية من التعامل مع الاستعمار البريطاني من موقع

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) اليهود تاريخ وعقيدة، مرجع سابق ص ٩٠.

القوة، وقد أبرزت هذه القوة ما جرى في مؤتمر السلام بدخول أمريكا عراباً لدولة إسرائيل، وبدا اليهود أبطالاً للتحرير، تتحدث الصحافة عن بطولاتهم في الحرب ضد الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا. . مما مهد لرأي عام أوروبي مؤيد لإنشاء إسرائيل وأفشل كل الأصوات المؤيدة للعرب. وهكذا أصبح ممثلو العرب التائهين في مؤتمر الصلح وما بعده كالأيتام على مأدبة اللئام.

٨ ـ لم يتمكن اليهود من إنشاء دولتهم في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى لأسباب عديدة يأتي في طليعتها مقاومة شعب فلسطين وصحوة الأمة العربية، ثم بروز ألمانيا الجديدة في طليعة تحالف هام في الثلاثينات قاومت مخططات إنشائها. . وتقول المصادر أن المانيا رأت قيام إسرائيل متعارضاً مع المصالح العليا للدولة الإلمانية الاشتراكية الوطنية كونها موالية تماماً لجهات معادية لإلمانيا ولأنها ستصبح كياناً روحياً يهودياً لا ترغب إلمانيا في وجوده[١]، ثم برز أمر آخر أكثر أهمية هو توقع الحرب العالمية الثانية، مما دعا بريطانيا وخلفاءها للتمهل في دعم الصهيونية طمعاً في كسب العرب إلى جانبهم وتهدئة ثوراتهم المتعاقبة ضدها خاصة ثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦ . . وقد تم ذلك فعلاً وصدر الكتاب الأبيض عن الحكومة البريطانية بتحديد الهجرة إلى فلسطين، وبوعود لإعطاء حق تقرير المصير.

٩ ـ تمكنت الحركة الصهيونية من ضم يهود أمريكا عبر الصهيونية إلى الحركة عام ١٩١٩ بعد أن دعت لويس مارشال زعيم اليهود الأمريكية لزيارة فلسطين. . وعندما رأى إنجازاتها هناك أصبح صهيونياً متحمساً وهذا يعني دعماً دولياً ليس له حدود. ومع ذلك فإن الصهيونية وسعت من إطارها التنظيمي لتضم غير الصهاينة عام ١٩٢٩، وبالتأكيد فإن هذا الإجراء لا يدل على شيء ذي معنى محدد ما دام الهدف واحداً[٢] وبهذه الخطوة وبعيد عقد المؤتمر الصهيوني السادس عشر عام

---

(١) زحف الطاعون المزمن، مرجع سابق ص ٣٧١. راجع كتاب أسرار وزارة الخارجية الألمانية ويلهلم استراس.

(٢) راجع: آلان تايلور مدخل إلى إسرائيل، دار مكتبة الحياة، بيروت ص٦٩.

١٩٢٩ ثم توسيغ الوكالة اليهودية وتشكيل مجالسها ودوائرها الملحقة مثل صندوق الجباية والصندوق القومي وغيره مما هو معروف اليوم.

١٠ ـ أدت هذه الحرب مما أدت إليه إلى اعتراف الملك فيصل بوعد بلفور عام ١٩١٩ باتفاق مع وايزمان (خليفة هرتزل) ويقول المدافعون عن الملك الراحل أنه كان مرتبكاً ويحاول الحصول على أي وعد بدولة عربية مستقلة وغير مهيأ للمفاوضات الشاقة، وتضيف هنا أنه كان مستعداً لإعطاء تنازلات في سبيل وقف المد الاستعماري وإقامة دولة يكون هو ملكها (ولو على شبر)[١] يتم الجلاء عنه. ورغم الإعلانات البريطانية الخادعة والمتكررة عن رفض إقامة دولة يهودية بشروط الحركة الصهيونية فإن هذه الدولة أدخلت ٣٠٠ ألف يهودي. والواقع أن كل ما قدمته من تعديلات على وعد بلفور هو منع امتداده إلى شرق الأردن الذي منح لابن الشريف حسين عبدالله عام ١٩٢٤ بإنشاء إمارة شرق الأردن.

وفي الواقع فإن قوى في بريطانيا حاولت إلغاء وعد بلفور في مجلس اللوردات، ولكن التصويت أفشل الموضوع بواسطة الماسوني تشرشل (وزير الدفاع) والماسوني أورمزبي غور[٢]. وكما هو معروف فإن البرلمان البريطاني صادق على الانتداب على فلسطين على أساس وعد بلفور عام ١٩٢٢.. وكانت الحركة الصهيونية مطمئنة للنتائج بدراستها للواقع العربي الإسلامي ومقدرتها على مرحلة التنفيذ بناء على الأزمان المرسومة سابقاً كمراحل في مؤتمراتها العديدة.

نشـــوء إسرائيل:

تعتبر مرحلة ما قبل إعلان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ مرحلة دخول الولايات المتحدة الأمريكية بكل ثقلها إلى جانب الحركة، ويسجل للرئيس ترومان أنه الأبرز والأشد حماسة رغم ليبراليته المعروفة، فقد عبّر عن أن الحل الوحيد للمسألة

---

(١) كما نرى فإن التاريخ يعيد نفسه بأشكال أخرى.. وما يحدث اليوم صورة طبق الأصل ـ راجع المرجع السابق ص٥٦.

(٢) زحف الطاعون المزمن، مرجع سابق، ص٦١.

اليهودية يأتي عبر الصهيونية[1]. وكان ذلك حلقة في سلسلة المكياليين الأمريكية الشهيرة والمستمرة حتى اليوم. تجاهلت السياسة الخارجية لأمريكا مبادىء ولسون المعروفة وخاصة حق تقرير المصير للأغلبية، وأرادت تغيير الأغلبية بإدخال مئة ألف يهودي إلى فلسطين حتى يصل عددهم إلى ٦٠٠ ألف، وهذا يعني إلغاء مضمون الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩ عبر بريطانيا. ويشار هنا إلى أن الحركة الصهيونية رفضت مشروع الرئيس روزفلت لتوطين اللاجئين (بعد الحرب العالمية الثانية) حيث هم واعتبرته مشروعاً غادراً، بل على العكس فقد قامت الحركة بإظهار معاناة هؤلاء اللاجئين والمشردين اليهود لكي تستدر العطف لتهجيرهم إلى فلسطين.

يمكن اعتبار عام ١٩٤٦ عاماً حاسماً في مسألة الدولة اليهودية، فقد وقف اليهود إلى جانب ترومان وبنجاحه عام ١٩٤٧ ضمن هؤلاء دعم الإدارة الأمريكية الحاسم.

في بريطانيا أفرزت الحرب نتائج هامة، حيث وصل حزب العمال إلى السلطة، وكان للحركة الصهيونية بسبب مواقف (كليمنت ايكي) رئيس الوزراء المناهضة لمشاريعها أن تستخدم أمريكا للضغط عليه، وفي يد أمريكا كما هو معلوم أوراق ضغط مهمة يقف على رأسها مشروع مارشال لإعادة بناء أوروبا. ومن المعروف أن ايكي عارض إرسال المئة ألف يهودي، ونتيجة للضغوط تشكلت لجنة أمريكية ـ بريطانية كان معظم أعضاءها من الحركة الصهيونية[2]، وفي مناورة بارعة أيدت اللجنة إدخال العدد المطلوب بإضافة بسيطة هي رفض إقامة دولة يهودية أو عربية.

برزت فكرة تقسيم فلسطين على يد الثنائي (موريسون ـ غريدي) من اللجنة المذكورة ورغم اعتراف وايزمان أول رئيس (لإسرائيل) بأن قيام الدولة اليهودية

---

(١) آلان تايلور، مدخل إلى إسرائيل، ترجمة شكري نديم، دار مكتبة الحياة، ص١٢٤.
(٢) المرجع نفسه، ص١٣٠.

محجف بحق العرب فإنه قدم ضمانات لفظية بالعدالة بين الطرفين.

هكذا أحيلت المسألة برمتها كما هو متوقع إلى هيئة الأمم المتحدة الناشئة في جو من الصراع الصهيوني ضد الجيش البريطاني بعد توقف الحرب العالمية مباشرة. واندفعت أمواج الهجرة غير المشروعة نحو الأرض المقدسة (ذلك أن المشروعة تعني ١٥٠٠ مهاجر شهرياً فقط)، ووقف العرب عاجزين بشكل مذهل عن التصدي.. وبدا أن القدر قد نفذ، فلم يكن في كل فلسطين أي مشروع ممكن للتسلح والمقاومة الفعالة بسبب الحصار العنيف حول فلسطين من قبل الدول الغربية الموردة للسلاح.

أيدت أمريكا القرار في ١١ تشرين أول وتم إقراره في الجمعة العامة في ٢٩ من نفس الشهر بعد مناورات درامية مشهورة تملأ صفحات الكتب المتخصصة[١]. وفي ضوء أشرس ضغط تعرضت له دول عديدة للتصويت إلى جانب المشروع ينفي ترومان أنه فعل ذلك. وبعد استقباله في البيت الأبيض لرئيس الدولة الصهيونية وايزمان عام ١٩٤٨، قدم اعترافه بقيام إسرائيل بعد ١١ دقيقة من إعلانها في أيار ١٩٤٨[٢].

وأخيراً تم تشريد مليون فلسطيني إلى الدول المجاورة وضمت الأردن الضفة الغربية للأردن إلى المملكة وبقي قطاع غزة بمساحة ٢٥٠ كم٢ مع مصر. وبعدمعارك فاشلة عقدت الدول العربية اتفاقيات الهدنة الدائمة عبر مباحثات ثنائية[٣]. وطويت صفحة فلسطين لتبدأ صفحة جديدة وواقع عربي جديد مختلف تماماً عما كان قبل عام ١٩٤٨.

---

(١) راجع موقف المملكة العربية السعودية لشخص وزير خارجيتها الملك الراحل فيصل في بحث الوهابية.

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٠.

(٣) تصر الصهيونية دوماً على المحادثات الثنائية مع العرب وصولاً إلى الحلول المنفردة، ويبدو أن الجميع لم يتعظوا بدروس الماضي.

٣ ـ تطور القضية الفلسطينية من الهدنة إلى التسوية:

شهدت المرحلة الممتدة منذ إعلان قيام الكيان الصهيوني حتى بدء إنطلاق الثورة الفلسطينية المعاصرة عام ١٩٦٥ أحداثاً جساماً في الوطن العربي والإسلامي. ساد الهدوء على الجبهات، وحددت مناطق منزوعة السلاح ابتلعتها (إسرائيل) جميعاً، ولكن الأكثر خطورة كانت الهجمة الأمريكية لترتيب الأوضاع السلطوية في كافة الأقاليم بما يضمن إنهاء الديمقراطيات الضعيفة التي نشأت بعيد الاستقلالات العربية لصالح سيطرة مرحلة ما يسمى بالانقلابات العسكرية المتحكم بها من المركز الأمريكي.

في سوريا حدثت مجموعة من الانقلابات العسكرية المعروفة بدءاً من العام ١٩٤٩ (حسني الزعيم، فوزي سلو أديب، الشيشكلي، حتى العالم ١٩٥٤). في مصر قامت ثورة ٢٣ تموز وجاء العسكر إلى السلطة مع حكومات تكنوقراطية، رافقها صعود قومي عربي باتجاه التصدي للحركة الصهيونية وبناء القاعدة الصناعية. وكان لا بد أن تحدث تمايزات أدت عملياً إلى إنهاء سيطرة الاستعمار القديم المتمثل بالنفوذ البريطاني والفرنسي بدعم أمريكي واضح. وقد أدى ذلك إلى حدوث حرب ١٩٥٦ وبروز نجم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر[١]، الذي حاول أن يجعل بينه وبين الولايات المتحدة مسافة ممكنة فاستعان بالاتحاد السوفييتي بما عرف بصفقة السلاح التشيكي عام ١٩٥٥.

قامت أول وحدة عربية في التاريخ الحديث عام ١٩٥٨ لم تعمر أكثر من ٣ سنوات ثم انتهت بمؤامرة أمريكية معروفة (عام ٢٨ أيلول ١٩٦١).

حدث انقلاب العراق ١٤ تموز ١٩٥٨، تبعه سلسلة من الانقلابات العسكرية

---

(١) لتوضيح تاريخ تلك المرحلة، راجع الكتب: أنور عبد الملك، مصر مجتمع يبنيه العسكريون ـ أدوار كولبي، لعبة الأمم ـ محمد حسنين هيكل، وثائق السويس.

حتى العام ١٩٦٨ مما أدى إلى بروز نجم صدام حسين وتوليه السلطة مباشرة عام ١٩٧٩ وحتى اليوم.

استقلت الجزائر وتونس والمغرب.. وتولى العسكر السلطة في الجزائر مباشرة تحت غطاء حزب جبهة التحرير الجزائرية مما أدى إلى انزلاق البلاد نحو الارتباط الوثيق بالغرب من خلال المؤسسة العسكرية، ثم اشتعال الحرب الأهلية المستمرة حتى اليوم.

حدثت انقلابات عسكرية بتوجيهات أمريكية مباشرة في كل من ليبيا والسودان ١٩٦٩ قامت (إسرائيل) بالهجوم الأكبر عام ١٩٦٧ ٥ حزيران وأكملت احتلال ما تبقى من فلسطين (إضافة إلى ما طلبته من تعديلات على سايكس بيكو) [الجولان جنوبي لبنان] ثم شبه جزيرة سيناء بغرض المساومة عليها لإخراج مصر من الصراع نهائياً وهذا ما حدث فعلاً.

كان التوجه العربي العام عملياً بعد هزيمة ١٩٦٧ يتجه إلى التسوية مع الصهيونية، وهذا ما عبر عنه المرحوم أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية[١]، عندما قال أن السبب الأول لانسحابه من قيادة المنظمة (أو بالأحرى تنحيته عنها) هو موقفه المعارض لتوجه القادة العرب، في قمة الخرطوم التي عقدت أثر الهزيمة، نحو التسوية[٢] وعندما تسلم ياسر عرفات قيادة المنظمة عام ١٩٦٩ في

(١) أحمد الشقيري، الهزيمة الكبرى، بيروت ١٩٧٣ دار العوده ج١ ص ٥٠.

(٢) تأسست منظمة التحرير الفلسطينية أثر قرارات شهيرة عن جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣ «تأكيد حق شعب فلسطين في بلاده وتمكنه من تقرير مصيره بنفسه وممارسة حقوقه الوطنية كاملة» وكلف السيد أحمد الشقيري وهو محام فلسطيني مواليد عكار ١٩٠٨ ممثل فلسطين في اجتماعات الجامعة خلفاً للمرحوم أحمد حلمي رئيس حكومة عموم فلسطين، انعقد أول مؤتمر قمة عربي عام ١٩٦٤ كانون الثاني وأيد ذات القرارات مع دعم العمل لإبراز الكيان الفلسطيني. وفي إطار معارضة شديدة من أطراف متعددة أهمها الهيئة العربية العليا لفلسطين التي يرأسها الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، أعلن الشقيري عن إنشاء المنظمة ودعا إلى أول مجلس وطني فلسطيني عقد في القدسي في ٢٨ أيار ١٩٦٤ وأعلن عن تأسيس المنظمة وأقر الميثاق القومي والنظام الأساسي والمجلسي الوطني.

لم يكن هذا المؤتمر هو الأول فقد عقد الفلسطينيون سبعة مؤتمرات سابقة منذ ١٩١٩ ـ ١٩٣٦ كما يلي: الأول في القدس آذار ١٩١٩. الثاني في يافا ١٩٢٠، الثالث حيفا أواخر ١٩٢٠، الرابع القدس =

ذروة صعود العمل الفدائي الفلسطيني من الأغوار والجولان، كان (كما أظهرت الأحداث) موافقاً على التسوية مع العدو الصهيوني.

ولا بد أن يذكر في هذا المجال موقف مصر كبرى الدول العربية من قضية التسوية بعيد اتخاذ مجلس الأمن لقراره المشهور رقم ٢٤٢ للعام ١٩٦٩[1]. فقد أجابت الحكومة المصرية على سؤال للسيد غوناريانغ ممثل الأمين العام للأمم المتحدة عن قبولها للقرار واستعدادها لتنفيذه كما يلي:

«إن مصر تقبل القرار وعلى استعداد لتنفيذه وبأنها توافق على التعهد بإنهاء حالة الحرب والاعتراف بسيادة كل دولة في المنطقة وحقها أن تعيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها».

ورداً على سؤال خاص بالحدود جاء الجواب «عندما عرضت القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، اتخذت الجمعية العمومية قراراً بتقسيم فلسطين وقد بين هذا القرار وجود إسرائيل» وقد أيدت مصر أيضاً استعدادها لضمان

= ١٩٢١، الخامس في نابلس ١٩٢٢ وقد وضع أول ميثاق وطني فلسطيني ورفض الهجرة والوطن القومي اليهودي. السادس حزيران ١٩٢٣ القدس، السابع القدس ١٩٢٨ حزيران. راجع: الفكر السياسي الفلسطيني، فيصل حوراني، مركز الأبحاث الفلسطينية بيروت ١٩٩٠.

(١) نص قرار مجلس الأمن ٢٤٢: إن مجلس الأمن إذ يعلن عن قلقه المستمر للموقف الخطر في الشرق الأوسط وإذ يؤكد عدم جواز حيازه الأرض بطريق الحرب والحاجة إلى العمل من أجل سلام عادل ودائم تستطيع فيه كل دولة في المنطقة أن تحيا في أمن، وإذ يؤكد أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد تعهدت بالالتزام بالعمل وفقاً للمادة الثانية من الميثاق: ١ ـ يؤكد أن تطبيق مبادىء الميثاق تقتضي إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط وينبغي أن يشمل تطبيق كل من المبدأين: انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض احتلت في الصراع ولكل دولة في المنطقة وحدة أراضيها واستقلالها السياسي وحقها في الحياة في سلام داخل حدود آمنة معترف بها، متحررة من التهديدات بالقوة واستخدام القوة. ٢ ـ يؤكد أيضاً ضرورة ضمان حرية الملاحة عبر الطرق الدولية المائية في المنطقة وتحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين، وضمان حصانة الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات تشمل إقامة مناطق منزوعة السلاح، ومطالبة السكرتير العام بتعيين ممثل خاص يتجه إلى المنطقة لإقامة وإجراء اتصالات مع الدول المعنية لتحقيق التسوية، ومطالبة السكرتير العام بإبلاغ مجلس الأمن في أسرع وقت بما أحرز من تقدم. ٣ ـ دعوة الأطراف إلى وقف إطلاق النار فوراً. ٤ ـ دعوتهم إلى البدء بالمفاوضات.

حرية الملاحة في قناة السويس والموافقة على مناطق منزوعة السلاح تحت إشراف الأمم المتحدة ولم تشترط سوى شرطاً واحداً هو الإنسحاب من كافة الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . وقد رفضت (إسرائيل) الإنسحاب من كافة الأراضي وطالبت بمفاوضات مباشرة لتحديد الحدود الآمنة، كما طالبت بأن تتجاوز العلاقات مع العرب الحدود الآمنة إلى التطبيع السياسي والاقتصادي والثقافي[1] .

ومما يبدو أن الأمور كان لا بد أن تنضج على نار هادئة حتى تصل إلى هذه المرحلة الزمنية للحديث حول التسوية النهائية والتطبيع، وكانت مصر السباقة إلى ذلك بعد توقيعها اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ، كما خططت أمريكا لذلك بدقة .

خلال فترة السبعينات جرت حرب رمضان (١٦ تشرين ثاني ١٩٧٣) وشاركت فيها مصر وسوريا بمؤازرة رمزية من الأردن والعراق. كان شعار هذه الحرب الشهيرة أنّها شنت لتحريك مسألة التسوية لا غير. . حتى أن الاتصالات الجارية مع أوروبا من قبل دول الطوق العربي كانت تسرّب تحريضاً أوروبيا على شن هذه الحرب. ولعلّ أبرز تعبير عن مخططات التسوية ومرحلتها الزمنية جاءت على لسان بريجبنسكي (الصهيوني) مستشار الرئيسي كارتر لشؤون الأمن القومي في مقابلته التي نشرها مكتب المعلومات الأمريكي في بيروت في نفس السنة ١٨/ ١/ ١٩٧٨ والتي أوضح فيها وجهة نظر الإدارة الأمريكية حول التسوية كما يلي :

١ ـ تبدأ التسوية بمصر أولاً في إطار معاهدة منفردة .

٢ ـ المرحلة الثانية تضم الأردن والفلسطينيين المعتدلين .

٣ ـ المرحلة الثالثة تضم سوريا والاتحاد السوفييتي في مؤتمر دولي للسلام يقر في جنيف[2] .

---

(١) بدايات الحركة الصهيونية في مصر العربية، مرجع سابق ص١١٦ ـ ١١٧ .

(٢) راجع كامب ديفيد وثائق وردود فعل، الاعلام المركزي للجهة الشعبية القيادة العامة ص٥٦ .

وقد أضاف بريجنسكي تصوراً آخر لتسهيل التسوية هو أن تسبق كل مرحلة حرباً تمهد لها.

وهكذا كان، فكانت حرب ١٩٧٣ ممهدة للتسوية مع مصر بما عرف من اتفاقيات شهيرة باسم كامب ديفيد سبقها زيارة أنور السادات للقدس قبل ذلك بسنة معللاً الأمر باختراق الحاجز النفسي بين العرب واليهود[١]. هذه الاتفاقية ذات شقين. ما يتعلق بالجانب الفلسطيني ويتحدث عن حكم إداري ذاتي محدود في الضفة الغربية وقطاع غزة، أما الشق الثاني من الاتفاق فيحدد خروج مصر نهائياً من المواجهة بحيث تصبح الاتفاقية أهم من أية ارتباطات لمصر في السياسة الخارجية، وهكذا تصبح بنودها قيداً أبدياً يربطها بإسرائيل وأمريكا، ويجعل من سيناء منطقة منزوعة السلاح، وتحدد اتجاه أية معاهدات عربية أو أجنبية تعقدها مصر.

تم اغتيال السادات بعد ذلك بثلاث سنوات (٢٣ تموز ١٩٨١) من قبل رجال وطنيين ذوي اتجاهات إسلامية يقودهم (خالد الإسلامبولي). وقد دلت الأحداث والتحقيقات بعد ذلك أن الولايات المتحدة سهلت عملية الاغتيال لأن السادات أصبح عبئاً واتسم تصرفه بالشذوذ وانهيار الأعصاب.

كانت الحرب الثانية هي اجتياح (إسرائيل) للبنان في حزيران ـ أيلول ١٩٨٢. وأدى ذلك إلى خروج منظمة التحرر الرسمية من لبنان نحو تونس، ولكنها لم تكن الحرب المعتمدة للتسوية، حتى جرت حرب الخليج الثانية المشهورة عام ١٩٩١ كانون ثاني التي سهلت دخول المرحلة الثانية في التسوية كما قال بريجنسكي، بين الأردن والفلسطينيين المعتدلين من جهة وإسرائيل من جهة أخرى. وأدت أيضاً فيما أدت إليه إلى إخراج العراق نهائياً من كونه عمقاً استراتيجياً للمواجهة مع العدو الصهيوني.

عقد مؤتمر مدريد في نهاية عام ١٩٩١ بسقف فلسطيني محدد للتسوية، وهو أقل مما أعطته اتفاقية كامب ديفيد وأصبح الاسم كما يلي «الحكم الذاتي الإداري

---

(١) راجع نص الاتفاقيات في الملحق، نهاية الكتاب.

المحدود». ونتيجة لذلك تم توقيع اتفاقيات أوسلو الأولى بمهرجان عجيب جرى في البيت الأبيض[1] وتبعت أوسلو الأولى اتفاقية وادي عربة بين الأردن و(إسرائيل). والحقيقة أن الاتفاقية كانت مجرد تثبيت الأمر الواقع بين الملك حسين من جهة والحركة الصهيونية من جهة أخرى[2]. فقد ثبت أن النظام الأردني يملك تاريخاً طويلاً من الاتصالات الودية مع قيادة الحركة الصهيونية جميعاً. والملك يعتبر الرئيس الفخري لمحفل الشرق الماسوني. وهكذا بقيت الحلقة الأخيرة من التسوية المتمثلة بسوريا والاتحاد السوفييتي والمؤتمر الدولي للسلام.

لقد أصبح معلوماً أن الاتحاد السوفيتي قد انتهى عام ١٩٩١ وكان قد انتهى قبل ذلك بزمن طويل عندما تولى غورباتشوف السلطة وقام بإعلان إنهائه رسمياً بعد توليه لها بخمس سنوات، وظل في المرحلة عنصران رئيسيان هما سوريا واحتمال حرب جديدة لإخراج التسوية معها إلى حيز التطبيق.

معالم النظام الشرق أوسطي الجديد:

لم يكن طرح مشروع كهذا جديداً على المنطقة. فقد بدأت التدخلات الغربية لترتيب الأمور في فترة ضعف الدولة العثمانية ومرحلة النهوض الأوروبي الصناعي الذي كان تتويجاً له انطلاق الثورة الفرنسية واستقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا وبدء مرحلة استعمار المنطقة انطلاقاً من شمالي أفريقيا.

طرح نابليون عند غزوة لمصر أفكاراً كهذه تمت الإشارة إليها في زوايا هذا الكتاب، ولكن التدخل الأبرز جاء في القرن التاسع عشر فيما عرف بالمسألة الشرقية

(١) راجع نص الاتفاقيات في الملحق، نهاية الكتاب.

(٢) قبيل احتلال العراق للكويت في صيف ١٩٩٠، قام الملك حسين بزيارة إلى أمريكا اتسمت بالغرابة، في ظاهرها التوسط لإنهاء الأزمة.. كتبت الواشنطن بوست في عددها الصادر في تشرين ثاني أن تلك الزيارة تتم بين صديقين قديمين خاصة عندما كان الرئيس بوش مديراً للـ سي. آي. إي. وكان الملك موظفاً عنده. وذلك يفسر حقيقة موقف الملك المؤيد للسلطة العراقية في الأزمة بهدفين أساسيين: رفع البساط من تحت أقدام الوطنيين الفلسطينيين بأنه أكثر منهم وطنية وحمية.. تأمين إقرار المعاهدة القادمة مع اليهود دون ضجيج وهذا ما جرى.

وخطط اقتسام الدولة العثمانية وحماية الأقليات المسيحية وطرح الكيان اليهودي في فلسطين. أما ما يطرح حالياً فهو يختلف بالدرجة وليس بالجوهر، إنه ببساطة فرض القرار الأمريكي بالدرجة الأولى على المنطقة المسماة بالشرق الأوسط. وهذا المصطلح تم تحديده حسب مصالح ورغبات القوى الغربية المهيمنة. فهو أحياناً يقتصر على الجزيرة العربية ومصر، وأحياناً يمتد لتشمل إيران وباكستان وتركيا ودول جنوبي روسيا الإسلامية، أي باختصار هو الوطن الإسلامي تقريباً.

في هذا الشرق المسلم دولتان غير إسلاميتين اصطلاحاً هما: لبنان وفلسطين، وبصرف النظر عن طبيعة نشوءهما، فإن إسرائيل هي المعنية الرئيسة بهذا النظام المقترح.

طرحت الولايات المتحدة مسألة إقامة نظام إقليمي جديد في المنطقة بعيد نشوب حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ تضمنت مجموعة من القواعد لخصها التقرير الصادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية في الأهرام:[١]

١ ـ أن تكون للولايات المتحدة الكلمة العليا والأخيرة في التخطيط الأمني باعتبار مصالحها الخاصة في أمن الخليج واستقراره.

٢ ـ التشاور مع حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة لتحديد ما يلزم لحماية مصالح هذه الدولة وبمبادرة منها.

٣ ـ تكثيف الوجود البحري باعتباره أساس الترتيبات الأمنية وإلغاء الوجود البري بعد انسحاب العراق.

٤ ـ تطوير إشكال التعاون العسكري الثنائي بين أمريكا من جهة وأصدقائها العرب وإسرائيل من جهة أخرى.

٥ ـ الاعتماد على الأمم المتحدة في القيام بدور هام بما في ذلك: مساعدة

---

(١) زهير غزاوي: حول مشروع النظام الشرق أوسطي الجديد، جريدة المنتجون، طرابلس العدد ٨٥٦.

العراق والكويت على ترسيم الحدود المشتركة، ومراقبة المنطقة المنزوعة السلاح بينهما.

٦ ـ تعزيز التعاون بين دول الخليج مع بعضها وكذلك مع الولايات المتحدة والشركاء الأمنيين الآخرين بما في ذلك إسرائيل وتركيا ودول أوروبا الغربية وروسيا.

٧ ـ تدمير قدرات العراق العسكرية وقدراته المستقبلية في أن يكون قوة قادرة على التهديد الفعال.

٨ ـ فرض قيود إقليمية على التسلح في منطقة الشرق الأوسط مع الحفاظ على تفوق إسرائيل وأمنها.

٩ ـ إنشاء نظام للتعاون الاقتصادي بين دول المنطقة جميعاً.

وبعد مجيء كلينتون إلى السلطة عام ١٩٩٣، أضافت الإدارة الأمريكية خططاً جديدة تتعلق بإيران الإسلامية والسودان، لما تعلقه تلك الإدارة من أهمية على مساهماتهما في دعم القوى الثورية الإسلامية التي تناهض الخطط الغربية ـ الإسرائيلية للهيمنة. وهكذا تم توسيع المشروع ليشمل تركيا كونها عضواً في الحلف الأطلسي ليكون لها الدور الثاني بعد إسرائيل في الهيمنة كوكلاء للغرب.

وإذا نظرنا بشكل أكثر عمقاً إلى ما يصدر عن الولايات المتحدة الأمريكية من تفاصيل لمشروعها فإن خير معبر عن وجهة نظرها كان (مارتن انديك) [اليهودي العضو البارز في قيادة الحركة الصهيونية ومستشار الرئيس للأمن القومي سابقاً وسفيرها لدى إسرائيل حالياً] والتي يمكن تلخيص خطوطها العريضة كما يلي: يتضمن المشروع ثلاثة خطوط رئيسية: الأول حول أهداف السياسة الأمريكية والثاني حول الاستراتيجية الإقليمية لأمريكا. والثالث الخطوات التنفيذية المقترحة.

أولاً: يمكن تحديد الأهداف الهامة بالسعي إلى تحويل العملية السلمية في المنطقة إلى عملية صنع السلام وتحقيق اختراق مبكر بالتوصل إلى اتفاقات

سلام[١]، والمحافظة على توازن القوى في المنطقة إلى مستوى منخفض إلى درجة كبيرة بالقوات العسكرية التي يمكن أن تهدد مصالح أمريكا. ويتم ذلك أولاً بمساعدة شعوب المنطقة وحكوماتها لمواجهة التهديد المتنامي من المتطرفين الدينيين[٢]. وبالسعي الدؤوب إلى صنع سلام من جهة وإلى احتواء الإسلاميين المتطرفين من جهة أخرى. وذلك بالسعي الدائم إلى دفع التطور السياسي الديمقراطي والتطور الحر لاقتصاديات السوق.

ثانياً: تحدد الخطوط العريضة للاستراتيجية الأمريكية في المنطقة بالاعتماد المتبادل بين الشقين الشرقي والغربي للمنطقة وذلك باحتواء التهديدات القادمة من إيران والعراق في الشرق وتعزيز السلام بين إسرائيل والعرب في الغرب بمساعدة الحكومات الصديقة في خلق حياة أفضل لشعوبها، أفضل من تلك التي يعرضها دعاة العنف (من القوى الثورية الإسلامية أو القوى الأخرى التي يمكن أن تبرز).

ثالثاً: الخطوات التنفيذية: تتلخص بالسعي للاحتواء المزدوج للعراق وإيران، وتعزيز السلام العربي الإسرائيلي ودعم جهود كبح انتشار أسلحة الدمار الشامل وتعزيز تصور منطقة أكثر ديمقراطية وازدهاراً. ويتم الاحتواء المزدوج بتقييد الطموحات العسكرية للعراق وإيران والاعتماد على التحالف المتكون من مصر وإسرائيل وتركيا ودول التعاون الخليجي للمحافظة على توازن القوى لمصلحة أمريكا.

ومن الواضح أن النظام له رأس وحيد محلياً هو إسرائيل، تليه تركيا كقوة عسكرية واقتصادية وموثوقة ثانياً. أما الدول العربية فليس لها أي دور إقليمي إلا

---

(١) كان احتياطي الاتفاقات الجاهزة يتمثل بالنظام الاردني اولاً وبالقيادة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية ثانياً وهو تقنية التقرر بالاختراق المبكر فقد كانت هناك محادثات سرية في اوسلو منذ زمن طويل بين قيادة عرفات واسرائيل.

(٢) ظل تعبير المتطرفين الدينيين او الاصوليين، او الارهاب الاصولي يشمل كل القوى الاسلامية التي لا ترتبط بالسلطات القائمة ويأتي في طليعتها: حزب الله في لبنان، الحكومة السودانية، حركة النهضة الاسلامية في تونس، الجبهة الاسلامية للاصلاح في الجزائر، القوى الاسلامية الثورية الفلسطينية (حماس ـ الجهاد الاسلامي).

التبعية المطلقة. وكما نرى فإن المملكة السعودية لم يرد ذكرها بشكل مميز بدور إقليمي خاص بها خارج إطار مجلس التعاون الخليجي. وما يتعلق بالاحتواء المزدوج للعراق وإيران فإن ذكر العراق في المشروع جاء لمجرد طمأنة الأنظمة الخليجية بأن أمريكا لم تجر أية صفقات مع النظام العراقي من وراء ظهرها.. علماً أن الكويت مثلاً لا زالت تشك بوجود صفقات مثل هذه، خاصة بمعرفتها بمقدار الصلة الوثيقة لهذا النظام مع مركز القرار الأمريكي ودوره السابق في الهجوم على إيران الإسلامية في بداية انطلاق الثورة، مما أدى فعلاً إلى التأثير على دور إيران الإسلامية الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط.

ينص المشروع كما هو واضح على الحفاظ على التفوق النوعي العسكري (لإسرائيل) على جميع دول المنطقة، وهذا يشمل الإنهاء المطلق لدور العراق المستقبلي وتدمير قدراته البشرية أيضاً بإبقاء الحصار المفروض إلى أمر غير محدود.. أما الأهداف المستترة فهي إنهاء التضامن العربي حتى بحدوده الدنيا المتمثل بجامعة الدول العربية، التي لم يعد لها أي دور على المدى المنظور. وهذا ما يبدو من خلال طرح المفاوضات المتعددة الأطراف، ويشارك في المتعددة كما هو معروف أطراف عديدة أوروبية وغير أوروبية. ويظل المخزون النووي (الإسرائيلي) دون مساس وغير خاضع للرقابة ومحافظ عليه بعدم طرحه للنقاش على أي مستوى إقليمي في المتعددة وغيرها. ويضاف إلى ذلك مشروع جر مياه الفرات إلى الكيان الصهيوني ودول الخليج عبر سوريا والأردن على رأس موضوعات المتعددة كمحصلة نهائية للتسوية وبلورة المشروع على صعيد التطبيق[1].

هذا ويرى السياسة ورجال الأعمال في أمريكا وأوروبا واليابان، أن الشرق الأوسط، بعد انجاز التسوية السلمية، سيصبح من أكثر أقطار العالم ازدهاراً (تحقيقاً

---

(١) ان ما اوردناه اعلاه هو مجرد تكثيف شديد للخطوط العامة للمشروع بما في ذلك اشارات الى السوق الشرق اوسطية المزمعة والبادية ملامحها من خلال المؤتمرات الاقتصادية الضخمة، اما في المغرب او عمان او غيرها وهذا لا يغني عن مراجعة عشرات الكتب التي نشرت حول هذا الموضوع.

للمقولة الثانية في المشروع الأمريكي المتعلقة بخلق حياة أفضل لشعوبها أفضل من تلك التي يعرضها دعاة العنف والثورية) كما أن إقامة السوق الاقتصادية المشتركة ستعنى ازدهار اقتصاد المنطقة في مختلف القطاعات وخاصة في قطاعات التجارة والاستثمار والصناعة التحويلية والزراعة[1] وبالعودة إلى الدور التركي في هذا المشروع فإن ما يجدر قوله هو أن تركيا وإسرائيل يتطلعان إلى تحالف استراتيجي رئيسي في المنطقة قد يشمل مصر وربما السعودية ولكن الواضح حتى الآن أن دور مصر لا يعدو الوساطة بين الأطراف العربية من جهة وإسرائيل من جهة أخرى، ولم يسجّل لها دور إقليمي يعبر عن قدراتها البشرية في المحيط العربي والإسلامي، ، وهي كانت تحتل هذا الدور حتى العام ١٩٧٠، ثم فقدته تماماً بعد انفرادها بتوقيع كامب ديفيد مع إسرائيل.

أما السعودية فقد تم ابتزازها مالياً في حرب الخليج لدرجة لم تعد تستطيع معها أن تؤثر في سعيها لاحتلال مكان ما في النظام المقترح، علماً أنها تساهم في دعم صندوق الصناعات العسكرية التركي بمبلغ معلن يعادل ٢ مليار دولار مشاركة مع الكويت، ولتساهم دولة الإمارات بـ ٥٠٠ مليون دولار وتسعى لدعم مشروع أنبوب المياه التركي لكي تقايض الماء بالنفط.. وهذا بالتأكيد يعزز «تركيا الإقليمي». وتظل تركيا بخدماتها ومواردها والتزامها التام وتعاونها المطلق مع إسرائيل هي المرشحة للدور الثاني في المشروع.

يعتقد بعض الباحثين العرب أن ما هو مخطط امبريالياً في المركز لا يمكن مقاومته، وأن تسوية القضية الفلسطينية سوف تتحقق والتسوية الشاملة بين العرب وإسرائيل ستتحقق هي الأخرى، وأن التسوية العربية الإسرائيلية هي اليوم المحور الأساسي في استراتيجية الغرب في المنطقة، وهي الشرط الضامن للسلام والاستقرار المديد والمقدمة الأساسية للنظام الشرق أوسطي والسوق الحرة المرافقة له.. وهم يصرّون على أن إسرائيل بحاجة ملحّة إلى تسوية شاملة ونهائية لنزاعاتها

---

(١) عامر عبدالله، آراء في ملامح النظام الإقليمي الجديد (حرب الخليج ومسار السلام في الشرق الأوسط، منشورات نادي الكتاب العربي، لندن، ١٩٩٤، ص١٣).

وحروبها المتكررة مع جيرانها العرب، ذلك أنها عاشت خمسة عقود معزولة محاصرة في بيئتها الجغرافية، وتحتاج للانطلاق من البيئة العربية وفرض تواجدها في المحيط العربي بما في ذلك نصيبها من النفط والثروات التي قد تغنيها عن المساعدات والقروض الأمريكية[1].

إن وجهة نظر كهذه تفتقر إلى الفهم الحقيقي أو ربما أنها تتناسى واقع الحركة الصهيونية وعمق تحالفها مع الصهيونية الأوروبية والأمريكية.. وقد يحتاج هؤلاء إلى إعادة قراءة أدبيات الصهيونية وتحالفتها. وكل ما تقدم يطرح سؤالاً مصيرياً على كل الباحثين والذين يطمحون للمقاومة هو: هل ترغب الامبريالية بخلق منطقة شرق أوسطية إسلامية مزدهرة حقاً؟ وهي هي معنيّة برفاهية وديمقراطية وازدهار شعوب المنطقة بحيث تستطيعون التقدم نحو اللحاق بالشمال الغني المزدهر؟ وهل تريد إسرائيل تسوية سلمية فعلاً؟ نحن نرجّح استناداً إلى المقدمات التاريخية لحركة الأحداث في المنطقة العربية الإسلامية بما في ذلك الوضع المنحدر في تركيا الإسلامية ذاتها بوقوعها الكامل تحت السيطرة الامبريالية الصهيونية، وإنزلاق شعوب المنطقة نحو الفقر المتزايد، رغم جحيم الموارد النفطية الهالكة، لا يساعد على الوصول إلى نتائج كالتي وصل إليها أولئك الباحثون، وأخيراً وفي ظل المخططات المكشوفة حتى الآن لن تشهد المنطقة السلام.

٤ ـ المفهوم الصهيوني للسلام:

لا يخفى اليهود أن الصهيونية تعبيرهم الشامل عن الملامح القومية لوجودهم وأهدافهم ولا يخفى العهد القديم أن الله أعطى لليهود وعداً إلهياً أبدياً بفلسطين التي هي أرض كنعان تارة، وأرض العماليق تارة أخرى.. وفوق هذا وذاك منحهم صلاحيات إبادة شعب المنطقة كله، بل وحدد لهم حدودها التي نراها متفاوتة اتساعاً أو ضيقاً بين نص وآخر (إصحاح أو سفر وآخر) فإذا قرأنا بعضها نجد مثلاً في سفر

---

(١) المرجع السابق ص ٧.

التكوين الإصحاح ١٥ الفقرة ١٨، وكذلك في سفر ايشوع الإصحاح الأول فقرة ٣، ٤، ما يلي:

«في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً، لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

الفقرة الثانية ربما كانت أكثر وضوحاً ومرونة فهي تقول «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه.. كما كلمت موسى، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو الغرب يكون تحتكم» وجاء في التكوين أيضاً «وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً..» سفر التكوين الإصحاح ١٧.

نجد هنا اختلافاً في الدرجة فالمنحة لا تشمل إبراهيم(ع) فقط بل ولنسله من بعده مضافاً إليه كلمة (أبديا). وهذا يعني أن على القارىء أن يدقق في الأنساب التي لم يقصر اليهود في شرحها وتفصيلها على أية حال، وأن يؤمن مع ذلك أن هؤلاء الموجودين الآن جاؤوا من نسل أولئك قبل آلاف السنين. ويقول في سفر التثنية إصحاح ٧ «لأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفى الرب أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على الأرض».

لم تكن الخطورة في النصوص أبداً، بل أنها تكمن عملياً في القطاعات الفاعلة التي تؤمن بها وتعمل من أجلها، فالأفكار تصبح قوى مادية عندما تتبناها الجماهير. ومعلوم أن العهد القديم يؤلف مع العهد الجديد كتاباً مقدساً واحداً يؤمن به المسيحيون في العالم.. وأن هؤلاء يمتلكون التقنية والحضارة الحديثة والتقدّم. وأن بعضهم متعصب لكل الخرافات التي وردت في العهد القديم وخاصة في مراكز القرار الأمريكية[1].

---

(١) القس أكرم لمعي، الاختراق الصهيوني للمسيحية، دار الشروق، بيروت ١٩٩١ ص ٢٠٠ يقول «في عدد ديسمبر ١٩٨٥ نشرت جريدة الصنداى تايمز «وأن اهتمام الرئيس ريغان بهذه العقيدة [أي ظهور المسيح ومعركة هرمجدون وحكم اليهود للعالم ألف (سنة قادمة] جعلت موظفي البيت الأبيض والحكومة يحسون بالرعب لئلا تؤثر هذه العقيدة في صنع القرار السياسي لأمريكا فالمؤمنون بهذه العقيدة يعتقدون أن روسيا =

إذن ما هو شكل السلام الممكن تحت ظلال الإيمان بالحق في أرض الغير بحدودها المرنة القابلة للتمدد، وبحق الاستيطان فيها وأنها لهم إلى الأبد. يقول مناحيم بيغن (رئيس وزراء سابق مواليد بولندا ١٩١٣ والذي وقع معاهدة كامب ديفيد مع السادات): لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا في أرض إسرائيل ولن يكون سلام للعرب أيضاً ما دمنا لم نحرر وطننا بكامله حتى لو وقعنا معاهدة صلح. .»[(١)]. ويقول جابونتسكي (يهودي روسي من زعماء الحركة الصهيونية) «هل حدث أن تخلى شعب ما عن أرضه برغبته الخالصة إذن فلن يقبل العرب ذلك إلا تحت ضغط الإجبار والقهر. .» ويضيف مستنداً إلى فصل من سفر الخروج يبرر القَتل ـ ومعلوم أن هذه النصوص تملأ العهد القديم «فإني أرفع إلى يديك سكان الأرض (يقصد فلسطين) فتطردهم من أمامكم ولا تقطع مع آلهتهم عهداً ولا يسكنوا في أرضك لئلا يجعلوك تخطىء».

يقول المذكور سالفاً أيضاً «إن الهجوم على العرب ليس عدواناً بل دفاع عن النفس». وعلى ضوء هذا الاعتقاد العجيب يتساءل الباحث عن أي سلام ممكن قادم وشكل هذا السلام.

ولم يقصر زعماء الصهيونية في شرح هذا المفهوم للسلام، وربما ظل مناحيم بيغن أكثرهم صراحة فهو في مذكراته المعنونة قصة الأرجون (وهي عصابة للقتل كان يرأسها مسؤولة عن مجزرة (ديرياسين) يقول «إن الأسلحة العبرية هي التي ستقرر حدود الدولة العبرية، هكذا كان الحال في هذه المعركة وهكذا سيكون في المسقبل، إن الأرض التي وعدنا بها الله أرض موحدة وأن أية محاولة لتمزيق أوصالها ليست جريمة فحسب بل أنها كفر وضلال(. . .) لا يمكن أن نشتري

= سوف تهاجم إسرائيل لذلك كان ريغان يحس بعدم الثقة في علاقته مع روسيا وفي دورها في الشرق الأوسط».

(١) محمود الشاذلي، السلام عليكم «دراسة في أدبيات السلام الإسرائيلي» ١٩٩٢، مكتبة وهبة، القاهرة ص٨٩ ـ ٩٠.

السلام من أعدائنا بالمصالحة: إن هناك نوعاً واحداً من السلام يمكن أن يشترى إنه سلام المقبرة».

أما عن القدس فهي العاصمة الموحدة إلى الأبد، «ولا بد أن تعود أرض إسرائيل، إلى شعب إسرائيل كلها وإلى الأبد».

والواقع أن مسألة الأبد هذه تتكرر كثيراً في عباراتهم، فلا بد أنهم يرون إلى التحالف القائم مع مصادر القرار من الذين يؤمنون نفس إيمانهم، وبصرف النظر عن الإيمان، فإنهم يتلاقون بذات المصالح على أقل تقدير.

هذه الثقة جعلتهم يحددون خمسين سنة منذ بداية المؤتمر الأول عام ١٨٩٧ لإعلان الدولة على أرض فلسطين، وأضافوا إليها خمسين عاماً لقيام إسرائيل الكبرى وفرض الصلح على العرب(١). بل أنهم رسموا على القطعة النقدية من فئة ١٠ آغوار خريطة تحدد تماماً مساحة إسرائيل الكبرى وهي تشمل فيما تشمل: فلسطين، لبنان، الأردن، نصف مساحة سوريا بما في ذلك دمشق، ثلثي مساحة العراق، نصف جزيرة سيناء، شمال الجزيرة العربية حتى المدينة المنوّرة.. وهناك تعديل جديد يجعل حدودها تتصل بالحدود الإيرانية العراقية في الوسط تماماً.

وهناك خارطة منشورة مشابهة توجد في دائرة معارف الكتاب المقدس، وكذلك المجلة الجغرافية تضم في إطارها بغداد والمدينة المنوّرة حتى خيبر(٢).

هي إذن حدود مرنة تفرضها القوة القاهرة والاستسلام والضعف المقابلين في أقطار عربية جرى ترتيب الأنظمة فيها لقبول هذا المخطط بعد تحويل شعوبها إلى أرانب، (بالقمع والقهر) وكما رأينا فإن المخطط يشمل تعديلاً بسيطاً حسب مشروع النظام الشرق أوسطي الجديد، فبدلاً من الاحتلال المباشر يأتي البديل عبر النفوذ الاقتصادي والسياسي على المنطقة الإسلامية بالشراكة مع الولايات المتحدة

---

(١) إن نظرة متفحصة لمسار الأحداث تبدي الدقة في التخطيط، أعلنت إسرائيل ١٩٤٧ ويتوقع فرض الاستسلام على العرب جميعاً عام ١٩٩٧.

(٢) فارس شرعان، الطوفان، أو إسرائيل الكبرى، ط١، ١٩٩٠، عمان، ص١٣ ـ ١٥.

الأمريكية (الحليف الأيديولوجي عبر الكتاب المقدس وحليف المصالح المستقبلية) وإعطاء حصة ما لأوروبا الغربية.

يقول بعض دعاة السلام العرب أن اليهود في (إسرائيل) يقبلون بالسلام على أساس الاتفاقات الحالية وأن السلام يساعد على تحجيم الدولة وفي المدى البعيد يؤدي إلى نهايتها.. ويطالب اليهود مقابل السلام بالتطبيع وهذا يعني غسل أدمغة الأمة العربية من خلال وسائل الاعلام الملتزمة بعدم إثارة العداء لإسرائيل وبالحديث عن محبتها وصداقتها وكذلك بتعديل المناهج الدراسية التي تتحدث عن دولة إسرائيل والصهيونية كعدو. وبالمقابل ماذا يجري عندهم؟

جرى في الكيان الصهيوني استفتاء على سفر يوشع بن نون عام ١٩٦٨[١] ومقوله ذبح جميع سكان أريحا والقرى المجاورة. وزعت الاستمارة في مدارس تل أبيب وفي مدينة شارون ومستعمرات أخرى بسؤال محدد: هل توافق على ما فعله يوشع بن نون؟ وجاءت الأجوبة معبّرة فعلاً عن التربية الصهيونية تعبيراً جلياً.. فلم يتحدث التلاميذ عن السلام مطلقاً، فقد قال أحدهم «لم يكن لدى يوشع ابن نون وقت لإضاعته مع الأسرى، وليس من المرغوب فيه أن يكون في إسرائيل عنصر غريب» هذه الأجوبة تشكل حتى ٩٥٪ من الإجابات.. وحول سؤال آخر أكثر تطرفاً يقول: هل يمكن في عصرنا الراهن تصفية جميع سكان مدينة عربية محتلة: أجاب ٣٠٪ من التلاميذ بشكل قطعي: نعم.

ببساطة ووضوح تظهر الخطط المعلنة للاقتصاد الإسرائيلي والاستيطان والهجرة أن الحركة الصهيونية تخطط لتجميع أكبر عدد ممكن من اليهود في فلسطين.. وإذا نظرنا إلى هجرة اليهود السوفييت مثلاً فإن مقدماتها تبدي تجمعاً يسعى لخلق دولة عظمى ليست حدود فلسطين الحالية بمن فيها العرب قادرة على استيعابهم.. ويكفي أن نعلم أن موازنة الاستيطان وتطور الاستيعاب تصل إلى حدود ١٨ مليار دولار حتى عام (٢٠٠٠) لاستيعاب كل المهاجرين الجدد (علماً أن

---

(١) احذروا الصهيونية، مرجع سابق، ص٣٩.

موازنة سوريا السنوية هي مليارا دولار) قدمت الولايات المتحدة منها قرضاً بمقدار ١٠ مليارات دولار مقابل تطوير محادثات السلام مع الفلسطينيين والأردن فقط . . ومعلوم أن القروض المدفوعة لإسرائيل غالباً ما لا تسدّد وتعتبر هبات ومساعدات .

في هذا الكيان يتجمع بالهجرة عادة نخب مثقفي الطائفة اليهودية الملتزمة صهيونياً من كل أنحاء العالم . وإذا أخذنا مثالا إحصائياً عن مهن اليهود الروس المهاجرين إلى فلسطين من شريحة مقدارها ٢٠ ألفاً منهم فإننا نجدها كما يلي :

٢٧٠٠ مهندس مدني ـ ٢٨٣٧ مهندس ميكانيك ـ ٢٧٣٥ مهندس معماري ـ ١٧١٣ خبير كمبيوتر ـ ١٥٢٠ مهندس كهرباء ـ ١٣١٩ مهندس الكترون ـ ١٥ مهندس مواصلات ـ ١١٠ علماء وبحاثة من مستويات عالمية ـ ٢٢٧٠ طبيب ـ ٢٠٠٠ أكاديمي (مدرسو جامعات وخبراء) ـ ١١٤ بيولوجي ـ ٢٧٨٠ متخصص بالمكتبات ـ ٦٤ صحفي ـ ٧٥ مترجم ـ ٣٠ طبيب نفسي ـ ١٩ محامي ـ ٢٦٤٢ معلم مدرسة ـ ٢٩٤ متخصصة في رياضة الأطفال ـ ١٢٦٥ اقتصادي ـ ١٣٩٩ محاسب ـ ١٨٤٩ فنان[١] .

يبلغ عدد اليهود في الكيان الصهيوني ٦,٥ مليون نسمة حسب ما هو متوقع عام ١٩٩٤ ، وما هو متوقع عام ١٩٩٦ يصل إلى ٨,٥ مليون وإلى عشرة ملايين في العام ٢٠٠٠ ، وهذه الأعداد مع ما يبدو من تطور الهجرة ونوعيتها التقنية الطاغية ، وإذا علمنا أن الجميع من الشباب غالباً ، لأمكننا أن نتخيل ماهية مسار الأحداث القادمة ومدى حاجة الأنظمة العربية المشمولة بالخارطة المعلنة إلى الحماية الأمريكية حتى لا يبتلعوا من قبل الحركة الصهيونية .

أما بالنسبة للاتفاقات مع الفلسطينيين فإن مستقبلها معروف بأوضح صورة من خلال نظرة إلى الخرائط الموزعة على اليهود السوفييت الذاهبين إلى فلسطين : فهي تحمل عنوان إسرائيل الكاملة . . وفي هذ الخريطة تختفي تماماً معظم معالم الضفة الغربية وقطاع غزة ببقع ملوّنة تمثل المستوطنات المزمع إنشاؤها . . مشيراً في الوقت

(١) الطوفان ، مرجع سابق ، ص ٤٩ ـ ٦٣ .

ذاته إلى ما عودتنا عليه الأحداث إن ما خطط له لا يمكن التراجع عنه وأن الاستيعاب لا بد أن يتم حتى لو أدى ذلك إلى طرد الفلسطينيين جميعاً من الضفة والقطاع[1].

وعلى هذه القاعدة نشير إلى أن بعض الدول العربية خاصة دول الطوق تضع مخططات حدودية لمنع دخول الفلسطينيي المطرودين إليها وتدفع باتجاه عودتهم إلى فلسطين[2]، ولكن في ظل تفكك عربي وإسلامي هو أحد سمات المرحلة . . وصولاً إلى أن الأوضاع العسكرية والاقتصادية والاجتماعية وانعدام الديمقراطية والقمع، تؤشر إلى استطاعة الكيان الصهيوني منفرداً بعيد امتلاكه لهذا العدد من المهاجرين، أن يحطم حدود دول الطوق جميعاً ويفرض التهجير.

نظرة إلى المسيحية اليهودية الحديثة:

يحاول العرب والمسلمون إقناع الغرب المسيحي بشكل عام وبمختلف الوسائل أن ليس لليهود حق في فلسطين، وينطلق ذلك من مقولات تعتمد عل
العهد القديم ذاته، وأيضاً من خ
الكتاب المتصل بالأناجيل حول عودة المسيح إلى إسرائ
قيام الدينونة. وليس من شك في أن بعض المفكرين المسيحيين يرفضون تلك المقولات حفاظاً على الكنيسة ذاتها، ومن هؤلاء على سبيل المثال: الكنيسة الإنجيلية في مصر التي تتبع المصلح جون كالفن وترفض كل ما يتعلق بوجود إسرائيل في فلسطين.

أما قطاعات واسعة من المسيحية الأوروبية والأمريكية فهي تتخذ من هذه المقولات عن عودة المسيح وقيام إسرائيل شعاراً لها. ناهيك عن الدوافع الاقتصادية والأيديولوجية المعادية للإسلام في أذهان بعض أقطاب الكنائس المرتبطين بالسلطات وتفرعاتها من احتكارات اقتصادية عالمية.

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣ ـ ٨٢.

(٢) وردت تلك المخططات على ألسنة وزراء الداخلية العرب، وما جرى في ليبيا عام ١٩٩٥ يشكل مثالاً على نوايا الدول العربية تجاه فلسطين.

على هذه القاعدة عقد في القدس عام ١٩٨٨ المؤتمر المسيحي ـ اليهودي في نيسان وقد دعا من ضمن ما دعا إليه «دعم إسرائيل استناداً إلى فكرتين هما: علاقة إسرائيل الخاصة بالله كشعب، والثانية أن عودة اليهود إلى فلسطين وتأسيس الدولة يعجل بالمجيء الثاني للمسيح والذي أحد شروط مجيئه تأسيس إسرائيل لتحكم من أورشليم العالم ولمدة ألف عام»[١].

يقول أحد أقطاب هذه الفكرة وهو جون وليم «بخراب أورشليم عام ٧٠ ميلادية اتجه الله إلى كل الأمم ليقيم معها علاقة (نقصد عبر المسيح والرسل) وبعد أن أنهى زمن الأمم الآن عاد الله مرة ثانية ليلتفت إلى إسرائيل، وعلامة انتهاء زمن الأمم هي عودة اليهود إلى فلسطين وتأسيس الدولة، ولذلك فمستقبل المسيحيين في العالم يتحدد بدعم إسرائيل مادياً لكي يعود المسيح ثانية».

أما المفكر درهوفن فكان أكثر تحديداً عندما أوضح أن الكنيسة التي لا تتبع هذا الطريق سوف تنتهي مثل الدخان، وأن المسيحية طائفة يهودية خرجت من أصلها والآن يعود الفرع إلى الأصل ويجب أن يتخلى المسيحيون عن جنسياتهم ويعودون إسرائيل الله... كان من مقررات هذا المؤتمر: ١ ـ مناشدة القادة العرب اتباع استراتيجية السلام الإسرائيلي. ٢ ـ تشجيع توطين اليهود في الضفة وقطاع غزة. ٣ ـ تشجيع زيارة اليهود في فلسطين. ٤ ـ نقل السفارات جميعاً إلى القدس. ٥ ـ مناشدة وسائل الاعلام بعدم انتقاد إسرائيل. ٦ ـ تشجيع السياحة إلى إسرائيل[٢].

ولكي لا نستهين بهذا التيار نشير إلى قرار الكونغرس في الولايات المتحدة في شهر تشرين أول ١٩٩٥ بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس عام ١٩٩٩[٣]

(١) القس اكرم لمعي، الاختراق الصهيوني للمسيحية، مرجع سابق، ص١٣٣ ـ ١٣٦.

(٢) المرجع السابق، ١٤٠.

(٣) لا بد من الاشارة الى أسطورة معركة هرمجدون التي ـ وردت في رؤيا يوحنا اللاهوتي ـ وهي مكان عند بحيرة طبريا تحدث بين المؤمنين اليهود من جهة والكفار (وهم العرب والفرس والافارقة) من جهة اخرى ويتم ذبحهم بقيادة المسيح المخلّص العائد ليحكم العالم الف سنة قادمة.

والإعلانات المستمرة في وسائل الاعلام الأمريكية عن أن الصلاة والصوم لا تقبلان عند الله إلا إذا ابتعد المؤمن عن انتقاد إسرائيل.

هذا التيار شكل وسائل إعلامه الخاصة ورصدت من أجل ذلك مئات الملايين من الدولارات ومن هذه الوسائل: ١ ـ إذاعة الشرق الأقصى من كاليفورنيا، شعارها لنذهب إلى الصين من أجل المسيح (يقصد أمريكا). ٢ ـ الفترة المخصصة للقس جيمس سواجارت في التلفزيونات الأمريكية البارزة حول استحالة السلام على الأرض، وهو ينادي بالحرب النووية ومعركة مجدون وملك المسيح القادم[١].

ولعلّ هذه الأسطورة تلاقي قبولاً عند كثير من المسيحيين في الولايات المتحدة والغرب وتنتشر كالنار في الهشيم في أذهان الشباب. وما اختيار العام ١٩٩٩ لنقل السفارة الأمريكية إلى القدس إلا رمزاً لنزول المسيح قبيل نهاية القرن. في تقريرها السنوي أعلنت منظمة حقوق الإنسان من قبرص عام ١٩٩٠ أن جماعات أصولية مسيحية تؤازرها الكنيسة، تسعى إلى تشجيع الأصولية المسيحية المتطرفة والهدف: هو إيجاد عدو بديل يفسّر على أنه موجود الآن ـ بعد نهاية الاتحاد السوفييتي ـ في الدين الإسلامي المنتشر في العالم الثالث. وتتضمن تلك الأصولية الإيمان بالألفية المسيحية وموقعه هرمجدون التي يسيطر في نهايتها اليهود على العالم تحت وصاية المسيح العائد» هذا التقرير يلخص الثغرات التي استطاعت الصهيونية النفاذ منها إلى العقيدة المسيحية قديماً وحديثاً. ولكن خطورة المسألة تنبع من اقتراب الموعد المحدد في رأيهم لنزول المسيح.

والجدير ذكره في هذا المجال بأن ذلك الاعتقاد (أي عودة المسيح) أيضاً في

---

(١) المرجع سابق، ص١٤٣.

التراث الإسلامي في أوثق الصحاح المعتمدة وقد وردت في أحاديث متعددة للرسول محمد(ص) مرفوعة إليه، (أعتقد أن لا أساس لها من الصحة كأحاديث نبوية) فهي تتحدث عن مجيء مسيح دجال ينخدع به العالم قبيل نزول المسيح الحقيقي، ويتم ذلك قبل يوم القيامة[١]، ولم تحدد الأحاديث زمن النزول إلا من خلال علامات يُعرف بها. وفي التلمود اليهودي[٢] حديث عن المسيا (ويفسرونه بأنه المسيح العائد) الذي يقود ثورة تحرير ضد الرومان ويحرر الأرض ويعيد المشتتين من أقصى الأرض إلى أورشليم، وينسب بن غوريون (زعيم صهيوني تولى رئاسة وزراء إسرائيل عن حزب العمل عند تأسيس الدولة، إلى رؤيا الخلاص المسيّائي، ذلك الدور الرئيسي في توجيه الشؤون والمصائر اليهودية نحو وجهتها المعروفة، ومنها نبعت فكرة العودة إلى إسرائيل، كما ينسب إلى موسى بن ميمون الفكرة القائلة باسترجاع الكيان السياسي اليهودي في فلسطين باعتباره أمراً وثيق الصلة لمجيء العصر المسيّائي[٣]. ولا يمكن أن يأتي المسيح أو المسيا إلا بعد إقامة المجمع الديني الأكبر أو السنهدرين في فلسطين.

هذه النظرة التاريخية المنسحبة نحو الحاضر ترتبط ببناء الهيكل أو المجمع

---

(١) السيد محمد الصدر، تاريخ الغيبة الكبرى، مكتبة الإمام علي، أصفهان، إيران، ص ٤٨٣ ـ ٥١٦، وقد ورد فيه ما يلي عن صحيح مسلم «يقول الدجّال أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاهما» وعن ابن ماجه عن الرسول قال «إن أيامه أربعون سنة، السنة كنصف السنة والسنة الشهر والشهر كالجمعة وآخر أيامه كالشرر. . الخ» وعن مسلم عن الرسول قوله «فبينما هو كذلك (أي الدجّال) إذ يبعث الله عيسى المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، فيطلبه فيدركه بباب لدّ فيقتله».
وهناك أحاديث مشابهة في الصحاح المعتمدة.

(٢) التلمود كناية عن فقه شرعي وتفسير كتاب التوراة، ويبلغ ما فيه من وصايا ٦١٣ وصية، ويعرف التلمود باسم ميشنا، ومعناه بالعربية (الثاني بعد التوراة).

(٣) أسعد رزق، التلمود والصهيونية، دار الناشر، بيروت ١٩٩١، ص ٢٨٤.

الديني الأكبر، وكما هو واضح لا يمكن أن يتم ذلك إلا على إنقاض المسجد الأقصى المبارك.

ـ يقول الشاعر شاليش يفيش «عندما نتمشى فنحن ثلاثة. . أنا وأنت والحرب القادمة ـ أنا وأنتِ والحرب القادمة ـ الحرب التي سنشنها عندما يريد الله ـ أنا وأنت والحرب القادمة التي ستجلب السلام لنا جميعاً ـ وعندما نبتسم ونحن نمارس الحب ـ تبتسم الحرب القادمة معنا».

الفصل الخامس

الفتوى

المؤسَّسات الدينية الإسلامية والفتاوى حول الصراع مع الصهيونية

تمهيـــــد:

تواجه المؤسسة الإسلامية، في كل مكان، إشكاليات حديثة تتعلَّق بتأمين تغطية شرعية لخطوات تتخذ عملياً بصرف النظر عن موقفها هي منها. ولم تكن قضايا الصراع مع الغزوات الحديثة والموقف منها، سلباً أو إيجاباً، هي كل ما عليها أن تبدي الرأي فيه، فقد سبقتها مشكلات اجتماعية واقتصادية، مثل التعامل مع البنوك أو المخدرات والتدخين، مما لم يكن له وجود أيام السلف الصالح. . ومنها ما يتعلق بالتعامل مع منتجات التقنية الحديثة وامتداداتها وآثارها السلبية أو الإيجابية، وربما كان التقليد في اللباس من الأهمية بمكانٍ أخذ من اهتمام المؤسسة الشيء الكثير، ناهيك عن القضايا المستجدة بما يتعلق بلباس المرأة وعملها. . وغير ذلك كثير.

تجد المؤسسة، كما عبّر عنها السيد محمد حسين فضل الله، نفسها مسبوقة بالأحداث فتلاحقها بفتاواها. . المسلمون يسبقون مؤسساتهم الدينية بالتصرف ثم

يرجعون إليها لتقدِّم رأيها حتى تريح ضمائرهم.

غالباً ما تُتَّهم هذه المؤسسات بالرجعية والتخلُّف من قبل النخب المثقفة، وحتى من قبل بعض أعضائها، ولم يكن موقف الشيخ محمد عبده، في أوائل هذا القرن، وحملاته الكلامية بعيداً عنا، وهو من صلب هذه المؤسسة.

بعض القضايا بلغت حدّاً كبيراً من الأهمية، ولم يكن ممكناً التعامل معها بقياس الشاهد على الغائب، ولا بقاعدة لا اجتهاد مع وجود النص، ولكن باستخدام العقل مع النقل مما أثار الكثير من الخلافات بين المؤسسات المختلفة وبين عناصرها في ما بينها أيضاً. ولم يكن ذلك سلباً دائماً (أعني الخلاف) بل إنه في تصوّري أفاد جهود التبشير الإسلامي، إن لم نقل أنه أغنى الدين، فالأيديولوجيا لا تغتني لأنَّ فيها الكثير من الثوابت التي لا يمكن تطويرها أو الإضافة إليها، بل يمكن التعامل معها من خلال مرونة التأويل والتفسير لا أكثر.

تحتل المصالح المرسلة مكانة بارزة في التأويل والفتاوى لتبرير المستجدات. أمّا من يمكنه تقدير المصلحة، عادة، فهو حركة الجماهير باتجاهها، وغالباً ما رضخ المجتهدون لدواعي هذه المصالح وضغطها الملح، كما جرى مع تشريع جواز التعامل مع البنوك والأعمال المصرفية الحديثة، فقد أطلقت العديد من الفتاوى للتحايل على المسألة الربوية[1]. ومع ذلك، فإن ضمائر المسلمين لم يثقلها كثيراً استمرار التعامل مع المصارف بشروطها هي، بل ربما أن الفتاوى بربوبيتها أفادتها أكثر، فقد أصبح تقليداً خبيثاً، مثلاً، أن يُسأل المودع عن رغبته في تقاضي الفوائد أم تركها للمصرف كيما تضاف إلى أرباحه!

تلك المفارقة، وأمثالها، أطلقت العقل من عقاله فشهد العصر الحديث عوداً جديداً للتيار المعتزلي في مواجهة «الحنابلة» كما يطلق عادة على المتشددين، حتى أن الذين أخضعوا التراث للعقل على سبيل المثال، زادوا من حيث لا يشعرون من هالته الطقسية، وهم يسعون لتحرره منها، فهم عمقوا إشكالية احتوائه للإنسان

---

(١) راجع فتوى المرحوم الشيخ محمد شلتوت، شيخ الجامع الأزهر، توفي عام ١٩٦٣.

المسلم وهم يطمحون لتحرره من هذا الاحتواء، وأعطوا قوة ودفعاً لحضوره المعاصر، فجعلوا منه الإشكالية الأساسية للفكر العربي المعاصر، فما كان وسيلة غدا غاية[1].

وفي اعتقادي أن تراثنا الإسلامي يملك، من الغنى والابهار، ما جعل من أولئك الباحثين أسارى له في واقع حضاري شرقي لم يتح له مشروعه النهضوي المستمر في جو التحديات الغربية الامبريالية المرعبة[2]. وهكذا تبدو الأمة، في مواجهة مأزقها الراهن، مقسورة على العودة للتراث لاستقاء منه وحل قضاياها المعاصرة على ضوئه.

الشخصية العربية تتصل بشكل يتراكم جيلاً بعد جيل بالماضي، تحاول أن تستعين بالثابت للقتال في مواجهة واقع متغير بشكل لاهث متسارع، في مواجهة الشخصية الصهيونية المتصلة هي أيضاً بآلاف السنين البعيدة، مدعومة بتواصل العهد القديم، بالعهد الجديد اللذين يشكلان «الكتاب المقدس» بما يؤمِّن لها تحالفات أكثر متانة مما يملكه الشرق الإسلامي الكثيف العدد والمتخلف تقنياً، والذي يرفض الاستسلام ويفتش عن أدوات أفضل لمتابعة خوض الصراع، (في إطار) واقع سلطوي بائس يبحث عن تبرير لاستسلام رتب له منذ عقود هي ما احتاجه الغرب، لترتيب أوضاع السلطات الموالية له حتى يضمن نضج الظروف التي تؤمن له النصر النهائي، أو ما يسمونه نهاية التاريخ.

هنا تبرز أهمية المؤسسة الدينية لكي تقدم غطاءها الجاهز لهذه السلطات، أو من جهة أخرى لكي تقدم مبررات التصدي بمظلة من ذات الغطاء، وأعني الأيديولوجيا الإسلامية، وبذرائع تستقي من ذات المنبع، ولكنها تستخدم العقل لكي يوفر التبرير البراغماتي تحت شعار المصالح العامة.

---

(١) عبد الرزاق عيد، طه حسين العقل والدين بحث في إشكالية المنهج، مركز الانماء الحضاري، حلب ١٩٩٥ ص١٥٦.

(٢) يشار إلى كتابات بعض هؤلاء المفكرين(طه حسين، حسين مروة، طيب تيزيني، زكي نجيب محمود، محمد عابد الجابري وغيرهم).

وإلاّ . . أليس من الغريب أن يتواجه الطرفان بأسلحة مشحوذة من ذات المنبع، وهو السنة النبوية والتأويل لآيات القرآن الكريم.

يحضر الباحث مثال مثير للعجب يتمثل في مواقف هذه المؤسسات من أكبر حشد امبريالي على الأرض المقدّسة معزّزبتحالف إسلامي في مواجهة المسلمين على الطرف الآخر من أرض المعركة، وهو ما جرى في فترة التحضير لحرب الخليج الثانية. يومها قدمت المؤسستان الدينيتان، السعودية والأزهرية فتاوى تبيح التحالف مع السيّء، وهو الامبريالية في سبيل دفع الأسوأ، وهو الجيش العراقي تحت غطاء سلطة عراقية يتخذ زعيمها قرار الحرب كما يذهب إلى مائدة الطعام (بافتراض حسن النوايا).

وكانت فتوى الجانب الأول تستند على قاعدة فقهية تقول بوجوب «دفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما»[1] بمعنى الجواز الإسلامي للاستعانة بالسيّء لدفع الأسوأ. أما الجانب الآخر، فكانت حجته أقوى لأن هذه القاعدة يمكن أن تطبق على كل شيء في الحياة إلا على ما يجري في تلك الظروف، وبخاصّة التحالف مع الغرب) الصليبي الطامع في ابتلاع كل المسلمين وأملاكهم. وقد حافظت المؤسسة الشيعية بالرغم من جروحها العميقة، على ثباتها كعادتها، وأفتت بحرمة التحالف مع قوات التدخل الغربية في مواجهة بلد مسلم كالعراق، حتى أن بعض رموز المرجعية الشيعية في إيران طالبت بالقتال إلى جانب العراق، وكان هذا مستحيلاً طبعاً لأسباب ليس من مجال لذكرها.

في الموضوع الذي نحن بصدده، وهو فتاوى جواز الصلح مع اليهود الذين يحتلون فلسطين، فإن الأمر يختلف قليلاً بالدرجة، فهو موضوع معاصر، ولكنّ له سوابق في الغائب الإسلامي البعيد. ذلك أن الرّسول محمد(ص) خاض معارك مع

---

(١) راجع: فلسفة بن باز الفقهية من خلال (فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية)، جمع أحمد الدرويش، الرّياض، ١٤١١ هـ، الجزء الأول. تنص هذه القاعدة من حديث للرسول(ص). أخرجه مسلم وغيره «جواز دفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما وفعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما» ج٤، ص ١٣٣، الفتاوى، ص ١٥٠.

اليهود في ظروف ـ وإن لم تكن متطابقة تماماً ـ فإنها تحمل ذات عناصر الصراع، وربما أسبابه وعلله الظاهرة والخفية. ومع غرابة المسألة فإن الموضوع برمته يشكل تحدياً للعقل والنقل معاً في المؤسسة الدينية الإسلامية.. وقد تصرفت معه كما نعلم وبالشكل الذي يستوحيه مسارها التاريخي.. مع السلطة أو مع الأيديولوجيا.. مع الدين أو مع الخليفة أو السلطان.

١ ـ الفتوى: النص والتبرير:

في حديث صحفيّ لمجلة «المسلمون»، في رد على سؤال حول اتفاقات السلام مع إسرائيل قال: «تجوز الهدنة مع الأعداء مطلقة ومؤقتة إذا رأى ولي الأمر مصلحة في ذلك». وأشار إلى الآية الكريمة: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾. واستشهد الشيخ ابن باز بما قام به رسول الله (ص) حينما صالح أهل مكة المشركين على ترك الحرب عشر سنين.. وأجاز مفتي السعودية زيارة المسلمين للمسجد الأقصى، واعتبر ذلك سنَّة من السنن التي أقرها رسول الله وقال: في ظل حالة التفاهم الحالية بين العرب واليهود، إنّ زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه سنة، إذا تيسر ذلك لقول النبي(ص): لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى[١].

ومن أجل تعليل هذا الحديث الذي يعتبر بمثابة فتوى لمفتي الديار السعودية، تابع الشيخ ابن باز تفسير العلل الكامنة وراء هذه الفتوى بأنها ما تقتضيه مصلحة الفلسطينيين ليأمنوا في بلادهم، ويتمكنوا من إقامة دينهم[٢]. لقد جاء هذا التعليل بعد الفتوى بثلاثة أشهر، وقد أثارت ضجيجاً صاخباً في ديار الإسلام، ووقف ضدها عدد كبير من العلماء المسلمين في المؤسسات الدينية الإسلامية.

ويتابع ابن باز قياس الشاهد على الغائب في موضوع قريش والرسول، فيقول: «رغم أن قريشاً أخذت أموال المهاجرين ودورهم، كما قال الله سبحانه في

(١) جريدة الحياة، لندن، عدد ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٤.

(٢) مجلة الأمان، العدد ١٤٩، ٣١ آذار ١٩٩٥.

سورة الحشر: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون**﴾، ومع ذلك صالح النبي قريشاً يوم الحديبية سنة ست من الهجرة ولم يمنع هذا الصلح ما فعلته قريش من ظلم المهاجرين في دورهم مراعاة للمصلحة العامة التي رآها النبي لجميع المسلمين من المهاجرين وغيرهم، ولمن يرغب في الدخول بالإسلام»[1].

وهنا يستخدم الشيخ المصلحة العامة مرة أخرى في تبرير فتواه، وبما أن تقليد الرسول واجب فإن أية خطوة مماثلة يمكن أن تقاس على خطوة الرسول هذه، في أي حرب يخوضها المسلمون أو أي صلح يعقدونه، وكما يبدو فإن تقدير المصلحة يعود لولي الأمر، كما يقول الشيخ.

في موضوع حسَّاس كهذا فإن تقدير المصلحة العامة، بالنسبة للرسول، مؤكَّد لأنه معصوم وملهم من الله.. أما وليّ الأمر فليس كذلك، ويحق للرعية مناقشته في مسألة المصلحة هذه بل والتشكيك بمقدرته ونواياه وارتباطاته ودينه أيضاً.. هذا إذا كان منتخباً بطريقة الشورى مثلاً، ومع ذلك فقد ناقش المسلمون الرسول، كما هو مدون، وبعضهم كعمر بن الخطاب اعترض بلهجة قاسية، كما تقول كتب التاريخ المعتمدة.

ورغم وضوح موقف الشيخ بأنه لا يرغب في الدخول إلى عمق السياسة العربية الرسمية، أو مناقشة الحركة الصهيونية ـ التي قد لا يكون لديه اطلاع على تاريخها، وله العذر فهو لا يمكن أن يحيط بكل العلوم، أقدم على تقديم علة أخرى للفتوى، فهو يضيف:

لو أن إنساناً غصب دار إنسان، وأخرجه إلى العراء، ثم صالحه على بعضها، ورضي ببعض حقه واصطلح مع الظالم في ذلك، فلا حرج لعجزه عن أخذ حقه كله، «وما لا يدرك كله لا يترك جله»، وقال الله عز وجل: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ أي على قدر استطاعتكم وقال سبحانه ﴿**والصلح خير**﴾ ولا شك أن رضا المظلوم

---

(١) المرجع السابق.

بحجره من داره أو حجرتين أو أكثر يسكن فيها هو وأهله خير من بقائه في العراء[١].

ما يثير الانتباه، في هذا التعليل، مسألتان هما: الصلح خير، والرضا بالحل المرحلي ما دامت القدرة غير متوفرة للحل الشامل أو نيل كل الحقوق. ومما يبدو جلياً أن ابن باز لم يطلع على الاتفاقات، أو أنه لم يكن لديه وقت لقراءتها، أو أنه لم يتابع نشرات الأخبار واستطلاعات الرأي بما في ذلك أن الفلسطينيين ليس لهم وليّ أمر مجمع عليه ليقدر المصلحة العامة.. ولكن الأشد خطورة في التعليل هو استخدام الآية الكريمة ﴿**الصلح خير**﴾. والقارىء يتصور عندما تمر في خاطره تلك الآية التي نزلت في الخلاف بين الأزواج، أن الشيخ يلخص القضية الفلسطينية برمتها كأنها خلاف بين زوجين.. ويصل الأمر هنا، في القياس، استخدام المنقول ودمجه بالمعقول على طريقته إلى مستوى الكوميديا السوداء[٢].

ومع ذلك فالمفتي الأكبر ليس ساذجاً بكل تأكيد رغم استطراده قائلاً: «أما قوله عزّ وجل: ﴿**فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم**﴾. فهذه الآية فيما إذا كان المظلوم أقوى من الظالم وأقدر على أخذ حقه. أما إذا كان ليس هو الأعلى في القوة الحسية فلا بأس أن يدعو إلى السلم كما صرح بذلك الحافظ بن كثير في تفسير هذه الآية».

جدلية صلح الحديبية:

يكرر الشيخ حجته عن صلح الحديبية، مرة أخرى، حيث أن المفتي لا يرى في كل حياة الرسول النضالية موقفاً آخر غير هذه الخطوة المدروسة جيداً.

يخلط الشيخ، في القول السالف مرّة أخرى، بين العقل والنقل عندما يناقش

---

(١) المرجع السابق.

(٢) هناك إقرار من خبراء بأن الشيخ ابن باز عالم بالحديث وفقيه، واستناداً إلى ما يضطلع به من مناصب تبلغ الثمانية في بلده، وإلى طبيعة مذهب الوهابية الذي يرفض إعمال العقل، لأنه يضلل، ولسبب انشغاله في التدريس، فإنني أشك بأنه يمكن أن يكون مطلعاً على أي شيء آخر بما في ذلك قراءة الصحف.. ناهيك عن السياسة، فهل يحق لإنسان هذه صفته أن ينصِّب نفسه في موقع يمكن أن يطلق فيه حكماً في مسألة شائكة عويصة مثل القضية الفلسطينية؟! بعشر جمل غير مفيدة بما في ذلك استخدام ﴿**والصلح خير**﴾.

آية كريمة ليفسرها تفسيراً أقرب إلى قسر النص لمصلحة الغاية الكامنة في النفس، فمن قال إن القوي يمكن أن يتعرض لظلم ممن هو أضعف منه أصلاً. . هل يقدر الضعيف مثلاً على اغتصاب أرض قوي. . وهل يمكن لضعيف أن يدعو إلى السلم. . في هذه الحالة تقول علوم السياسة إن السِّلم يفرض فرضاً ويصبح شكلاً ومضموناً مدرجاً تحت مصطلح «الاستسلام»، فهل يدعو الشيخ المسلمين إلى الاستسلام؟ أعتقد أنه لو قرأ نصوص الاتفاقيات الموقعة بين الأنظمة واليهود لما استنتج غير ذلك. ولكنه لم يقرأها مطلقاً. .

ثم إنه يسند قوله للحافظ بن كثير. فهو ملتزم بالنقل إلى درجة عجيبة، وحتى لو قدّرنا أن ابن كثير معصوم وملهم في تفسيره[1]. لكن الشيخ الجليل لجأ إلى المنطق الصوري في تعليله، ولم يجرؤ على إكمال مشواره إلى آخره فاستغاث بابن كثير، فلماذا يفعل ذلك بالمسلمين وبعقولنا؟!

هل كان المسلمون ـ إذا لجأنا إلى معاصرة النص في الآية الكريمة. (يقصد بأن المسلمين خصّوا بلفظة الأعلون) ـ هم الأقوى عسكرياً؟ بالتأكيد لا. . وليس هذا تفسيراً بالعقل إنما هو بالنقل. . لقد كانوا الأعلين بدعم الله وبإيمانهم رغم هزيمتهم في أحد وتعادلهم في الخندق ووقوعهم في بحر من الأعداء، خاصة من يهود المدينة وخيبر. . ومع هذا فإن الله يطلب إليهم ألا يدعوا إلى السلم لأنهم ليسوا الأقوى عسكرياً. . أما عن صلح الحديبية الذي يلجأ الشيخ إلى ضربه مثلاً والمؤسسات الدينية المرتبطة بالسلطة على غراره، فقد كان المسلمون فيه الأقوى عسكرياً فعلاً في لحظة توقيعه. . وأحيل الشيخ إلى كتب التاريخ المعتمدة جميعاً، خاصة عند تحديدهم عدد المسلمين ومعنوياتهم العالية الذين رافقوا الرسول إلى الحج، مقارنة بالذين خاضوا معركة الخندق قبل ذلك بسنة في المدينة المنورة[2]،

---

(١) راجع ما اقتبسناه عن ابن كثير في تفسير الآيات المتعلقة ببني إسرائيل، في سورة البقرة لإدراك مدى تأثره بالإسرائيليات، وليس وحده كذلك.

(٢) راجع: الروض الأنف، مرجع سباق، ص ٧، يقول «قام عروة من عند رسول الله إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه ويتصرف في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت في قوم =

وبكل حسابات موازين القوى، مضافاً إليها تصفية أعداء المسلمين من اليهود فيها، وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

ويتابع الشيخ مكملاً مناقشة حجته حول صلح الحديبية قائلاً: «ولما نقضوا العهد وقدر على مقاتلتهم يوم الفتح غزاهم في عقر دارهم وفتح الله عليه البلاد، ومكّنه من رقاب أهلها حتى عفا عنهم وتم له الفتح والنصر ولله الحمد والمنة»[1].

المفتي الأكبر يجد نفسه مقسوراً على إعمال عقله في تحليل سيرة النبي(ص)، فهو يدلي برأيه هنا دون إسناد مقولته بنقل ما، وهذا ما لا يجوز في مذهبه قطعاً، وهو بهذا يفتح المجال واسعاً لنا لأعمال عقلنا أيضاً والادلاء بآرائنا في هذه المسألة. ثمَّ صلح الحديبية سنة ست للهجرة، وقد تلا ذلك تراجع الكفار في غزوة الخندق وحصار المدينة. وأثناء حفر المسلمين للخندق بمشورة من سلمان الفارسي الذي قال[2]: «ضربت في ناحية من الخندق فغلظت صخرة(. . .) فضرب الرسول ضربة لمعت تحت المعول برقة. . . إلى أن يقول: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوقد رأيت هذا يا سلمان؟ قال: قلت نعم. قال: أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن. وأما الثانية فإن الله فتح بها الشام والمغرب. وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق.

إذن فإن الرسول تحرك نحو مكة للحج بعد سنة من ذلك، في جو نبوءته التي تحققت فعلاً بعد وفاته. كان من معه ألف وأربعمائة مسلم من خلاصة المسلمين بمعنويات وقيادة لا يمكن مقارنتها بقيادات اليوم، أو بما دفعوا المسلمين إليه من انحدار في المعنويات، وقد أشربوا الناس التسوية مع العدو الصهيوني منذ اثنين وعشرين عاماً (أقصد بعد حرب تشرين ١٩٧٣).

عندما تراجع الكفار عن المدينة وعجزوا عن اقتحامها.. اعتبر ذلك هزيمة

= قط مثل محمد من أصحابه، ولقد وجد قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم» (وهذا أدى إلى قبول المشركين الهدنة لضعف حالهم) المؤلف.

(١) حول مشروعية الصلح مع اليهود، مجلة الأمان، مرجع سابق.

(٢) الروض الأنف عن سيرة ابن هشام ج٣ ص ٣٦١ (مرجع سابق).

للكفار، ومع ذلك فإن الرسول غزا بني قريظة مباشرة بدعم من الله وملائكته.. سأله جبريل: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. فقال جبريل ما وضعت الملائكة السلاح بعد(...) إن الله يأمرك، يا محمد، بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم»[١].

فهل كان يمكن أن يقوم الرسول بذلك في ظل اختلال موازين قوى تجبره على طلب الصلح، كما يقول ابن باز[٢].

حتى أن الرسول(ص) لم يصالح بني غطفان، ويطلب دعمهم على ثلث تمر المدينة، كما طلبوا عندما هم بذلك، كما يقول مؤرّخو سيرته (مع تحفظاتنا) باستناده إلى رفض هذه الفكرة على أهل المدينة أنفسهم. يقول سعد بن معاذ مخاطباً الرسول: «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا(..) والله لا نعطيهم إلا السيف..)[٣].

إن الباحث عندما يدقق، هنا، في مجموعة تلك الأحداث المتشابكة التي أفضت إلى المعاهدة يلمس في ما روى أموراً تدعو للتأمل. ذلك أن النبي يقترح المهادنة ويأبى المسلمون ذلك ويصرّون على القتال وكذلك جبريل. ورغم التحفظات الكثيرة، فإنه من الجلي أن موازين القوى لم تكن كما يشير السيد المفتي.. فإذا كان ولي الأمر، وهو نبي مرسل مؤيد من الله، يميل إلى المهادنة، ثم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧

(٢) ولد الشيخ عبد العزيز بن باز في الرياض سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٠ م، فقد بصره وكان عمره عشرين عاماً. حفظ القرآن، وعيِّن في القضاء ١٣٥٧ هـ.. تلقى العلم من آل الشيخ عبد الوهاب (محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ) بالدرجة الأولى فهو هابي متعصب إلى أبعد الحدود.. ويعدّ مسند أحمد بن حنبل الأول في الصحاح كما نرى في كتاباته. تولى رئاسة الجامنعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٨١ هـ.. له ما يزيد على عشرين كتاباً جميعها في الأصول والطريقة الوهابية حول البدع.. يتولى الآن ثمانية مناصب رغم أنّه في الخامسة والثمانين ورغم عاهته.. مقرّب جداً من الأسرة المالكة.. ويشرف على دعم حركات إسلامية في العالم بموازنة مالية ضخمة بما في ذلك دوره في أحداث أفغانستان أثناء التدخل الروسي هناك ١٩٨٠.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٢.

يطيع المسلمين عندما يطلبون القتال ويتابع القتال حتى النصر، فكيف يمكن القياس بالشاهد الحالي على ما فعله رسول الله قبل ألف وأربعمائة سنة بالشكل الذي قام به ابن باز[1]، حين يقول: «ولما نقضوا العهد وقدر على مقاتلتهم. .»، فهل لم يكن عندما زحف عليهم قادراً على مقاتلتهم وقد كان يدري سلفاً أنهم ربما يقاتلونه؟

قال ابن إسحاق. . «واستنفر العرب من حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت. .»[2].

وقياساً على ذلك، هل استشار الحكام الحاليون، ومنهم ياسر عرفات، إذا اعتبرناه ولي أمر، والملك حسين، وهما اللذان وقعا آخر معاهدات الصلح مع العدو، ومن قبلهما أنور السادات عندما وقع الصلح. . هل استشاروا المسلمين في القتال أو الصلح من خلال استفتاء شعبي واسع حتى يمكن الجزم بأن لهم في رسول الله أسوة حسنة؟ بل يحق لنا التساؤل: هل أعد أولياء الأمور هؤلاء للأمر عدته وأعطوا لشعوبهم إمكانيات التعبير عن الرأي والعدالة والديمقراطية، وأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة كما أمر الله، حتى تجرّوا على القياس على ما فعله رسول الله في ذلك الزمان البعيد؟.

وبما أن أيّاً من ذلك لم يحدث فهل يجوز للمفتي أن يقيس ويقتدي ويبدي العلل، وهو أصلاً ضدّ التفسير بالرأي والقياس معاً؟!

لقد وضح، في التاريخ الإسلامي، أن الجبهة المعادية انهارت تماماً بعد صلح الحديبية بسنتين على أبعد تقدير، فهل يمكن لجبهة كهذه أن تنهار لو أن

---

(١) الغريب، في مسألة القياس هذه، أن بعض المؤرخين، ومنهم مؤلف الروضة الأنف. . يقيس جواز المصالحة بدفع جزية للعدو، ليس بما هم أن يفعله الرسول وتراجع عنه، بل ما فعله معاوية عندما صالح الروم على الكف عن ثغور الشام بمائة ألف دينار وأخذ منه الروم رهناً فغدرت الروم. ونسي المؤرخ أن ذلك تم أثناء قتاله للإمام علي(الخليفة الشرعي) في محاولة لتحييد الروم عن غزو الشام للتفرغ لقتال الخليفة (ص ٢٧٨).

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ الجزء الثالث.

موازين القوى كانت لصالحها يوم توقيع المعاهدة؟ وهل يتوقع المفتي انهيار الحركة الصهيونية القريب، وهو غير متخصص بعلم السياسة، ولم يستشر من علمائها أحداً قبل إصدار فتواه؟ فهو ليس له إلمام واسع بشؤونها (كما أرجح) لأنه لم يؤثر عنه ذلك من خلال سيرته المعلنة رغم إمكانياته المالية الواسعة واتصالاته مع قوى إسلامية وغير إسلامية.

لقد ظلَّ جندياً مطيعاً لمؤسسة حاكمة مقتنعاً بطاعتها، بحكم بيعته للإمام الأول الذي يتمثل بشخص الملك ومستشاريه في السياسة وارتباطاته المعروفة بالإدارة الأمريكية، علماً أن المملكة غنية عن التوضيح في هذا المجال. والشيخ عندما شارك في الفتوى مع مجموعة علماء المؤسسة الدينية قبل ذلك بثلاثين عاماً[١] لم يكن إلا مطيعاً لسلطة الأقوى والأمر الواقع ممثَّلةً بشخص الملك فيصل عام ١٩٦٤، كما يقول المؤرخون، وما رشح عن جدلية تفاعل الأحداث في ذلك الزمن[٢].

لكن ابن باز يضيف في تعليلاته أمراً آخر، فهو يقول: «إن الواجب يدعو إلى جهاد المشركين من اليهود وغيرهم مع القدرة حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها كما دلت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وعند العجز عن ذلك لا حرج في الصلح مع العدو على وجه ينفع المسلمين ولا يضرهم، تأسياً بالنبي في حربه وصلحه وتمسكا بالأدلة الشرعية العامة والخاصة وقوفاً عندها..»[٣].

في ختام مناقشة هذه الفتوى يلفت نظرنا أمران، وهما: واجب الجهاد مع القدرة وضرورة الصلح مع العجز. وبما أنه يعتقد أن المسلمين عاجزون فعليهم أن

(١) يعزى إلى الملك الراحل، فيصل بن عبد العزيز آل سعود، تشكيل هيئة كبار العلماء، وهي تتكون من كلٍّ من: إبراهيم بن محمد بن ابراهيم آل الشيخ. عبد الرزاق عفيفي عطية (مصري) عبدالله بن عبد الرحمن الغديان، عبد الله بن سليمان بن منيع، عبد العزيز بن باز.. أصبح الشيخ رئيساً لها عام ١٣٩٥ هـ.
(٢) راجع: كتاب فيصل القاتل والقتيل، عبد الرحمن ناصر الشمراني، بيروت، دار الإنسان، ١٩٨٨.
(٣) حديثه لمجلة (المسلمون) عن مجلة الامان، مرجع سابق.

يصالحوا، ولا حرج من اتخاذ قرار الصلح. ونتساءل بمرارة عن مدى مصداقيّة أقوال الشيخ قياساً على أحداث قريبة جرت في حرب الخليج الثانية. لماذا لم يقم هو والمؤسسة الدينية الوهابية بإصدار فتوى الصلح مع العراق المسلم عند عجز المملكة عن القتال بعد اجتياح الكويت؟ بل إنه بديلاً عن ذلك أفتى بجواز الاستعانة بالمشركين لدفع الأسوأ وقتال إخوانه في الدين. فلماذا لم يتريث، قبل فتواه الأخيرة، للبحث عن حلفاء يمكن للمسلمين الاستغاثة بهم لدفع اليهود، أو التزود منهم بالأسلحة؟ وكيف يمكنه الجزم إلى هذه الدرجة من اليقينية بأنَّ المسلمين في حالة من العجز تجبرهم على طلب الصلح؟ لماذا لمْ يصدر فتواه هذه لمسلمي البوسنة مثلاً؟، وهو يسهم بدعمهم كما نعلم وتتحدث وكالات الأنباء. لماذا لم يأمر الأفغان المسلمين بطلب الصلح مع السوفييت عند دخولهم أفغانستان رغم علمه بعجز شعب الأفعان وانقسامه بين مؤيد ومعارض؟ لكنه كما نعلم بدلاً عن ذلك أسهم وحكومته بطلب من المركز الأمريكي بدفع المليارات لدعم الثورة هناك. وها نحن نرى النتائج: نهاية بلد مسلم بانزلاقه نحو حرب أهلية لا يعلم نهايتها إلا الله!

ردود الفعـــــل:

١ ـ الفتوى المضادة للمؤسسة الدينية الرسمية في سوريا:

كان رد فعل رجال الدين في سوريا عنيفاً، واتّسم، رغم ذلك، بالاستناد على سيرة رسول الله(ص) وأحاديث له ترفض فتوى ابن باز، ولكنها في الآن ذاته تترك مجالاً للصلح بحد ذاته كعمل مشروع، وإن قيدته بشروط دينية فقهية.

يقول الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي[1]، فهو كاتب تولى عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق ويشغل رئيس قسم الأديان فيها اليوم: إن للصلح شروطاً حدَّدها الشارع بحالتين اثنتين:

(١) راجع الرد على فتوى الشيخ عبد العزيز بن باز، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الدرس التاسع والخمسون في سلسلة دروس السيرة النبوية، جامع دنكز، دمشق (منشور مطبوع).

أولاهما أن يكون العدو بعيداً عن دار الإسلام، يعيش في وطنه وأرضه، ولكن قامت بينه وبين المسلمين حرب، وأراد وليّ أمر المسلمين أن يبرم صلحاً بين المسلمين وبين هؤلاء الأعداء الذين يقيمون في بلادهم، كما فعل رسول الله(ص) يوم صلح الحديبية. يجوز ذلك إذا كان صلحاً موقوتاً لمدة معينة، أقصى هذه المدة عشرة أعوام عند جمهور الفقهاء.

ثانيتهما: أن يكون هؤلاء الأعداء قد اقتحموا دار الإسلام، واحتلّوا جزءاً من أرض المسلمين التي افتتحوها في ما مضى، عنوة أي بحرب، أو صلحاً، واحتلوا هذه البقعة. هذه الحالة الثانية، وهي الحالة التي تنطبق على إسرائيل، هل يجوز لنا، والحالة هذه أن نبرم صلحاً مع هذه الدولة؟ يجوز ولكن إبرام الصلح بشرطين اثنين:

الشرط الأول: أن يزول الاغتصاب، وأن يعود الحقّ إلى أصحابه، وأن يخرج هؤلاء المغتصبون من دار الإسلام ويرجعوا إلى أماكنهم، أي باختصار أن يعود كل حق إلى صاحبه.

الشرط الثاني: أن يتم هذا الصلح بشكل شامل، أي أن يتم باتفاق سائر أئمة المسلمين وحكامهم عندما يكون حكام المسلمين كثيراً. وأما إذا كان هناك خليفة واحد فلا إشكال. كل المسلمين ينصاعون لأمره. ولكن عندما يتعدد الحكام، أو رؤساء الدول الإسلامية، فالشرط الثاني يقضي بأن يتم هذا السلم أو هذا الصلح باتفاق يصدر من جميع قادة المسلمين. وهذا شرط نص عليه رسول الله (ص) بكلامه وبصياغة منه في الوثيقة التي اكتتبها كدستور عندما استقر في المدينة المنورة، وقال فيها:

«سلم المسلمين واحد لا يسالم مسلم على مسلم إلا على سواء بينهم»، أي لا يجوز لرئيس دولة أن ينفرد بعقد صلح مع عدو إلا بعد أن يتم اتفاق سائر حكام المسلمين على هذا السلم، وسبب ذلك أن هذا الاتفاق إذا لم يتم فإن هذا الصلح سيكون سبباً لتألب المسلمين على بعضهم، بعضهم صالحوا وبعضهم الآخر لم يصالحوا. الذين صالحوا أصبحوا أصدقاء والذين لم يصالحوا لا يزالون أعداء، إذن

هاتان الشريحتان لا بد أن يتحول الوفاق بينهما إلى خصام، فلكي لا يكون هذا، أعلن الرسول: إن السلم يمكن أن يتم بين المسلمين وأعدائهم، إذا كان سلماً شاملاً(. .) بشرط أول هو أن يرفع العدو يده عن ممتلكات المسلمين.

إن فلسطين ليست حقاً للفلسطين وحدهم أو لفئة من المسلمين. فكل دار إسلام ملك لسائر المسلمين، ولو أراد الذين يمتلكونها أن يتنازلوا عنها للأعداء لا يحق لهم ذلك.

إذا تحقق الشرطان يتم مصداق الآية **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله * إنه هو السميع العليم﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾**[1].

ويتابع الدكتور البوطي فتواه قائلاً: «كيف يصدر مسلم فتوى بجواز إبرام الصلح بين المسلمين وإسرائيل بدون قيد أو شرط إلا واحد هو أن يرى ولي أمر المسلمين ذلك. أين هو شرط إزالة الاغتصاب والإجماع؟».

وقبل متابعة تلخيص وجهة نظر الشيخ البوطي في المسألة، وهي كلها منطقية وشرعية، يجدر التوقّف عند مسألة إجماع حكام المسلمين على الصلح مع العدو الصهيوني. وبما أن ما يتواتر وما تم ترتيبه في المركز الامبريالي ينص على إجماعهم على الصلح ما عدا إيران الإسلامية، فإن هذه المسألة يمكن الالتفاف عليها في

(١) بسبب أهمية هذه الآية، من سورة الأنفال، لا بد من تسجيل تفسيرها من كتب تفسير القرآن فقد جاء في هذه الكتب: «انتقال من بيان أحوال معاملة العدو في الحرب، من وفائهم بالعهد إلى خيانتهم، وكيف يحل المسلمون العهد معهم إن خافوا خيانتهم ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين. . وبيان أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة وكفوا عن حالة الحرب. . فمعنى إن جنحوا للسلم، إن مالوا إلى السلم ميل قاصد إليه كما يميل الطائر الجانح، وإنما لم يقل: وإن طلبوا السلم، فأجبهم إليها للتنبيه على أنه لا يسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب، لأنهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيداً. فهذا مقابل قوله: **﴿وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾** فإن نبذ العهد نبذ للسلم. واللام في السلم تعني تقوية التنبيه على أن ميلهم إلى السلم ميل حق. إن مالوا إلى السلم رغبة فيه لا لغرض آخر غيره(. . . .) وفي الجمع بين الأمر بقصد التوكل عليه وبين الأمر بإعداد ما استطاع من القوة دليل بين على أن التوكل غير تعاطي أسباب الأشياء. .». والواضح، من هذا التفسير أن شرط السلم صعب معقد يتعلق بالتأكد التام من جنوح العدو إليه. . وهذا لا يتوفر في حال الصهيونية مطلقاً. مع إعداد القوة لاستمرار المواجهة، «وهذا ألا يتوفر في الصلح الحالي حيث يشترط العدو تسريح الجيوش العربية أولاً. .».

المستقبل من قبل الأنظمة تحت شعار إعادة الأراضي المحتلة بعد ١٩٦٧، والتفاوض حول القدس وانتظار ما ستفسر عنه الأيام عن مصير التطبيع مع إسرائيل ضمن إطار النظام الشرق أوسطي.

إنَّ المتتبِّع لما يجري يمكنه الجزم بأن المؤسسات المرتبطة بالسلطات سوف تقدم فتاوى جديدة للالتفاف حول هذا الموضوع تحت مظلات متعددة الألوان، وباسم الإسلام.

حتى ذلك الحين، وهو ليس ببعيد، فإن الدكتور البوطي يؤكد ما يلي: «إذا اتفق السلطان مع القرآن فيا حبذا، وهذا ما نريده وندعوا إليه، وإذا اختلف السلطان مع القرآن فنحن مع القرآن، ينبغي أن تعلم السعودية وغير السعودية سواء أياً كانت.. نحن مع القرآن في الدعوة في البلاغ، وفي اللسان وفي الشرح وفي الحوار، لا نملك أكثر من ذلك وهذا هو شأننا»(١).

انطلاقاً من بؤرة الحديث في نقد الفتوى يمكن أن نتابع مع رد الفعل لأنه يستحق أن يسجّل، فهو يدل على نضج سياسي لرجل دين. وجهة نظر الشيخ تؤكد أن فتوى ابن باز تعطي انطباعاً لدى الغرب بأن الإسلام ليس واحداً وأنه سهل على اليهود، ومن يلف لفهم الحصول على تنازلات مجانية بشعارات مطروحة في وسائل الإعلام يقف في قمتها الاتهام بالإرهاب لكل المناضلين ضد اليهود في سبيل فلسطين. وبهذا يحقق الأعداء نتيجتين:

الأولى: «إن من الناس من يشمئز من هذا الإسلام الذي تلونه كل فئة باللون الذي تريد، والذي يجعل منه كل قوم بوقاً لنشيده الخاص به ولساناً لهواه الذي يحلم به، إذن أين هو الإسلام؟».

الثانية: «إن هناك مسلمين سيتصورون أن هذه الفتوى سليمة وأنها صحيحة، وأن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، من هنا كان لا بد من قول لا لسائر علماء المسلمين أن يوضحوا حكم الله عز وجل».

---

(١) المرجع نفسه.

يميز الشيخ البوطي بين الخط السياسي والخط الإسلامي، وهو في هذا يبتعد عن منطوق العصر فعلاً، فلا انفصال عن السياسة، ولا يمكن فصل السياسة عن الأيديولوجيا عبر العلم. فقد ثبت تاريخياً أن الأيديولوجيا هي التي تقود العلم وليس العكس، وهناك العديد من الأمثلة التي تؤيد هذا الاتجاه[1]. ثم ينطلق مؤكداً: نحن لا شأن لنا بالسياسة، السياسة تحير الألباب في هذا العصر وتحير العقول، قد تراه صاعداً وهو هابط، قد تراه هابطاً وهو صاعد، قد تراه يمشي ذات اليمين وهو يخطط للاتجاه إلى اليسار. ثم إن السياسة ذات ألوان وأطياف. عهد يأتي بلون، وعهد آخر يأتي بلون ثان. هذا الشيء أعان الله أصحابه عليه.

أما الإسلام فأمر آخر (كما يقول) هو عبارة عن أحكام ثابتة مستقرة. فهو يعتبر الإسلام الثابت الوحيد في متحولات الحياة وسياسة الحكام. لهذا فإن أحاديث الرسول حول هذا الموضوع ثابتة. ثم يستخدم الآية الكريمة: ﴿**ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون**﴾ أي عندما يكون حقكم سلباً.

الشيخ يعود إلى ربط السلم بالعدل. وهذا السلم المدعو إليه بعيد عن الشروط التي أمر بها الله. ويضرب مثالاً بالأردن (رغم أن النظام هناك لم يقم بتغطية نفسه بفتوى). وهو يعتقد أن الأوضاع هناك ستؤدي إلى سيطرة اليهود وتدمير أخلاق الناس.

ثم يؤكد الشيخ البوطي أن موقف سوريا هو الموقف الأقرب إلى الإسلام، ويقول: «أقل المراتب خروج إسرائيل من المرتفعات السورية وخروجها من لبنان، أقول هو أقرب المراتب على دين الله سبحانه وتعالى»[2]. هكذا ورغم كل الحماس للهجوم على الفتوى، فإن الشيخ يصل إلى أن السلطة التي يعمل في إطارها تسعى إلى حل وسط. وقد وضع الدكتور نفسه من دون أن يدري على خط العودة، ولم

---

(١) راجع كتاب: ليس في جيناتنا، تأليف مايكل روز وآخرون، عالم المعرفة، الكويت، رقم ١٤٨، ترجمة محمد فهمي.

(٢) الردّ على فتوى الشيخ ابن باز للدكتور البوطي، مرجع سابق.

يدمّر جسوره الممدودة إلى هناك، نحو المؤسسة الرسمية مطلقاً، رغم أنه يؤكد أن الحق لا يتجزأ. . وأنه في المحصلة الأخيرة لن يتدخل بالسياسة[١].

٢ ـ وجهة نظر المؤسسة الدينية للأزهر:

لعلّ الشيخ يوسف القرضاوي كان من أوائل الذين تصدّوا لفتوى ابن باز عبر تعاليمه في مجلة الأمان اللبنانية[٢] الإسلامية. والشيخ الدكتور يوسف كان من أساتذة جامعة الأزهر، وله دراسات إسلامية عديدة.

كان ردّ الشيخ يوسف أكثر تفصيلاً، ما يدل على اطلاعه على مضمون الاتفاقات الموقعة في معاهدات السلام المعقودة، لذا فإنه يناقش الأمور في صميمها بخبرة ودراية. ومن هذا الموقع يرفض إعطاء المشروعية الإسلامية لها، ويرفض موقف المؤسسة الدينية السعودية منها، ويلمح، كما فعل الشيخ البوطي، إلى تأثير السلطة هناك لأسباب يرفض الطرفان ذكرها، مع إصرارهما على أن يكونا مجاملين، فيمنحان ابن باز من المديح لعلمه ودينه ما أعتقد يقيناً أنه أكبر من موقعه الحقيقي أو بمضمون ما هو عليه فعلاً. «إحذروا زيغة الحكيم ولا يثنيكم ذلك عنه فإنه لعله يراجع» قولة معاذ بن جبل هذه استحقت أن تكون مدخلاً للرد.

في رأي الشيخ يوسف لا ينطبق الحكم الفقهي في الفتوى، رغم صحته، على واقع الحال للقضية الفلسطينية، فاليهود لم يجنحوا للسلم أبداً حتى يمكن أن ينطبق عليهم مضمون الآية الكريمة ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها. . .**﴾ فما هو في واقع الحال أن اليهود كمن اغتصب داراً لإنسان، ثم قال له: أعطيك غرفة منها ونتصالح، فهل يعتبر هذا جنوحاً للسلم؟ ثم يناقش الشيخ الاتفاقات باعتبارها منحت اليهود ملكية فلسطين لتصبح دولة إسرائيل بينما هي ملك المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً. وهذا اعتراف بحق إسرائيل في أرضنا العربية الإسلامية. واكتسبت بذلك

---

(١) راجع حديث الدكتور البوطي مع مجلة الوسط العدد ١٨٠، ١٠/ ٧/ ١٩٩٥، ويقول فيه: أنَّ التعايش مع اليهود ممكن ولا مبرر للعنف في الحركات الإسلامية السياسية.

(٢) راجع العدد ١٤٠ تاريخ، كانون ثاني ١٩٩٥.

شرعية القوة، فهي إذن ليست مجرد هدنة مؤقتة.

يعتبر القرضاوي أن الفتوى كان يجب أن يسبقها تشاور في رابطة العالم الإسلامي التي تشكل إطاراً تجمع الشيخين مع آخرين، وأن يستشار متخصصون في السياسة وغيرها، كما جرت العادة، ويكرر الشيخ: أنَّ المغتصب لا يعد جانحاً للسلم حتى يرد ما اغتصبه إلى أهله. وهو هنا يتطابق مع وجهة نظر الشيخ البوطي تماماً.

يهاجم الدكتور القرضاوي الاتفاقات السلمية الموقعة، ولا يعتبرها إلا سلاماً هزيلاً، ويشير إلى القدس واللاجئين والمستوطنات والحدود، فأين يقع السلام إذن؟

فلسطين كلها أرض إسلامية، وليست ملكاً للفلسطينيين يتصرفون بها وحدهم، فهي ملك الأمة الإسلامية،ولو فرض جيل وتقاعس لا يجوز أن يفرض تقاعسه وتخاذله على سائر أجيال الأمة الإسلامية. فمن لم يستطع القتال بالسيف فليقاتل بالكلمة. والفلسطينيون أيضاً يرفضون هذه الاتفاقيات. وهل يصبح العدو صديقاً بين ليلة وضحاها؟

إن الدكتور يوسف القرضاوي، إضافة إلى رد الفتوى، يقدم دفاعاً فليس هناك ما يمكن أن يضاف إلى دفاع حار كهذا. فالشيخ يتابع معركته ضد الفتوى في مقال ثان في المجلّة نفسها[1] مضيفاً إلى رأيه تسمية الأمور بأسمائها. . فأنور السادات استخدم الآية المشار إليها وعقد اتفاقه الذي يصفه الشيخ بالخيانة، وكانت حصة عرفات من الأمر أقل وأسوأ مما قام به السادات، ويشير الشيخ إلى مذابح الحرم الشريف وإقامة المستوطنات، واغتصاب الأراضي الزراعية وإقامة الحفريات في المسجد الأقصى لبناء الهيكل على أنقاضه.

هل هناك سلام (يتابع الشيخ) مع الترسانة النووية، وحلم إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات؟ ثم يكرر رفضه لسحب منطوق صلح الحديبية على واقع الحال

---

(١) راجع: الأمان العدد ١٤٩، ٣١/ ١/ ١٩٩٥.

في هذه الأيام؛ وذلك للاختلاف الكبير في عناصر الموضوعين: الماضي والراهن.

هنا يدخل مرة أخرى في قلب المسألة الأيديولوجية الإسلامية، عندما يقول: إن ما يفعله الرسول هو فعل إنسان معصوم مدعوم من الله وبأمر الله، كما قال لمن حاوره: «أنا عبدالله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني». وهذا لا ينطبق على ما يفعله أولياء الأمور، لأن صلحهم يحرم حلالاً ويحلل حراماً، وهذا يخالف الإسلام.

ولعلّ الدكتور القرضاوي يتلمس في الفتوى عناصر من تشجيع «البراغماتيّة» والانتهازية بين المسلمين، في قول ابن باز أن على المسلمين أن يحاربوا عندما يقدرون وأن يدعوا إلى السلم عندما يضعفون، وهذا يخالف القيم الإسلامية أيضاً.

ومن ذلك تفسير آية ﴿**ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون**﴾ مستنداً في ذلك إلى تفسير الألوسي وناقضاً تفسير الحافظ بن كثير. ثم ينتقل إلى مسألة فقهية في ما يتعلق بجهاد الطلب وجهاد الدفع، ويعتبر أن المسلمين في حالة دفاع عن النفس هذه الأيام، فهي فرض عين على كل مسلم وليست فرض كفاية.

وأخيراً، يصل الدكتور القرضاوي إلى صلب الموضوع، محللاً جدلية السلطة والفقيه وإطاعة أولي الأمر. فهو يعتبر أن أولي الأمر في الإسلام، تبعاً لمنطوق الآية ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾، هي في المفهوم القرآني أوسع وأشمل من كونها تدل على مجرد أصحاب السلطة والحكم، ومع ذلك يتابع القرضاوي: وهذا ما يدهش حقاً من إنسان في مؤسسة السلطة[1]: إن الحكام أولي الأمر يشترط في إطاعتهم أنهم حصلوا على البيعة من الأمة. «أما حاكم ليس له سلطة إلا في حدود ما يسمح به أعداؤه له، فليس هذا وليّ الأمر الشرعي الواجب إطاعته. ومن أمر بمعصية فلا طاعة له كما صحت الأحاديث».

(١) بعد نشر رد الشيخ القرضاوي على الفتوى تلاه تصريح للشيخ جاد الحق جاد الحق شيخ الجامع الأزهر إلى جريدة «الوفد» المصريّة في ١٣ تشرين الأول، ١٩٩٥، يطالب فيه المسلمين بالتعامل مع إسرائيل كأمر واقع على أن لا يتم التنازل عن التراث والدين والقيم الإسلامية... وهكذا نرى أن المؤسسة على الجسر الذي يربطها بالسلطة القائمة مهما كان نهجها.

القضية الفلسطينية ليست عادية، وأرض فلسطين ليست كغيرها، وليست شأناً للفلسطينيين وحدهم. فهي قضية جميع المسلمين أينما وجدوا ولهم يرجع القرار الحسم بشأنها.

٣ ـ موقف المؤسَّسة الشِّيعيَّة من الفتوى:

في لقاء جمعنا، في مدينة النجف الأشرف، ظهيرة الثالث عشر من أيلول ١٩٧٤، قال الإمام الشهيد محمد باقر الصدر: «إن إسرائيل تعبير عن مصالح الصهيونية وأمريكا في السيطرة على العالم الإسلامي بأسره، إن السلطات العربية تشيع هذه الأيام وفي المستقبل مناخ التسوية معها تمهيداً لقبولها أمراً واقعاً من قبل المسلمين والعرب.. إن من يقبل الصلح مع إسرائيل فقد خرج من الإسلام..»

ظل موقف المؤسسة الشيعية، من القضية الفلسطينية، منسجماً مع تراثها في التصدِّي للسلطات الحاكمة وأساليبها. واعتبرت من خلال طروحات المرجعيات، في كل مكان، أن قيام إسرائيل ما كان له أن يكون لولا خضوع السلطات العربية للامبريالية والاستعمار. بهذا لا نجد فتاوى كثيرة حول هذه المسألة تنطلق كردود أفعال. وللسبب نفسه لم تثر فتوى ابن باز أيّ ردود فعل تذكر في هذه المؤسسة، حتى من قبل المرجع الأكبر في لبنان السيد محمد حسين فضل الله. فلم تؤثر عنه أية فتوى مقابلة، فيما عدا مواقفه المعلنة من مسألة التسوية والتي كانت تملأ صفحات في معظم الدوريات اللبنانية خلال تلك الآونة: نهاية عام ١٩٩٤ وبداية عام ١٩٩٥. وما زالت.

عندما قامت الثورة الإسلامية في إيران في ١٢ شباط ١٩٧٩، كان ذلك قمة انتصار المؤسسة بالوصول إلى السلطة في أحد أكبر الأقطار الإسلامية. وبهذا الإنجاز وضعت نظرية ولاية الفقيه موضع التطبيق بشكل تدريجي، واعتبر الإمام الخميني (رحمه الله) الوليّ الفقيه للجمهورية الناشئة. وبناء على تقاليد المؤسسة الشيعية الثابتة، فلم يعتبر السيد الإمام المرجع الديني الوحيد للتقليد، فهناك العديد من المقلَّدين.. ولكنَّه بموقعه الديني والسياسي معاً، أعطى الكثير مما يمكن اعتباره

موقف المؤسسة من الكيان الصهيوني. وبما أن مواقف معاكسة لم تبرز خلال حياته أو بعد رحيله، فإن هذا الموقف يعتبر موقف المؤسسة بكافة مرجعياتها كون الإمام وليّ أمر المسلمين بحكم منصبه السياسي.

لهذا يمكن النَّظر إلى كتاباته حول الصهيونية والكيان الصهيوني، في فلسطين، بوصفها تمثِّل رأي المؤسسة الذي يلتزم به كافة مرجعيات التقليد في أنحاء العالم.

في نداء، بمناسبة يوم القدس العالمي، ١/٨/ ١٩٨١، يقول الإمام:

«يا مسلمي العالم ومستضعفيه، انهضوا وكونوا سادة أنفسكم.. إلى متى تستمر غفلتكم، وتسمحوا لواشنطن وموسكو لتقرر مصائركم؟ إلى متى تظل قدسكم تدنسها أقدام إسرائيل الغاصبة، صنيعة أمريكا في المنطقة؟ إلى متى تخضع القدس وفلسطين ولبنان والمسلمون المظلومون فيها لسلطة الجناة المجرمين، وأنتم تتفرجون بلا مبالاة ويقوم بعض حكامكم الخونة بإعانتهم على جرائمهم؟ إلى متى يلتزم ما يقارب المليار مسلم بمن فيهم المائتي مليون عربي جانب الصمت رغم ما يتمتعون به من ثروات وقدرات(...) ألا يعلم زعماء القوم أن الحوار السياسي مع ساسة التاريخ الجبابرة الجناة لا ينقذ القدس وفلسطين ولبنان(...) لتحرير القدس يجب الاستفادة من الأسلحة المستندة إلى الإيمان وقدرة الإسلام وترك الألاعيب السياسية التي تفوح منها رائحة المساومة وإرضاء القوى العظمى ـ جانباً...»[١].

ينطلق النِّداء من ثوابت رئيسية تتمثَّل بما يلي:

١ ـ الدَّعوة إلى ثورة عالمية ضد النظام العالمي الذي كان قائماً قبل سقوط الاتحاد السوفييتي بنداء: يا مستضعفي العالم اتحدوا وانهضوا.

٢ ـ اعتبار إسرائيل مشروعاً أمريكياً.

---

(١) الإمام القائد في مواجهة الصهيونية: مقتطفات من أحاديث ونداءات الإمام الخميني: وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران ١٤٠٣ هـ، ص٤٦.

٣ ـ الدعوة إلى تحرير المناطق المحتلة في فلسطين ولبنان من قبل المسلمين جميعاً.

٤ ـ اتهام السلطات الإسلامية بأنها عميلة النظام العالمي وصنيعته.

٥ ـ اعتبار الكفاح المسلّح، وليس المفاوضات، الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، ويجب ترك الألاعيب السياسية والمساومات والتنازلات.

وقبل ذلك بعشرين عاماً، بعيد خروجه من السجن عام ١٩٦٣، أوضح الإمام الخميني بجلاء موقف المؤسسة في خطاب ألقاه في مدينة قم، وكان ذلك في قمة نهوض النظام الشاهنشاهي المرتبط بالنفوذ الأمريكي والصهيونية، فقال: «إننا نعارض الفساد، ونقول بصراحة: إن برامج الحكومة تنظمها إسرائيل.. أجل إسرائيل، وإنكم تأتون بالخبراء العسكريين من إسرائيل، وترسلون الطلاب ببعثات دراسية إلى إسرائيل(..) إن جميع الدول الإسلامية وقفت صفاً واحداً مقابل الكفر وإسرائيل، أما أنتم ودولة تركيا فقد وقفتم صفاً واحداً إلى جانب إسرائيل(...) كل المسلمين في جانب ودولة إيران في جانب آخر. وهذا سيسيء إلى سمعة الشعب الإيراني، وسيظن إخواننا أهل السنة أن الشيعة هم عبدة اليهود.. يا شعوب العالم، اعلموا أن شعبنا يعارض التحالف مع إسرائيل، وأن حلفاء إسرائيل ليسوا منا، وليسوا من شعبنا، وليسوا من علمائنا، وأن ديننا يلزمنا بمعارضة أعداء الإسلام ومخالفتهم».

ثم يهاجم الإمام بجلاء الاتجاهات القومية الفارسية لدى نظام الشاه قائلاً: «تعال نتحاسب (يخاطب الشاه) لنعرف أي الفريقين أحق بأن يوصف بالرجعية.. أنت الذي تدعي بأن دولتكم أصبحت أمدن دولة، وتحتفل بمرور ألفين وخمسمائة سنة على تأسيسها، ولا تزال تتبجح وتفتخر بعظام نخرة ورفات بالية قذرة تريد إحياءها خلافاً للإسلام، وأنت الذي تفتخر بأمبراطوريتك وقدمها تتقهقر الآن في أواخر عمرك فتعاهد إسرائيل وإذا قلنا: لا تعاهد إسرائيل، قلت: أنكم رجعيون! تباً

لهذا المنطق، وتباً لكم وسود الله وجوهكم. . »[1].

لم يكن ممكناً أن نجد موقفاً أكثر وضوحاً يعبر عن المؤسسة الشيعية، قبل ما يزيد على الثلاثين عاماً، من هذا الخطاب. والسيد الإمام يحدد الخطوط العريضة التالية في فتواه.

١ ـ إن النِّظام الحاكم مرتبط بإسرائيل والصهيونية ارتباطاً وثيقاً. وهؤلاء مسؤولون مباشرة عن الفساد الاجتماعي والسياسي في إيران.

٢ ـ يوضح دور تركيا المرتبط بالحركة الصهيونية (وهذا ما يؤكده دورها المقرر في النظام الشرق أوسطي بعد إسرائيل).

٣ ـ المؤسسة الشيعية، بكل علمائها ومرجعياتها، ضد إسرائيل، وكل من يعترف بها يعتبر خارجاً عن المؤسسة.

٤ ـ الإسلام يلزم المسلم بمعارضة أعداء الإسلام. وإسرائيل تمثل قمة الكفر وأي معاهدة أو ميثاق معها هو خروج على الإسلام.

لقد كان للإمام فتاوى، عام ١٩٦٠، أكثر جلاء تتضمن تحريم إقامة أي علاقات تجارية وسياسية مع إسرائيل[2]. إضافة إلى اعتقاده الجازم بأنها تسعى لتحطيم الإسلام والقرآن وتكره علماء الإسلام، وقام عملاؤها بمهاجمة المدرسة الفيضية في قم عام ١٩٦٢، وأنها تسعى للسيطرة على الاقتصاد والزراعة ونهب خيرات إيران وثرواتها[3].

وقد ظلَّ الإمام ـ متأثراً بردود فعل العالم الإسلامي على تحالف إيران الشيعية مع إسرئيل ـ يردد في معظم خطبه أن الشيعة هم أعداء إسرائيل، وأنهم بريئون من حكوماتهم ـ في الدول التي يقيمون فيها ـ التي تعترف بإسرائيل.

---

(١) الإمام في مواجهة الصهيونية، ترجمة خضر نور الدين، مركز اعلام الذكرى الخامسة طهران، ١٤٠٣ هـ، ص٢٠.

(٢) سمير أرشدي ورياض عوّاد، الاستيطان والصهيونية، دار عواد ١٩٩١، دمشق، ص١٧٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٧٥.

كان لهذا الموقف أن يتصاعد، بُعَيد نفيه من وطنه، فأصدر فتواه البالغة الأهمية إثر معركة الكرامة (٢١ آذار ١٩٦٨) أعلن فيها جواز صرف الزكاة والتبرعات والصدقات لدعم الفدائيين الفلسطينيين[١]. وفي هذا المجال، كان للمؤسسة بكاملها أثر كبير في دفع جماهير الشيعة في جنوب لبنان لاحتضان الثورة الفلسطينية ودعمها بالمال والرجال وحمايتها من النظام والهجمات الصهيونية في آن معاً. وكان لكثير من كوادر الثورة الإسلامية معسكرات دائمة في جبهة القتال مع الصهاينة، نذكر منهم الشيخ منتظري وصالح الحسيني وجلال الدين الفارسي ومصطفى شمران وغيرهم.

بعد قيام الثورة، وبروز الجمهورية الإسلامية، وحتى رحيل الإمام لم يتغير موقف المؤسسة الشيعية في هذا المجال، بحيث لا نلاحظ أيّ فتاوى جديدة لتعزيز، أو إضافة مزيد إلى ما قام به الإمام (رحمه الله).

ومن الجدير ذكره أن إعلان يوم القدس العالمي، في الأسبوع الأخير من كل رمضان، ظل التعبير الأبرز عن مساهمة المؤسسة الشيعية في المسألة الفلسطينية. ولا تنسى مواقف حزب الله والسيِّد محمد حسين فضل الله في لبنان، على الرغم من الاضطراب والتشوش الذي تتسم به أحاديثه السياسية الكثيرة. ولكنه بالخلاصة ومن منطلق إسلامي يؤكد دائماً أن هناك تسوية قادمة مع العدو الصهيوني للأنظمة التي تحكم العالم العربي والإسلامي، هذه التسوية سوف تؤدي إلى ثورة عارمة تجتاح هذه الأنظمة بما يؤدي إلى سقوط النظام العربي برمته. فما كان قائماً قبل التسوية هو غيره بعدها. هناك أوضاع جديدة قادمة تختلف جذرياً عما كانت عليه قبل التسوية مع العدو. وبالمحصلة فلن يكون هناك سلام قادم، بل ثورة وسقوط أنظمة وفوضى ـ ولن يكون هناك نظام شرق أوسط جديد مستقر ترأسه إسرائيل[٢].

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٦.

(٢) راجع تصريحات الإمام السيد محمد حسين فضل الله في الصحف والمجلات اللبنانية الممتدة بين تاريخ الإعلان عن الفتوى في الشهر الثاني عشر من العام ١٩٩٤ وحتى الشهر الخامس من عام ١٩٩٥ راجع المقابلة مع السيد فضل الله مجلة فتح العدد ٣١٣ ـ ١٦/ ١٤/ ١٩٩٤ حيث يقول: لا مجال للتعايش مع =

٤ ـ مواقف مؤسسات إسلامية أخرى:

شمل الموقف المضاد لفتوى الشيخ عبد العزيز بن باز بجواز الصلح مع إسرائيل معظم العالم الإسلامي. وأصدر العشرات، من كبار رجال الدين والعلماء، فتاوى وآراء تخالف مضمون الفتوى، وتحمِّل الحكام وحدهم مسؤولية قرارهم في الصلح. هؤلاء العلماء يمثلون مؤسسات بعضها مرتبط بالسلطة وبعضها معارض لها، وبعضهم فيها، إذا اعتبرنا تجاوزاً الشيخين قلب الدين حكمت يار وبرهان الدين رباني على رأس السلطة في أفغانستان في خندقيهما المتقابلين.

شعار هذه الفتاوى واضح بأنه لا يجوز الاعتراف لليهود بشبر واحد من فلسطين، وأن فلسطين مسؤولية إسلامية، ولا أحد يملك حق التنازل عنها[١].

تراوحت الفتاوى التي كانت أشبه بعرائض وقع عليها أولئك العلماء بين النظرة الدينية التي ركّز عليها ستّون عالماً مشرقياً، وبين التحليل السياسي والديني في المذكرة التي وقع عليها ٢٣ عالماً مغربياً.

تنطلق المذكرة الفتوى الأولى من قدسية فلسطين وتاريخ تحريرها من قبل المسلمين الذين بذلوا الدماء لإعادتها إلى حوزة الإسلام قبل أربعة عشر قرناً. وقالوا: «إن مهمة علماء المسلمين وأهل الرأي أن يكونوا عصبة للمسلمين وأن يبصروهم إذا احتارت بهم السبل وأدلهمت عليهم الخطوب».

والواقع أن هذه العبارات تثير إشكالية ـ الثقافي الديني والسياسي بين العالم الذي يبدي رأيه والحاكم الذي ينفذ القرارات التي تمليها عليه ارتباطاته السياسية والضغوطات والمناورات والمصالح الآنية القطرية. فهل يعطي ذلك مؤشرات على صدام وشيك بين المؤسسة الدينية والسلطة، وعلى الانفصال بينهما بعد الخطوات المهرولة نحو الصلح التي اتخذت في هذا العقد من الزمن؟ وبما أننا لا نرجح ذلك،

= اليهود ولو أنهم دخلوا الإسلام لقلنا لهم اخرجوا من فلسطين».

(١) راجع مجلة البلاد بيروت، العدد ٢١٨، ٢٨ كانون الثاني ١٩٩٥ ص٢٦ ـ ٢٧.

فإن المؤسسة الإسلامية التي يعبر عنها أولئك العلماء لن تقطع الخيوط مع السلطة الحاكمة[1] لأسباب يقف العجز في طليعتها، وبؤس الثقافي العربي في مواجهة السياسي الطاغية. وربما كانت تلك سمة التاريخ الإسلامي برمته.

«نحن الموقعين على هذه الوثيقة نعلن للمسلمين في هذه الظروف الصعبة أن اليهود هم ﴿**أشد الناس عداوة للذين آمنوا**﴾ اغتصبوا فلسطين واعتدوا على حرمات المسلمين فيها(. .) وأن الجهاد هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين وأنه لا يجوز، بحال من الأحوال، الاعتراف لليهود بشبر من أرض فلسطين، وليس لشخص أو جهة أن تقرّ اليهود على أرض المسلمين أو تتنازل لهم عن أي جزء منها أو تعترف لهم بأي حق فيها.».

ويصف هؤلاء العلماء الموقعون على الفتوى «أن الاعتراف بإسرائيل خيانة لله وللرسول وأن تحريرها سيتم حتماً كما فعل صلاح الدين الأيوبي. .»[2].

إذن هذا هو كل ما تستطيعه المؤسسة الدينية الإسلامية، ممثلة بكبار علمائها في مشارق الأرض ومغاربها. أن تبدي رأياً تظن أنه يمكن أن يحرص على الثورة ضد ما هو قائم، منحرف وفاسد. لكنها، في الآن ذاته، ترفض منطق العنف في التصدي الإسلامي وغير الإسلامي، وتسعى للحفاظ على كيانها من السلطة كما هو مأثور عن المؤسسة الدينية في المملكة الأردنية ومن بين أفرادها الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني أحد الموقعين.

بالتوازي ينطلق بيان علماء المغرب العربي من الهجوم على الولايات المتحدة الأمريكية ومؤتمر مدريد الذي يصفونه بأنه عقد لتصفية القضية الفلسطينية، وبما أن العرب يمرون بحالة من العجز المفرط فإنهم يرون واجبهم كعلماء مسلمين أن يذكروا بفتوى سابقة صدرت عام ١٩٨٩ عن ٦١ عالماً يمثلون جميع أقطار المسلمين تحرم الصلح مع اليهود وتطالب بتحرير فلسطين، وأن رابطة علماء

---

(١) من بين الموقعين الفتوى الشيخ محفوظ نحناح قائد حزب (حماس) في الجزائر.

(٢) المرجع السابق.

المغرب أصدرت فتواها عام ١٩٧٩ برفض معاهدة كامب ديفيد بين السادات وإسرائيل وأنها باطلة شرعاً وقانوناً.

هذه المذكرة تنطلق، في التحليل السياسي، إلى مداه، عندما تذكّر بحرب الخليج الثانية التي شنها حلفاء أمريكا على شعب العراق، وكون هذه الحرب منطلقاً لمرحلة تتسم بفرض الاستسلام وإسكات صوت الشعب الفلسطيني، وإتاحة الفرصة لقيام إسرائيل الكبرى(١).

لهذا، فإنهم يؤكدون أن القضية الفلسطينية مسؤولية إسلامية، لا يحقّ لأحد التصرف فيها بقرار صلح إلا بما نص عليه القرآن والسنة، وكل اعتراف أو تنازل يعتبر خارجاً على الشرعية الإسلامية.

هذا البيان يتهم الحكومات الإسلامية بأنها لم تستشر شعوبها في عقد الصلح بأي من طرق الديمقراطية السليمة، لهذا، فإن أي اتفاقات توقع لا تلزم الشعوب الإسلامية. ويعود هذا البيان ـ الفتوى إلى مرحلة الحروب الصليبية، محللاً التاريخ الإسلامي، في تلك الفترة بفقرة تقول «إنه لم يثبت، خلال مرحلة تلك الحروب التي استمرت ٩٥ عاماً، أن أحداً من قادة الدول الإسلامية على اختلاف جنسياتهم وقومياتهم اعترف بشرعيّة الحكم الصليبي لفلسطين، أو تنازل عن أي حق من حقوق شعبها».

ومن خلال الحقائق التي رشحت عبر تاريخ تلك المرحلة يبدو هذا القول بعيداً عن الدقة التاريخية؛ ذلك أنه لم يكن مطلوباً في تلك الأيام بغياب أية مؤسسات دولية تراقب المعاهدات والوثائق أن يؤكّد أنه لم يتم تنازل أو تحالف مع الصليبيين. فقد قام حكام وأمراء بالتعاون مع الصليبيين ضد حكام مسلمين، وهذا أصبح من الأمور التي يضرب بها المثل عن مقارنة واقع اليوم بتلك الأيام. فلا معنى لعبارة اعتراف «بشرعية أو تنازل» ما دام الغازي المحتل لم يطلب ذلك أصلاً. بينما تتسم القضية الفلسطينية اليوم بأنها تتحرك في عصر «الشرعية الدولية» والوثائق

(١) المرجع السابق.

والمعاهدات والأنظمة المرتبطة بالمركز الامبريالي في نظام عالمي وحيد القطب.

هذا البيان الذي وقعه ٢٣ عالماً مغربياً من كبار أساتذة الجامعات الإسلاميين هناك يختتم فتواه بتفسير للقرآن الكريم من فاتحة سورة الإسراء ﴿**وقد أوحينا إلى بني إسرائيل لتفسدن في الأرض مرتين..**﴾ ليقول أن الأمة تعيش عصر الإفساد الأول لبني إسرائيل في الأرض[١] المقرون بالعلوّ الكبير. ولا شك أن الانتصار النهائيّ سيكون للمسلمين[٢].

٥ ـ رد أسامة بن لادن:

يذكِّر الشيخ ابن لادن تلميذ بن باز، في رده على أستاذه، بفتوى ابن باز السابقة التي يقول فيها «إنني أرى أنه لا يمكن الوصول إلى حل تلك القضية إلا باعتبار القضية إسلامية وبالتكاتف بين المسلمين لإنقاذها وجهاد اليهود جهاداً إسلامياً حتى تعود الأرض إلى أهلها وحتى يعود شذاذ اليهود إلى بلادهم»[٣].

يقول بن لادن: «هب أن هذا العدو اليهودي عدو يجوز معه الصلح وتوافرت فيه الشروط فهل ما تقوم به الأنظمة والحكومات والطواغيت العربية الانهزامية مع اليهود من سلام كاذب مزعوم يعتبر سلاماً تجوز إقامته مع العدو»؟

ويتهم بن لادن شيخه بأنه يعطي الشرعية للأنظمة التي لم تعد إسلامية، ويعتبر الفتوى تلبيساً على الناس لما ما فيها من إجمال مخلّ وتعميم مضلّ، فهي لا تصلح فتوى في حكم سلام منصف، فضلاً عن هذا السلام المزيف مع اليهود، ويهاجم بن لادن الشيخ بن باز ويطلب منه الاعتزال لكبر سنّه وضعف عقله

---

(١) إن تفسير هذه الآية بهذه الطريقة لا ينسجم مع التفسيرات المعتمدة للقرآن.. ويعتبر تأويلاً حديثاً للآية الكريمة لا يوجد ما يسنده في الآثار المنقولة عن المفسرين القدامى والمحدثين.

(٢) المرجع السابق.. من الموقعين على الفتوى: الدكتور إدريس الكتاني، الدكتور محمد بن البشير الحسني رئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بالرباط، الدكتور عبدالله بن صديق وغيرهم.

(٣) مجلة روز اليوسف، مصر، عدد ٣٤٧٨، ٦ شباط ١٩٩٥، ص٢٧.

وخضوعه للسلطة. ويذكره أيضاً بفتاواه القديمة: تكفير الأنظمة العلمانية والحكام الطواغيت[1].

تمثل الفتوى التي أطلقها ابن باز حالة تزوير للعقيدة الإسلامية ليس له مثيل في تاريخ المسلمين. والغريب أن الشيخ سبق له وأصدر فتوى مضادة تماماً قبل سنوات قليلة. لم يتغير الوضع ولا المصادر ولا التراث ولا السلطة، كل المتغيرات في الثوابت المشار إليها تتمثل في مصلحة النظام السعودي في ظروف نضجت، برأي مركز القرار الأمريكي، لا قرار التسوية وبناء نظام شرق أوسطي ليس لأي طرف عربي أو إسلامي دور فيه. وهنا يأتي دور المؤسسة الدينية الرسمية الوهابية بعد أن اكتسبت ثقلها التاريخي بفعل أموال النفط ومشاريع الثورات والدكاكين الثورية وشراء المثقفين وبناء المؤسسات الموازية المرتبطة بها بما أصبح يطلق عليهم «المثقفون النفطيون»

بمثابة الخاتمة:

كم تطرح جدلية المؤسسة الدينية الإسلامية والسلطة من جهة والمشكلات التي واجهت الأمة الإسلامية وفي قمتها راهن التحديات متمثلة بالتهديد بسحق الأمة العربية والإسلامية وتحطيم الأيديولوجيا من جهة أخرى.. كم تطرح على المثقف العربي من أسئلة مؤرقة. الأمة في مواجهة مستمرة معه الحركة الصهيونية وداعميها، كانت تهدأ في فترات وتزداد سعاراً في فترات أخرى، لكننا اليوم نعيش لحظات المواجهة الساخنة معها بما في ذلك استحالة الوقوف في هامش السلبية. الأعداء مسلحون بدروس مستفادة وتراث كبير من التجارب ودراسة واسعة للتاريخ.. وفي المقابل نحن ننزلق إلى وضع أقسى ما فيه الاضطراب في الرؤية وانعدام الوعي التاريخي والعمق الاستراتيجي وسيطرة محكمة على النظامين العربي والإسلامي عبر

(١) أشرنا، في هذا المجال الى نشاط بن باز السابق في دعم ثوار افغانستان بالاموال، أما ما يدعو الى التأمل في علم المفتي فهو كتابه المعنون «الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الارض وإمكان الصعود الى الكواكب» فهو يرفض نظرية كروية الارض ودورانها حول الشمس.. ومن يقرأ كتابه يلمس انساناً ساذجاً متخلفاً يعيش في قرون ماضية سحيقة ويرفض ان يتقبل معطيات القرن العشرين العلمية.

ترتيبات استمرت ما يزيد على قرن من الزمان.

عندما حدثت الهجمات الصليبية والمغولية على العالم الإسلامي كان دائماً هناك عمق كبير يسمح بالمبادرة والاستناد والحشد والارتداد وتحقيق هزيمة الأعداء ـ وكان هناك أيضاً مناخ حضاري متقدم يسمح بخلق آليات دفاعية وهجومية ساعدت على تدمير العدو.

أما في هذا العصر ـ نهاية القرن العشرين ـ فإن ما يبدو من واقع الحال أن الأمة لم تستفد من دروس الماضي رغم التجائها إلى التراث تنهل منه للتصدي، وبالمقابل يقوم العدو ـ مستفيداً من دروس الماضي ـ بمنع الأمة من استخدام هذا التراث ليكون مظلة للحشد والاتحاد وتشكيل مقاومة ولو في أبسط صورها. . وكم تبدو الصورة مؤلمة عندما يشهد العصر مناخاً مواتيا للامبريالية والصهوينية ـ الغربية واليهودية لكي تشكلا الأصدقاء والمعارضين معاً، في اختراق ليس له مثيل، ساعدها فيه نظام من المعلوماتية المتطور إلى حد مذهل. لقد أعطتهم المعرفة قوّة في الهجوم، وانعدامها مع التشوش في الرؤية وضعنا في موقع الدفاع الضعيف ناهيك عن حاجتنا الماسة إلى الهجوم.

الفتوى التي أطلقها بن باز تمثل حالة تزوير للعقيدة الإسلامية ليس له مثيل في تاريخ المسلمين. والغريب أن الشيخ سبق له وأصدر فتوى مضادة تماماً قبل سنوات قليلة. . لم يتغير الوضع ولا المصادر ولا التراث ولا السلطة، كل المتغيرات في الثوابت المشار إليها هو مصلحة النظام السعودي في ظروف نضجت، برأي مركز القرار الأمريكي، لا قرار التسوية وبناء نظام شرق أوسطي ليس لأي طرف عربي أو إسلامي دور فيه. وهنا يأتي دور المؤسسة الدينية الرسمية الوهابية بعد أن اكتسبت ثقلها التاريخي بفعل أموال النفط ومشاريع الثورات والدكاكين الثورية وشراء المثقفين وبناء المؤسسات الموازية المرتبطة بها بما أصبح يطلق عليهم (المثقفون النفطيون).

ماذا يمكن أن يطلق من حكم قيمة على تلك المؤسسة التي يرأسها إنسان

يصفه من تعاملوا معه بالتقوى والورع والعلم والصراحة في الحق، مع تحفظاتنا الشديدة حول تقييماتهم؟!

مرة أخرى ـ في التاريخ الحديث للمؤسسات الدينية الإسلامية ـ تقف جميعاً في مواجهة المؤسسات الوهابية.. وكلهم يطالبون المفتي بالتراجع والتنحي وقد مضى الزمن ولم يبق من عمره إلا القليل.

المسألة بكل تأكيد لا تتعلق بالأشخاص.. إنها أزمة المنهج، ولم يكن بحث كالذي نحن بصدده إلا أن يدين المنهج، وما نشأ على قاعدة خاطئة لن تكون نتائج سلوكه بأقل خطأ وشذوذاً، وهذا هو حال المؤسسة الوهابية.

لم تكن المؤسسة كما رأينا طبيعية المنشأ أو ذات أهداف إصلاحية حقاً.. نشأت والشكوك تحيط بها من كل جانب. وتأسست على قاعدتها سلطة لا يجرؤ حتى حلفاؤها على مدح سلوكها، لا سياسياً ولا إسلامياً، فليس من سلطة عربية أو إسلامية أشد ارتباطاً وخضوعاً بقرارات المركز الامبريالي منها، مع أهمية موقعها الإسلامي والجغرافي، فهي تقوم على بحر من النفط، وفيها تقع مقدسات المسلمين جميعاً.

لقد قادت المؤسسة الدينية الإسلامية ثورات وشكلت أنظمة وحاولت الإصلاح فيما لم يكن لها فيه مجال تأثير كبير.. ومع ذلك فقد ظلت هدف السلطات الحاكمة في سبيل تدجينها وابتزازها.. بل إن اختراق بعضها كان هدف الإدارة المركزية للقرار في الغرب، ولا مندوحة من الإقرار بأنهم استطاعوا ذلك.

وإذا كان بن باز قد أصدر فتويين في مسألة واحدة يناقض أحدهما الآخر، فمن يضمن الآخرين في مشارق الوطن ومغاربه.. وإذا كان الاختراق الصهيوني القديم قد أدى إلى تشويه تفسيرات معتمدة للقرآن الكريم بما يتعلق ببني إسرائيل فمن يضمن ظهور آثار اخترقات أخرى في مستقبل قادم ما دامت المؤسسة بغالبياتها في حضن سلطات ليست فوق مستوى الشبهات؟!

إن الاعتزال أو التقية لم تعودا مشروعتين في هذا الزمن الذي يقدم فيه

المسلمون المناضلون مئات الآلاف من الشهداء. . ورغم أن أفضل الجهاد كلمة حق إذا لم يكن القتال ممكناً كفرض عين على المكلف، فإن المثقفين حملة العلم يحملون على كواهلهم عبئين معاً. . الكلمة واستخدام السيف وتجهيز كوادر النضال. وبالتوازي فإنهم مطالبون بالصبر والمزيد من الوعي والثقافة والقراءة والاطلاع في زمن يلهث جرياً وتسوده أنظمة المعلوماتية.

ويكاد المتابع يجزم أن بعض مصدري الفتاوى لا يعلمون عن الصهيونية ومشاريعها شيئاً، وكان بعضهم في زمن ما يعتقد أن أمريكا أفضل من الاتحاد السوفييتي الكافر ما دامت الأولى أهل كتاب. . وكان بعضهم ولا يزال يفصل الدين عن السياسة، باعتقاد غريب عن إمكانية هذا الفصل فعلاً.

واليوم وبعد أن تمكنت الأنظمة من سحب رجال الدين لخدمتهما مجدداً كما عهدها في مراحل تاريخية متعددة منذ معاوية بن أبي سفيان، فهل يمكن قبول أقوال كالتي قرأناها عن بعضهم في المؤسسة الدينية «نحن لا شأن لنا بالسياسة. . السياسة تحيّر الألباب في هذا العصر وتحير العقول، تكتيك، قد تراه صاعداً وهو هابط فقد تراه هابطاً وهو صاعد، قد تراه يمشي ذات اليمين وهو يخطط للاتجاه إلى اليسار، هذا الشيء أعان الله أصحابه عليه».

ألا يدفعنا هذا القول للتساؤل: أهي تقيَّة، أم تصوف وانعزالية أم عجز أم جهل أم كلها جميعاً؟!

اعتزل الحسن البصري الشهير النضال وتصوّف بعد فجيعته بدماء المسلمين وصراع كبار الصحابة مع بعضهم، فهل يمكن أن نقيّم المعتزلين المهادنين اليوم كالحكم الذي أطلقناه على أولئك في ذاك الزمان البعيد وقد صاروا قدوة لباحثين وفقهاء وشعراء ومثقفين وكلهم يقول «كفانا الله دماءهم فلنكف عن الخوض في سيرتهم» وهل تعذر المؤسسة الدينية المرتبطة بالسلطة إذا رضيت بالاعتزال والهمس من بعيد؟. . أن تهاجم الجميع باسم الدين ما عدا السلطة التي تقبع في حضنها، أن يكون ديدنها إيجاد الأعذار والتبريرات لأولياء نعمتها؟

الحركة الصهيونية والمسألة الفلسطينية عمرها في الفعل بهذا الاتجاه (نحو فلسطين) قرنان من الزمن على الأقل. وقد كتب الكثير. . وكما رأينا في بروتوكولات حكماء صهيون المذهلة المضمون والتي قرأها القليل. فإن من أهم أهدافها أو من ضمن أهمها صرف الناس عن القراءة في بلاد، وتوجيههم إلى قراءات معينة (كالجنس والعنف) في بلاد أخرى.

وفي بلادنا تصل نسبة القراءة إلى عدد السكان بحساب زمن القراءة: عشر دقائق في السنة لكل مواطن عربي، أو بمعنى آخر أنها تكاد تصل إلى الصفر.

على هذا القياس فربما لم يقرأ أو يسمع بالفتوى لابن باز إلا القليل، ولكن كثيراً من النخب العربية والإسلامية سمع بها، ولا بد أنها أراحت ضمائر من يرغب في راحة الضمير أو الاعتزال أو يكفيه في هذه المرحلة أي مكسب من العدو مهما كان ضئيلاً.

مهما يكن. . فلن يقبل المسلمون أن يكون الإسلام غطاء لأي تصرف يخالفه وأن ينتهك الإسلام بغطائه ذاته من قبل رجال دين وطنوا أنفسهم على بيع دينهم لشراء دنيا السلطان وبريقه وأضواء أعلامه.

إن ما قامت به فئة منحرفة في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من خروج على العقد والعهد التي مضى عليه ومن أجل تنفيذه عشرات الألوف من الشهداء لم يكن له ما يبرره، حتى ما يقال عن انحدار أنظمة أو حركات نهضوية أو انحطاط مرحلة. . ليس ما يبرر الخيانة أبداً. . وقد حاول هذا الكتاب أن يترك فسحة للمقارنة، فسجل في الملاحق نصوصاً عن العقود والعهود بمقابل الاتفاقات التي مسحتها ومعها تضحيات الشهداء. ولم يكن ممكناً إلقاء نظرة موسعة في مسألة القضية الفلسطينية وتطوراتها، ذلك أن أي باحث لن يضيف جديداً» يكفيه أن يشير إلى خطوط عريضة ومصادر تتيح فسحة المقارنة والاستنباط والحكم.

وفي الآن ذاته لم يكن ممكناً ولا ضرورياً مناقشة مقولات المؤسسات الإسلامية كافة بما تستحقه، لكن الحقيقة تظل دوماً وفي كل الأزمان متاحة للراغب

والمريد والذي يحاول الوصول إليها. . وكم هي متعبة ومريرة وشاقة دروب الحق، وكم هو مكلف قول الحق. . .وكم تبدو مريرة وعميقة الحزن كلمات الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه مخاطباً الحق «أيها الحق. . لم تترك لي صاحباً».

وكم هو عميق كان. . حزن رسول الله(ص) وهو يخرج فجراً قبيل التحاقه بالرفيق الأعلى مخاطباً أصحاب القبور: يا أهل البقيع هنيئاً لكم ما أنتم فيه. . إن الفتن أقبلت كقطع الليل بعضها آخذ برقاب بعض. . والذي نفس محمد بيده، إنّ بطن الأرض خير من ظاهرها.

ولكن المستقبل يظل مشرقاً لأصحاب المبادىء العظمى الذين يصنعون التاريخ. . رغم كل شيء. . فما هي إلا إحدى الحسنيين. . دوماً.

والحمد لله رب العالمين.

ملحق رقم ١

نموذج من الأسئلة والأجوبة للصعود من درجة أستاذ إلى رفيق في العقد الملوكي/الماسونية الملوكية وهي التي يرتفعإليها المخلصون من غير اليهود بعد الدرجة ٣٣

س١ : أيها الأجانب قد أبلغنا أنكم ترغبون في مشاركتنا فمن أين أنتم؟

ج١ : من بابل.

س٢ : وماذا تريدون؟

ج٢ : لما سمعنا أنكم عازمون على بناء الهيكل في أورشليم ثانية لإله بني إسرائيل أتينا نسألكم قبول مساعدتنا لكم في هذا المشروع الجليل.

س٣ : يلزمنا قبل توجيه التفاتنا لالتماسكم أن نخبركم أنه لا يمكن لأجنبي بأية صفة كانت أن يشتغل في هذا العمل المقدس، إذن يلزمني أن أعرف من أنتم؟

ج٣ : نحن أخوة من قبائلكم وعشائركم.

س٤ : هل أنتم من أولئك الأخسّاء الذين هربوا حينما كان الهيكل والمدينة المقدسة تحت الحصار؟ أو من الذين تركهم حراس بابل لحراثة الأرض؟

ج٤ ـ حاشا أن نكون من هؤلاء الجبناء الهاربين أو ممن تركهم حراس بابل لحراثة الأرض، إنما نحن فئة من أولى الحسب والنسب من سلالة الأحبار والملوك من أبناء ابراهيم وإسحق ويعقوب، فنحن أيها الأفاضل من أبناء نسل أمراء يهوذا وحكامه الذين لأجل خطاياهم وأثام الشعب قد سيقوا مع ملكهم (يهوباكيم إيكينا) إلى الأسر على يد نبوزردان قائد جيش بنو خذ نصر (بختنصّر ـ ملك بابل) حيث مكثوا سبعين سنة ثم نعود إلى أوطاننا كما أنبأنا بذلك أرميا النبي. ولما أن السبعين سنة انتهت في الأول من حكم كسرى ملك العجم الذي ألهمه الله أن يدعي هذه

الدعوة، وهي أن الله قد أعطاني ممالك الأرض، وقد أمرني أن أبني له بيتاً في أورشليم، وأبني بيت إله بنى إسرائيل. ولعلمنا بصدق هذا الوعد، أتينا نقدم مساعدتنا في هذا المشروع الحميد، طالبين لنا إذناً بالإقامة في أرض وطننا التي أنبأنا الأنبياء أننا سنسكنها في هدوء وسكينة إلى الأبد.

س٥ : ولماذا كنت بلا نعال عند الدخول إلى غرفة العقد الملوكي التي ترمز إلى هيكل سليمان؟

ج٥ : رمزاً إلى الأمر الذي أمره الله لموسى ويشوع.

س٦ : لماذا كان عدد الدقّات أربعة في هذه الدرجة؟

ج٦ ـ لما كان العقد الملوكي أسمى الدرجات الماسونية ومتممها فالعدد أربعة هو أكثر الأعداد موافقة له أي: المبتدىء والأستاذ والرفيق

س٧: وبماذا أمرك بعد ذلك الرئيس (زروبابل)؟

ج٧: أن أنحدر مرة ثانية في العقد وأن أصغي لقسم النبي حجي.. الخ..

(اكتسبت من كتاب الصهيونية والماسونية ـ مرجع سابق ـ من السيد يوسف الحاج المنسحب من الماسونية والقائل «أن الماسونية هي جمعية يسيرها في العالم أبناء إسرائيل لأغراض يهودية بحتة يقصد منها تفرقة الشعوب لا جمعها كما يدعون».

الملحق رقم ٢

مشروع الميثاق القومي الفلسطيني
وضعه السيد أحمد الشقيري
ممثل فلسطين لدى جامعة الدول العربية

يتضمن هذا الميثاق القومي الأهداف العامة للشعب الفلسطيني والمبادىء الأساسية التي تقوم عليها الحركة القومية لتحرير فلسطين، وهي كما يلي:

١ ـ فلسطين وطن عربي تجمعه روابط القومية العربية مع سائر الأقطار العربية التي تؤلف في مجموعها الوطن العربي الكبير.

٢ ـ فلسطين بحدودها التي كانت قائمة في عهد الانتداب البريطاني، وحدة إقليمية لا تتجزأ.

٣ ـ الشعب العربي الفلسطيني، صاحب الحق الشرعي في وطنه وهو جزء لا يتجزأ من الأمة العربية يشترك معها في آمالها وآلامها، وفي كفاحها من أجل الحرية والسيادة والتقدم والوحدة.

٤ ـ شعب فلسطين يقرر مصيره، بعد أن يتم تحرير وطنه، وفق مشيئته وبمحض إرادته واختياره من حيث كيانه وحياته القومية ومستقبله السياسي.

٥ ـ الشخصية الفلسطينية صفة أصيلة لازمة لا تزول وهي تنتقل من الآباء إلى الأبناء.

٦ ـ الفلسطينيون هم المواطنون العرب الذين كانوا في فلسطين حتى عام ١٩٤٧ سواء من نزح منهم أو بقي فيها، وكل من ولد لأب عربي فلسطيني بعد هذا

التاريخ داخل فلسطين أو خارجها هو فلسطيني.

٧ ـ المواطنون اليهود الذين هم من أصل فلسطيني يعتبرون فلسطينيين إذا كانوا راغبين بأن يلتزموا العيش بولاء وسلام في فلسطين.

٨ ـ إن تنشئة الجيل الفلسطيني الذي لم يولد في فلسطين هو واجب قومي رئيسي ويجب اتخاذ جميع وسائل التوعية والتثقيف لتعريفه بوطنه تعريفاً روحياً عميقاً يشده على الدوام إلى وطنه شداً وثيقاً راسخاً.

٩ ـ المذاهب العقائدية سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية لا تشغل أهل فلسطين عن واجبهم الأول في تحرير وطنهم، والفلسطينيون جميعاً جبهة قومية واحدة يعملون لتحرير وطنهم بكل مشاعرهم وطاقاتهم الروحية والمادية.

١٠ ـ يكون للفلسطينيين ثلاثة شعارات: الوحدة الوطنية، والتعبئة القومية، والتحرير، وبعد أن يتم تحرير الوطن يختار الشعب الفلسطيني لحياته العامة ما يشاء من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

١١ ـ الشعب الفلسطيني يؤمن بالوحدة العربية، وليؤدي دوره في تحقيقها، يجب عليه في هذه المرحلة من كفاحه أن يحافظ على شخصيته الفلسطينية ومقوماتها، وتنمية الوعي بوجودها ومناهضة أي من المشروعات الأجنبية التي من شأنها إذابتها أو إضعافها.

١٢ ـ الوحدة العربية وتحرير فلسطين هدفان متكاملان يهيء الواحد منهما تحقيق الآخر. فالوحدة العربية تؤدي إلى تحرير فلسطين، وتحرير فلسطين يؤدي إلى الوحدة العربية، والعمق لهما يسير جنباً إلى جنب.

١٣ ـ إن مصير الأمة العربية، بل الوجود العربي بذاته، مرهون بمصير القضية الفلسطينية، ومن هذا الترابط ينطلق سعي الأمة العربية وجهدها لتحرير فلسطين، ويقوم شعب فلسطين بدوره الطليعي لتحقيق هذا الهدف القومي المقدس.

١٤ ـ إن تحرير فلسطين من ناحية عربية، هو واجب قومي تقع مسؤولياته

كاملة على الأمة العربية بأسرها حكومات وشعوباً وفي طليعتها الشعب العربي الفلسطيني، ومن أجل ذلك فإن على الأمة العربية أن تعبىء جميع مواردها المادية والروحية في سبيل تحرير فلسطين وبصورة خاصة أن تبذل العون والتأييد للشعب العربي الفلسطيني لتمكينه من تحرير وطنه.

١٥ ـ إن تحرير فلسطين من ناحية روحية، يهيء للبلاد المقدسة جواً من الطمأنينة والسكينة تصان في ظلاله جميع المقدسات الدينية وتكفل حرية العبادة والزيارة للجميع من غير تفريق ولا تمييز سواء على أساس العنصر أو اللون أو اللغة أو الدين. ومن أجل ذلك فإن أهل فلسطين يتطلعون إلى نصرة جميع القوى الروحية في العالم.

١٦ ـ إن تحرير فلسطين من ناحية دولية هو عمل دفاعي تقتضيه ضرورات الدفاع عن النفس كما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة ومن أجل ذلك فإن الشعب الفلسطيني الراغب في مصادقة جميع الشعوب يتطلع إلى تأييد الدول المحبة للحرية والعدل والسلام لإعادة الأوضاع الشرعية إلى فلسطين وإقرار الأمن والسلام في ربوعها، وتمكين أهلها من ممارسة السيادة الوطنية والحرية القومية.

١٧ ـ إن تقسيم فلسطين الذي جرى عام ١٩٤٧ وقيام إسرائيل باطل من أساسه مهما طال عليه الزمن لمغايرته لإرادة الشعب الفلسطيني وحقه الطبيعي في وطنه ومجافاته للمبادىء العامة التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة وفي مقدمتها حق تقرير المصير.

١٨ ـ إن دعوى الروابط التاريخية أو الروحية بين اليهود وفلسطين لا تتفق مع حقائق التاريخ ولا مع مقومات الدولة في مفهومها الصحيح. وأن اليهودية بوصفها ديناً سماوياً جديراً بالتقدير والاحترام ليست قومية ذات وجود مستقل وكذلك فإن اليهود ليسوا شعباً واحداً له شخصيته المستقلة وإنما هم مواطنون في الدول التي ينتمون إليها.

١٩ ـ الصهيونية حركة استعمارية في نشوئها، عدوانية وتوسعية في أهدافها،

عنصرية تعصبية في تكوينها، وفاشتية بمراميها ووسائلها. وأن إسرائيل بوصفها طليعة هذه الحركة الهدامة، مصدر دائم للقلق والاضطراب في الشرق الأوسط خاصة، وللأسرة الدولية بصورة عامة. ومن أجل ذلك فإن أهل فلسطين جديرون بعطف الأسرة الدولية وتأييدها.

٢٠ ـ إن دواعي الأمن والسلم ومقتضيات الحق والعدل تقتضي من الدول جميعها، حفظاً لعلاقات الصداقة بين الشعوب واستبقاء لولاء المواطنين لأوطانهم، أن تعتبر الصهيونية حركة غير مشروعة وتحرم وجودها ونشاطها.

٢١ ـ يؤمن الشعب الفلسطيني بمبادىء العدل والحرية والسيادة وتقرير المصير والكرامة الإنسانية وحق الشعوب في ممارستها ويؤيد جميع المساعي الدولية التي تهدف إلى إقرار السلم على أساس الحق والتعاون الدولي الحر.

٢٢ ـ يؤمن الشعب الفلسطيني كذلك بالتعايش السلمي على أساس الوجود الشرعي إذ لا تعايش مع العدوان ولا سلم مع الاحتلال والاستعمار.

٢٣ ـ تنشأ لتحقيق هذا الميثاق منظمة قومية فلسطينية تعرف بمنظمة تحرير فلسطين وتقوم بدورها الكامل في تحرير فلسطين، وفق النظام الأساسي لهذه المنظمة.

٢٤ ـ لا تمارس هذه المنظمة أية سيادة إقليمية على الضفة الغربية في المملكة الأردنية الهاشمية ولا قطاع غزة ولا منطقة الحمة. وسيكون نشاطها على المستوى القومي الشعبي في الميادين التحريرية والتنظيمية والسياسية والمالية.

٢٥ ـ تكون هذه المنظمة مسؤولة عن حركة الشعب الفلسطيني في نضاله من أجل تحرير وطنه في جميع الميادين التحريرية والسياسية وسائر ما تتطلبه قضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي.

٢٦ ـ تتعاون منظمة التحرير مع جميع الدول العربية كل حسب إمكانياتها، ولا تتدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة عربية.

٢٧ ـ يكون لهذه المنظمة علم وقسم ونشيد ويقرر ذلك كله بموجب نظام خاص.

٢٨ ـ يلحق بهذا الميثاق نظام يعرف بالنظام الأساسي لمنظمة التحرير تحدد فيه كيفية إقامة المنظمة ومؤسساتها واختصاصاتها وجميع ما تقتضيه الواجبات الملقاة عليها بموجب هذا الميثاق.

٢٩ ـ يعرض هذا المشروع على المجلس الوطني المنصوص عليه بالنظام الأساسي للنظر فيه وبعد إقراره بالصيغة التي يصادق عليها لا يعدل إلا بأكثرية الثلثين من قبل المجلس الوطني في جلسة خاصة يدعى لها من أجل هذا الغرض.

الميثاق القومي الفلسطيني

مقدمـــــة:

نحن الشعب العربي الفلسطيني، الذي خاض معارك ضارية متصلة من أجل الحفاظ على وطنه والدفاع عن شرفه وكرامته، والذي قدم عبر السنين قوافل متتابعة من الشهداء الخالدين، وسطر أروع صفحات البذل والتضحية والفداء، نحن الشعب العربي الفلسطيني، الذي تألبت عليه عوامل الظلم والشر والعدوان، وتآمرت عليه قوى الصهيونية العالمية والاستعمار، وعملت على تشريده واغتصاب دياره وأراضيه واستباحة حرماته وانتهاك مقدساته، فما استكان أو لانت له قناة، نحن الشعب العربي الفلسطيني، الذي آمن بعروبته وبحقه في استخلاص وطنه وتحقيق حريته وكرامته، وصمم على حشد قواه وتعبئة كل جهوده وطاقاته من أجل متابعة نضاله والسير قدماً على طريق الجهاد المقدس حتى يتحقق له النصر النهائي الكامل، نحن الشعب العربي الفلسطيني، استناداً إلى حقنا في الدفاع عن النفس واسترداد الوطن السليب بكامله وهو الحق الذي أقرته الأعراف والمواثيق الدولية، وفي مقدماتها ميثاق الأمم المتحدة، وتطبيقاً لمباديء حقوق الإنسان، وإدراكاً منا لطبيعة العلاقات السياسية الدولية، بمختلف أبعادها ومراميها، واعتباراً للتجارب التي حلت في كل ما يتعلق بأسباب النكبة وأساليب مجابهتها، وانطلاقاً من الواقع العربي الفلسطيني، ومن أجل عزة الإنسان الفلسطيني وحقه في الحياة الحرة الكريمة، وشعوراً منا بالمسؤولية القومية الخطيرة الملقاة على عاتقنا، من أجل هذا كله، نحن الشعب العربي الفلسطيني نملي هذا الميثاق القومي الفلسطيني ونعلنه، ونقسم على تحقيقه.

مادة١ ـ فلسطين وطن عربي تجمعه روابط القومية العربية بسائر الأقطار

العربية التي تؤلف معها الوطن العربي الكبير.

مادة٢ ـ فلسطين بحدودها التي كانت قائمة في عهد الانتداب البريطاني وحدة إقليمية لا تتجزأ.

مادة٣ ـ الشعب العربي الفلسطيني هو صاحب الحق الشرعي في وطنه وهو جزء لا يتجزأ من الأمة العربية يشترك معها في آمالها وآلامها، وفي كفاحها من أجل الحرية والسيادة والتقدم والوحدة.

مادة٤ ـ شعب فلسطين يقرره مصيره، بعد أن يتم تحرير وطنه، وفق مشيئته وبمحض إرادته واختياره.

مادة٥ ـ الشخصية الفلسطينية صفة أصيلة لازمة لا تزول وهي تنتقل من الآباء إلى الأبناء.

مادة٦ ـ الفلسطينيون هم المواطنون العرب الذين كانوا يقيمون إقامة عادية في فلسطين حتى عام ١٩٤٧، سواء من أخرج منها أو بقي فيها، وكل من ولد لأب عربي فلسطيني بعد هذا التاريخ داخل فلسطين أو خارجها هو فلسطيني.

مادة٧ ـ اليهود الذين هم من أصل فلسطيني يعتبرون فلسطينيين إذا كانوا راغبين بأن يلتزموا العيش بولاء وسلام في فلسطين.

مادة٨ ـ إن تنشئة الجيل الفلسطيني تنشئة عربية قومية واجب قومي رئيسي ويجب اتخاذ جميع وسائل التوعية والتثقيف لتعريفه بوطنه تعريفاً روحياً عميقاً يشده على الدوام إلى وطنه شداً وثيقاً راسخاً.

مادة٩ ـ المذاهب العقائدية سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية لا تشغل أهل فلسطين عن واجبهم الأول في تحرير وطنهم والفلسطينيون جميعاً جبهة وطنية واحدة يعملون لتحرير وطنهم بكل مشاعرهم وطاقاتهم الروحية والمادية.

مادة١٠ ـ يكون للفلسطينيين ثلاثة شعارات: الوحدة الوطنية، والتعبئة القومية، والتحرير، وبعد أن يتم تحرير الوطن يختار الشعب الفلسطيني لحياته

العامة ما يشاء من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

مادة١١ ـ الشعب الفلسطيني يؤمن بالوحدة العربية، ولكي يؤدي دوره في تحقيقها، يجب عليه في هذه المرحلة من كفاحه أن يحافظ على شخصيته الفلسطينية ومقوماتها، وأن ينمي الوعي بوجودها وأن يناهض أياً من المشروعات التي من شأنها إذابتها أو إضعافها.

مادة١٢ ـ الوحدة العربية وتحرير فلسطين هدفان متكاملان يهيء الواحد منهما تحقيق الآخر، فالوحدة العربية تؤدي إلى تحرير فلسطين، وتحرير فلسطين يؤدي إلى الوحدة العربية والعمل لهما يسير جنباً إلى جنب.

مادة١٣ ـ إن مصير الأمة العربية، بل الوجود العربي بذاته رهن بمصير القضية الفلسطينية، ومن هذا الترابط ينطلق سعي الأمة العربية وجهدها لتحرير فلسطين، ويقوم شعب فلسطين بدوره الطليعي لتحقيق هذا الهدف القومي المقدس.

مادة١٤ ـ إن تحرير فلسطين، من ناحية عربية، هو واجب قومي تقع مسؤولياته كاملة على الأمة العربية بأسرها حكومات وشعوباً وفي طليعتها الشعب العربي الفلسطيني، ومن أجل ذلك فإن على الأمة العربية أن تعبىء جميع طاقاتها العسكرية والمادية والروحية في سبيل تحرير فلسطين، وعليها بصورة خاصة أن تبذل للشعب العربي الفلسطيني العون والتأييد وتوفر الوسائل والفرص الكفيلة من القيام بدوره في تحرير وطنه.

مادة١٥ ـ إن تحرير فلسطين، من ناحية روحية، يهيء للبلاد المقدسة جواً من الطمأنينة والسكينة تصان في ظلاله جميع المقدسات الدينية وتكفل حرية العبادة والزيارة للجميع من غير تفريق ولا تمييز سواء على أساس العنصر أو اللون أو اللغة أو الدين. ومن أجل ذلك فإن أهل فلسطين يتطلعون إلى نصرة جميع القوى الروحية في العالم.

مادة١٦ ـ إن تحرير فلسطين، من ناحية دولية، هو عمل دفاعي تقتضيه ضرورات الدفاع عن النفس كما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة. من أجل ذلك فإن

الشعب الفلسطيني الراغب في مصادقة جميع الشعوب يتطلع إلى تأييد الدول المحبة للحرية والعدل والسلام لإعادة الأوضاع الشرعية إلى فلسطين وإقرار الأمن والسلام في ربوعها، وتمكين أهلها من ممارسة السيادة الوطنية والحرية القومية.

مادة١٧ ـ إن تقسيم فلسطين الذي جرى عام ١٩٤٧ وقيام إسرائيل باطل من أساسه مهما طال عليه الزمن لمغايرته لإرادة الشعب الفلسطيني وحقه الطبيعي في وطنه ومناقضته للمبادىء العامة التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة، وفي مقدمتها حق تقرير المصير.

مادة١٨ ـ يعتبر باطلاً كل من وعد بلفور وصك الانتداب وما ترتب عليهما وأن دعوى الروابط التاريخية أو الروحية بين اليهود وفلسطين لا تتفق مع حقائق التاريخ ولا مع مقومات الدولة في مفهومها الصحيح وأن اليهودية بوصفها ديناً سماوياً ليست قومية ذات وجود مستقل وكذلك فإن اليهود ليسوا شعباً واحداً له شخصيته المستقلة وإنما هم مواطنون في الدول التي ينتمون إليها.

مادة١٩ ـ الصهيونية حركة استعمارية في نشوئها، عدوانية وتوسعية في أهدافها، عنصرية تعصبية في تكوينها، وفاشية بمراميها ووسائلها، وأن إسرائيل بوصفها طليعة هذه الحركة الهدامة وركيزة للاستعمار، مصدر دائم للقلق والاضطراب في الشرق الأوسط خاصة، وللأسرة الدولية بصورة عامة. ومن أجل ذلك فإن أهل فلسطين جديرون بعون الأسرة الدولية وتأييدها.

مادة٢٠ ـ إن دواعي الأمن والسلم ومقتضيات الحق والعدل تتطلب من الدول جميعها حفظاً لعلاقات الصداقة بين الشعوب واستبقاء لولاء المواطنين لأوطانهم أن تعتبر الصهيونية حركة غير مشروعة وتحرم وجودها ونشاطها.

مادة٢١ ـ يؤمن الشعب الفلسطيني بمبادىء العدل والحرية والسيادة وتقرير المصير والكرامة الإنسانية وحق الشعوب في ممارستها ويؤيد جميع المساعي الدولية التي تهدف إلى إقرار السلم على أساس الحق والتعاون الدولي الحر.

مادة٢٢ ـ يؤمن الشعب الفلسطيني بالتعايش السلمي على أساس الوجود

الشرعي. إذ لا تعايش مع العدوان ولا سلم مع الاحتلال والاستعمار.

مادة٢٣ ـ تحقيقاً لأهداف هذا الميثاق ومبادئه تقوم منظمة التحرير الفلسطينية بدورها الكامل في تحرير فلسطين، وفق النظام الأساسي لهذه المنظمة.

مادة٢٤ ـ لا تمارس هذه المنظمة أية سيادة إقليمية على الضفة الغربية في المملكة الأردنية الهاشمية ولا قطاع غزة ولا منطقة الحمة. وسيكون نشاطها على المستوى القومي الشعبي في الميادين التحريرية والتنظيمية والسياسية والمالية.

مادة٢٥ ـ تكون هذه المنظمة مسؤولة عن حركة الشعب الفلسطيني في نضاله من أجل تحرير وطنه في جميع الميادين التحريرية والتنظيمية والسياسية والمالية وسائر ما تتطلبه قضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي.

مادة٢٦ ـ تتعاون منظمة التحرير مع جميع الدول العربية كل حسب إمكانياتها ولا تتدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة عربية.

مادة٢٧ ـ يكون لهذه المنظمة علم وقسم ونشيد ويقرر ذلك كله بموجب نظام خاص.

مادة٢٨ ـ يلحق بهذا الميثاق نظام يعرف بالنظام الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية تحدد فيه كيفية تشكيل المنظمة وهيئاتها ومؤسساتها واختصاصات كل منها وجميع ما تقتضيه الواجبات الملقاة عليها بموجب هذا الميثاق.

مادة٢٩ ـ لا يعدل هذا الميثاق إلا بأكثرية ثلثي مجموع أعضاء المجلس الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية في جلسة خاصة يدعى إليها من أجل هذا الغرض.

الملحق رقم ٣

مقدمـــة:

إن البحث عن السلام في الشرق الأوسط يجب أن يسير وفقاً للآتي: إن أسس التسوية السلمية للنزاع بين إسرائيل وجيرانها سيتفق وفقاً لما جاء في القرار ٢٤٢ بكافة أجزائه.

بعد أربعة حروب في خلال ٣٠ عاماً ورغماً من الجهود الإنسانية الكثيفة فإن الشرق الأوسط الذي هو مهد الحضارات والأديان لم تتمتع ببركات السلام وأن شعب الشرق الأوسط يحن للسلام وإن ضخامة الوجود الإنساني والموارد الطبيعية للمنطقة ستساعد على مواصلة السلام. وعليه فمن الممكن لهذه المنطقة أن تصبح نموذجاً للتعايش والتعاون بين الأمم... إن مبادرة الرئيس السادات التاريخية بزيارته للقدس وبالاستقبال الحاصل له من البرلمان والحكومة والشعب الإسرائيلي وبزيارة رئيس الوزراء بيغن التبادلية للإسماعيلية. ومقترحات السلام الموضوعة من قبل القائدين. إضافة إلى الاستقبال الحار من شعوب تلك الدولتين للوفود قد خلق فرصة لم يسبق لها مثيل من أجل السلام. والتي يجب عدم ضياعها إذا كان هذا الجيل والأجيال الأخرى مستقبلاً يرغب في تجنب مآسي الحرب.

... إن فقرات شرعة الأمم المتحدة والمبادىء الأخرى المقبولة للقانون والشرعية الدولية. توفر الآن قواعد مقبولة للسلوك في العلاقات بين كافة الدول.

... للوصول إلى علاقة سلام من روح المادة الثانية من شرعة الأمم المتحدة فإن المفاوضات مستقبلاً ضرورية بين إسرائيل وأي جار مستعد للتفاوض للسلام والأمن معها من أجل تنفيذ كافة شروط ومبادىء القرارين ٢٤٢ ـ ٣٣٨.

... السـلام يحتـاج إلـى احتـرام السيـادة. ووحـدة الأراضـي الإقليميـة

والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة. ويحق لكل دولة بالعيش بسلام وأمن وحدود معترف بها من دون تهديد أو أعمال عنف. وتحقيق هذا الهدف سيسرع التحرك تجاه عصر جديد للصلح في الشرق الأوسط مشتهر بالتعاون لتشجيع التنمية الاقتصادية. وبالمحافظة على الاستقرار وفي تثبيت الأمن.

. . . الأمن يتعزز بعلاقات السلام وبالتعاون بين الأمم التي تنعم بالعلاقات الطبيعية إضافة إلى ذلك وحسب شروط معاهدات السلام فإن الأطراف تستطيع وفقاً لمبادىء أساسية متبادلة أن تتفق على إجراءات أمنية خاصة. كإيجاد مناطق ذات إدارة مدنية. ومناطق محدودة التسلح. محطات إنذار مبكر. وجود قوات دولية. ارتباط. إجراءات يتفق عليها للإنذار. وأية إجراءات أخرى مفيدة يتفق عليها إطار عمل.

بأخذ تلك العوامل بالحسبان فقد قرر الأطراف الوصول إلى تسوية عادلة، شاملة، ومتينة لنزاع الشرق الأوسط من خلال عقد معاهدات سلام اعتماداً على قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ بكافة أجزائهما. وإن هدفهم الوصول إلى السلام وإلى علاقات جوار طيبة، لإدراكهم بأن السلام حتى يكون ثابتاً يجب أن يحتوي على كل من تأثر بعمق من النزاع.

ولهذا فإنهم أعدوا إطار العمل هذا ليشرعوا أسس السلام، ليس بين مصر وإسرائيل فقط، بل بين إسرائيل وأي من جيرانها مستعد للتفاوض من أجل السلام مع إسرائيل وفقاً لهذه الأسس مع أخذ هذا الموضوع بالاعتبار، فقد وافقوا السير قدماً حسب ما يلي:

١ ـ الضفة الغربية وغزة:

يجب أن يشارك كل من مصر ـ إسرائيل ـ الأردن وممثلين عن الشعب الفلسطيني في مفاوضات لحل المشكلة الفلسطينية بكافة مظاهرها، وللوصول لهذا الغرض فإن المفاوضات الخاصة بالضفة الغربية وغزة يجب أن تتم على ثلاثة مراحل:

أ ـ إن مصر وإسرائيل مع أخذهم بالحسبان الأمن المتعلق بكافة الأطراف، فقد وافقوا على أنه من أجل تحويل السلطة بسلام ونظام، يجب أن تكون هناك إجراءات انتقالية بالضفة الغربية وغزة لفترة لا تتجاوز عن خمسة سنوات، بغية توفير حكم ذاتي كامل للسكان، وبموجب تلك الإجراءات فإن الحكومة العسكرية الإسرائيلية وإدارتها المدنية سوف تنسحب حال انتخاب سلطة الحكم الذاتي بحرية من قبل سكان تلك المناطق لتحل محل الحكومة العسكرية الموجودة.

للتفاوض من أجل تفاصيل الإجراءات الانتقالية فإن الحكومة الأردنية ستدعي للانضمام للمفاوضات حسب أسس إطار العمل هذا. تلك الإجراءات الجديدة ستعطي الاعتبار القانوني لكل من مبادىء ـ الحكم الذاتي لسكان تلك المناطق وإلى الأمن المشروع الخاص بالأطراف المعنية.

ب ـ ستوافق كل من مصر وإسرائيل والأردن على الشكليات لتأسيس سلطة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وغزة. ومن الممكن أن تتضمن وفود مصر والأردن فلسطينيين من الضفة الغربية وغزة أو فلسطينيين آخرين حال الموافقة على تبادل الاشتراك والتعاون.

ستتفاوض الأطراف لوضع اتفاقية تحدد المسؤوليات والسلطات التي ستمارسها سلطة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة.

ستنسحب القوات المسلحة الإسرائيلية، وستحدد مواقع أمن سيتم نقل القوات الإسرائيلية الباقية إليها من موقع إلى آخر.

ستتضمن الاتفاقية أيضاً إجراءات لضمان النظام العام والأمن الداخلي والخارجي وسيتم إيجاد قوات بوليس محلية قوية أو التي من المحتمل أن تضم مواطنين أردنيين. إضافة إلى ذلك ستشترك قوات أردنية وإسرائيلية في دوريات واحدة أو في تزويد مخافر المراقبة بالجند لضمان أمن الحدود.

ج ـ ستبدأ فترة الخمس سنوات الانتقالية عند إنشاء وتسلم سلطة الحكم الذاتي «مجلس إداري» ـ لمناصبهم في الضفة الغربية وغزة. وعلى المفاوضات أن

تبدأ بأسرع ما يمكن وبفترة لا تتعدى السنة الثالثة من تاريخ ابتداء الفترة الانتقالية أو ذلك من أجل تقرير الوضع الشرعي النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقتهم بجيرانهم ومن أجل عقد معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن عند نهاية الفترة الانتقالية.

تلك المفاوضات ستدار ما بين مصر ـ إسرائيل ـ الأردن والممثلين المنتخبين عن السكان في الضفة الغربية وغزة، وستنعقد لجنتان منفصلتان ولكن مرتبطتان بعلاقة اللجنة الأولى مؤلفة من ممثلين في الأطراف الأربعة وهي ستتفاوض لإقرار الوضع الشرعي النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقتهم بجيرانهم واللجنة الثانية مؤلفة من ممثلين عن إسرائيل وممثلين عن الأردن للاجتماع بالممثلين المنتخبين عن سكان الضفة الغربية وغزة من أجل إنجاز معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن آخذين بالحسبان الاتفاقية التي تم التوصل إليها عن الوضع الشرعي النهائي للضفة الغربية وغزة وستستند المفاوضات على فقرات ومبادىء قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ والمفاوضات ستقرر عبر مسائل أخرى مواقع الحدود وطبيعة الإجراءات الأمنية ـ وبالنتيجة يجب أن يعترف عبر المفاوضات بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني وبمطالبهم العادلة وبهذه الطريقة سيشترك الفلسطينيون في تقرير مستقبلهم من خلال:

١ ـ المفاوضات بين مصر ـ إسرائيل ـ الأردن ـ وممثلي السكان المنتخبين في الضفة الغربية وغزة للموافقة على الوضع الشرعي النهائي للضفة الغربية وغزة، وعلى نقاط خلاف أخرى معلقة بنهاية الفترة الانتقالية.

٢ ـ إخضاع إتفاقيتهم للتصويت من قبل ممثلي السكان المنتخبين من الضفة الغربية وغزة.

٣ ـ توفير المجال لممثلي السكان المنتخبين من الضفة الغربية وغزة لتقرير الكيفية التي سيحكموا بها أنفسهم انسجاماً مع شروط اتفاقيتهم.

٤ ـ الاشتراك كما هو مذكور أعلاه في عمل اللجنة المفاوضة لمعاهدة السلام بين إسرائيل والأردن.

٥ ـ ستتخذ كل التدابير وستوفر كل الشروط لضمان أمن إسرائيل وجيرانها خلال الفترة الانتقالية وما بعدها وللمساعدة في توفير أمن كهذا فستنشىء سلطة الحكم الذاتي قوة بوليس محلية قومية والتي ستتكون من سكان الضفة الغربية وغزة وسيستمر البوليس بالارتباط بالضباط الإسرائيليين والمصريين والأردنيين المعينين للمحافظة على شؤون السلام الداخلي.

٦ ـ خلال الفترة الانتقالية ستنشأ لجنة مستمرة من مندوبي مصر وإسرائيل والأردن وسلطة الحكم الذاتي لتسن معاهدة بشأن قبول مشروط للأشخاص المرحلين في الضفة الغربية وغزة في عام ١٩٦٧. كما أنها ستضع التدابير الضرورية لمنع أعمال الفوضى وقلة النظام. كما أنها ستتعامل مع مواضيع أخرى مختلف عليها وذات اهتمام عام.

ستعمل مصر وإسرائيل مع بعض ومع الأطراف المهتمة لإيجاد إجراءات يوافق عليها لإنجاز حل دائم وعادل وفوري لمشكلة اللاجئين.

٢ ـ مصر وإسرائيل:

١ ـ لقد تعهد كل من مصر وإسرائيل بعدم اللجوء للتهديد أو لاستعمال القوة لحل الخلافات بينهما وسيتم تسوية أي خلاف بينهما بالوسائل السلمية حسب فقرات المادة ٣٣ من شرعة الأمم المتحدة.

٢ ـ لقد وافق الأطراف من أجل تحقيق السلام بينهما أن يتفاوضوا بإخلاص وحسن نية بهدف استخلاص معاهدة سلام بينهما في خلال ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع إطار العمل هذا. مع دعوة أطراف النزاع الأخرى للسير بوقت واحد من أجل التفاوض واستخلاص معاهدات سلام مشابهة وذلك من أجل تحقيق سلام شامل في المنطقة.

سيحدد إطار العمل مفاوضات السلام بين مصر وإسرائيل من أجل عقد معاهدة السلام بينهما.

الوثيقة الثانية

نص الوثيقة الثانية التي تشكل إطار عمل من أجل عقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل وقد وزعت النص في العربية وكالة «أنباء الشرق الأوسط» المصرية الرسمية:

ـ توافق إسرائيل ومصر من أجل تحقيق السلام بينهما على التفاوض بحسن نية بهدف توقيع معاهدة سلام بينهما في غضون ثلاثة شهور من توقيع هذا الإطار.

وقد تم الاتفاق على أن تتم المفاوضات تحت علم الأمم المتحدة في موقع أو مواقع يتفق عليها الجانبان تطبق كل مبادىء قرار الأمم المتحدة رقم/ ٢٤٢/ في هذا الحل للنزاع بين مصر وإسرائيل ما لم يتفق الطرفان على غير ذلك يتم تنفيذ معاهدة سلام في فترة تراوح بين سنتين أو ثلاث سنوات من توقيع معاهدة السلام.

وقد وافق الطرفان على المسائل الآتية:

أ ـ الممارسة التامة للسيادة المصرية حتى الحدود المعترف بها دولياً بين مصر وفلسطين تحت الانتداب.

ب ـ انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من سيناء.

ج ـ استخدام المطارات التي يتركها الإسرائيليون قرب العريش ورفح ورأس النقب وشرم الشيخ للأغراض المدنية فقط بما فيها الاستخدام التجاري من قبل كل الدول.

د ـ المرور الحر للسفن الإسرائيلية في خليج السويس وقناة السويس على أساس معاهدة القسطنطينية للعام ١٨٨٨ والتي تنطبق على جميع الدول. وتعتبر مضائق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية على أن تفتح أمام كل الدول للملاحة والطيران من دون إعاقة أو تعطيل إنشاء طريق بين سيناء والأردن بالقرب من أيلات مع كفالة حرية المرور وسلامته من جانب مصر والأردن.

تمركز القوات العسكرية كما يأتي:

أ ـ ألا تتمركز أكثر من فرقة واحدة (ميكانية أو مشاه) من القوات المسلحة المصرية داخل منطقة تبعد قرابة خمسين كيلو مترا شرق خليج السويس وقناة السويس.

ب ـ تتمركز قوات الأمم المتحدة والشرطة المدنية المسلحة بالأسلحة الخفيفة فقط لأداء المهمات العادية للشرطة داخل المنطقة التي تقع غرب الحدود الدولية وخليج العقبة في مساحة يراوح عرضها بين ٢٠ و٤٠ كيلو متراً. .

ج ـ أن توجد في المنطقة في حدود ٣ كيلومتر شرق الحدود الدولية قوات إسرائيلية عسكرية محدودة لا تتعدى أربع كتائب مشاه ومراقبون من الأمم المتحدة.

تلحق وحدات دوريات حدود لا تتعدى ثلاث كتائب بالبوليس المدني في المحافظة على النظام في المنطقة التي لم تذكر آنفاً. يكون التخطيط الدقيق للحدود السالفة الذكر وفقاً لما يتقرر خلال مفاوضات السلام. يجوز أن تقام محطات للإنذار المبكر لضمان للإنذار المبكر لضمان الامتثال لبنود الاتفاق ووضع قوات ف يجزء من المنطقة التي تقع في سيناء إلى الداخل لمسافة ٢٠ كيلومتراً وفي منطقة شرم الشيخ لضمان حرية المرور في مضيق تيران. ولا يتم إبعاد هذه القوات ما لم يوافق مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على مثل هذا الابعاد بأجماع أصوات الأعضاء الخمسة الدائمين. وبعد توقيع اتفاق سلام وبعد إتمام الانسحاب المؤقت تقام علاقات طبيعية بين مصر وإسرائيل تتضمن الاعتراف الكامل بها في ذلك قيام علاقات دبلوماسية اقتصادية وثقافية وإنهاء المقاطعات الاقتصادية والحواجز أمام حرية حركة السلع والأتجار والحماية المتبادلة للمواطنين وفقاً للقانون.

الملحق رقم ٤

وثائق إعلان المبادىء الفلسطيني ـ الإسرائيلي
إعلان مبادىء بشأن ترتيبات الحكومة الذاتية الانتقالية
(المسودّة النهائية المتفق عليها في ١٩ آب/ أغسطس ١٩٩٣)[1]

إن حكومة دولة إسرائيل والفريق الفلسطيني («في الوفد الأردني ـ الفلسطيني إلى مؤتمر السلام في الشرق الأوسط») («الوفد الفلسطيني») ممثلاً الشعب الفلسطيني يتفقان على أن الوقت قد حان لإنهاء عقود من المواجهة والنزاع، والاعتراف بحقوقهما المشروعة والسياسية المتبادلة والسعي للعيش في ظل تعايش سلمي وبكرامة وأمن متبادلين ولتحقيق تسوية سلمية عادلة ودائمة وشاملة ومصالحة تاريخية من خلال العملية السياسية المتفق عليها.

وعليه فإن الطرفين يتفقان على المبادىء التالية:

المادة(١): هدف المفاوضات:

إن هدف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية ضمن عملية السلام الحالية في الشرق الأوسط هو من بين أمور أخرى إقامة سلطة حكومة ذاتية انتقالية فلسطينية، المجلس المنتخب، («المجلس»)، للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية لا تتجاوز الخمس سنوات وتؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨.

(١) المصدر: Israel and Palestine Political Report, No. 185, pp. 6-10.

من المفهوم أن الترتيبات الانتقالية هي جزء لا يتجزأ من عملية السلام بمجملها وأن المفاوضات حول الوضع الدائم ستؤدي إلى تطبيق قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨.

المادة(٢): إطار الفترة الانتقالية:

إن الإطار المتفق عليه للفترة الانتقالية مبين في إعلان المبادىء هذا.

المادة(٣): الانتخابات:

١ ـ من أجل أن يتمكن الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة من حكم نفسه وفقاً لمبادىء ديمقراطية ستجرى انتخابات سياسية عامة ومباشرة وحرة للمجلس في إشراف ومراقبة دوليين متفق عليهما بينما تقوم الشرطة الفلسطينية بتأمين النظام العام.

٢ ـ سيتم عقد اتفاق حول الصيغة المحددة للانتخابات وشروطها وفقاً للبروتوكول المرفق كملحق ١ بهدف إجراء الانتخابات في مدة لا تتجاوز التسعة أشهر من دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ.

٣ ـ هذه الانتخابات ستشكل خطوة تمهيدية انتقالية هامة نحو تحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة.

المادة(٤): الولاية:

سوف تغطي ولاية المجلس أرض الضفة الغربية وقطاع غزة باستثناء القضايا التي سيتم التفاوض عليها في مفاوضات الوضع الدائم. يعتبر الطرفان الضفة الغربية وقطاع غزة وحدة ترابية واحدة يجب المحافظة على وحدتها وسلامتها خلال الفترة الانتقالية.

المادة(٥): الفترة الانتقالية ومفاوضات الوضع الدائم:

١ ـ تبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية فور الانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا.

٢ ـ سوف تبدأ مفاوضات الوضع الدائم بين حكومة إسرائيل وممثلي الشعب الفلسطيني في أقرب وقت ممكن ولكن بما لا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية.

٣ ـ من المفهوم أن هذه المفاوضات سوف تغطي القضايا المتبقية بما فيها القدس واللاجئون والمستوطنات والترتيبات الأمنية والحدود والعلاقات والتعاون مع جيران آخرين ومسائل أخرى ذات الاهتمام المشترك.

٤ ـ يتفق الطرفان على أن لا تجحف أو تخل اتفاقات المرحلة الانتقالية بنتيجة مفاوضات الوضع الدائم.

المادة(٦): النقل التمهيدي للصلاحيات والمسؤوليات:

١ ـ فور دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ والانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا سيبدأ نقل للسلطة من الحكومة العسكرية الإسرائيلية وإدارتها المدنية إلى الفلسطينيين المخولين هذه المهمة كما هو مفصل هنا. سيكون هذا النقل للسلطة ذا طبيعة تمهيدية إلى حين تنصيب المجلس.

٢ ـ مباشرة بعد دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ والانسحاب من قطاع غزة ومنطقة أريحا وبقصد النهوض بالتنمية الاقتصادية في الضفة الغربية وقطاع غزة سيتم نقل السلطة للفلسطينيين في المجالات التالية: التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة. سيشرع الجانب الفلسطيني في بناء قوة الشرطة الفلسطينية كما هو متفق وإلى أن يتم تنصيب المجلس يمكن الطرفين أن يتفاوضا على نقل لصلاحيات ومسؤوليات إضافية حسبما يتفق عليه.

المادة(٧): الاتفاق الانتقالي:

١ ـ سوف يتفاوض الوفدان الإسرائيلي والفلسطيني على اتفاق حول الفترة الانتقالية («الاتفاق الانتقالي»).

٢ ـ سوف يحدد الاتفاق الانتقالي من بين أشياء أخرى هيكلية المجلس وعدد

أعضائه ونقل الصلاحيات والمسؤوليات من الحكومة العسكرية الإسرائيلية وإدارتها المدنية إلى المجلس. وسوف يحدد الاتفاق الانتقالي أيضاً سلطة المجلس التنفيذية وسلطته التشريعة طبقاً للمادة ٩ المذكورة أدناه والأجهزة القضائية الفلسطينية المستقلة.

٣ ـ سوف يتضمن الاتفاق الانتقالي ترتيبات سيتم تطبيقها عند تنصيب المجلس لتمكينه من الاضطلاع بكل الصلاحيات والمسؤوليات الت تم نقلها إليه سابقاً وفقاً للمادة ٦ المذكورة أعلاه.

٤ ـ من أجل تمكين المجلس من النهوض، بالنمو الاقتصادي سيقوم المجلس فور تنصيبه إضافة إلى أمور أُخرى بإنشاء سلطة فلسطينية للكهرباء وسلطة ميناء غزة البحري وبنك فلسطيني للتنمية ومجلس فلسطيني لتشجيع الصادرات وسلطة فلسطينية للبيئة وسلطة فلسطينية لإدارة المياه وأية سلطات أُخرى يتم الاتفاق عليها وفقاً للاتفاق الانتقالي الذي سيحدد صلاحياتها ومسؤولياتها.

٥ ـ بعد تنصيب المجلس سيتم حل الإدارة المدنية وانسحاب الحكومة العسكرية الإسرائيلية.

المادة (٨): النظام العام والأمن:

من أجل ضمان النظام العام والأمن الداخلي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة سينشىء المجلس قوة شرطة قوية بينما ستستمر إسرائيل في الاضطلاع بمسؤولية الدفاع ضد التهديدات الخارجية وكذلك بمسؤولية الأمن الإجمالي للإسرائيليين بغرض حماية أمنهم الداخلي والنظام العام.

المادة(٩): القوانين والأوامر العسكرية:

١ ـ سيخول المجلس سلطة التشريع وفقاً للاتفاق الانتقالي في مجال جميع السلطات المنقولة إليه.

٢ ـ سيراجع الطرفان بشكل مشترك القوانين والأوامر العسكرية السارية المفعول في المجالات المتبقية.

المادة (١٠): لجنة الارتباط المشتركة الإسرائيلية الفلسطينية:

من أجل تأمين تطبيق هادىء لإعلان المبادىء هذا ولأية اتفاقات لاحقة تتعلق بالفترة الانتقالية ستشكل فور دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ لجنة ارتباط مشتركة إسرائيلية فلسطينية من أجل معالجة القضايا التي تتطلب التنسيق وقضايا أُخرى ذات الاهتمام المشترك والمنازعات.

المادة(١١): التعاون الإسرائيلي الفلسطيني في المجالات الاقتصادية:

إقراراً بالمنفعة المتبادلة للتعاون من أجل النهوض بتطوّر الضفة الغربية وقطاع غزة وإسرائيل سيتم إنشاء لجنة إسرائيلية فلسطينية للتعاون الاقتصادي من أجل تطوير وتطبيق البرامج المحددة في البروتوكولات المرفقة كملحق ٣ وملحق ٤ بأسلوب تعاوني وذلك فور دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ.

المادة(١٢): الارتباط والتعاون مع الأردن ومصر:

سيقوم الطرفان بدعوة حكومتي الأردن ومصر للمشاركة في إقامة المزيد من ترتيبات الارتباط والتعاون بين حكومة إسرائيل والممثلين الفلسطينيين من جهة وحكومتي الأردن ومصر من جهة أُخرى للنهوض بالتعاون بينهم. وستتضمن هذه الترتيبات إنشاء لجنة مستمرة ستقرر بالاتفاق الأشكال للسماح للأشخاص المرحلين من الضفة الغربية وقطاع غزة في ١٩٦٧ بالتوافق مع الإجراءات الضرورية لمنع الفوضى والإخلال بالنظام. وستتعاطى هذه اللجنة مع مسائل أُخرى ذات الاهتمام المشترك.

المادة(١٣):

١ ـ بعد دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ وفي وقت لا يتجاوز عشية انتخابات المجلس سيتم إعادة تموضع القوات العسكرية الإسرائيلية في الضفة

الغربية وقطاع غزة بالإضافة إلى انسحاب القوات الإسرائيلية الذي تم تنفيذه وفقاً للمادة ١٤ .

٢ ـ عند إعادة موضعة قواتها العسكرية ستسترشد إسرائيل بمبدأ وجوب إعادة تموضع قواتها العسكرية خارج المناطق المأهولة بالسكان.

٣ ـ وسيتم تنفيذ تدريجي للمزيد من إعادة التموضع في مواقع محددة بالتناسب مع تولي المسؤولية عن النظام العام والأمن الداخلي من قبل قوة الشرطة الفلسطينية وفقاً للمادة٨ أعلاه.

المادة(١٤): الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة ومنطقة أريحا:

ستنسحب إسرائيل من قطاع غزة ومنطقة أريحا كما هو مبين في البروتوكول المرفق في الملحق الثاني.

المادة(١٥): تسوية المنازعات:

١ ـ ستتم تسوية المنازعات الناشئة عن تطبيق أو تفسير إعلان المبادىء هذا أو أي اتفاقات لاحقة تتعلق بالفترة الانتقالية بالتفاوض من خلال لجنة الارتباط المشتركة التي ستتشكل وفقاً للمادة العاشرة أعلاه.

٢ ـ إن المنازعات التي لا يمكن تسويتها بالتفاوض يمكن أن تتم تسويتها من خلال آلية توفيق يتم الاتفاق عليها بين الطرفين.

٣ ـ للطرفين أن يتفقا على عرض المنازعات المتعلقة بالفترة الانتقالية والتي لا يمكن تسويتها من خلال التوفيق على التحكيم ومن أجل هذا الغرض وبناء على اتفاق الطرفين سينشىء الطرفان لجنة تحكيم.

المادة(١٦): التعاون الإسرائيلي الفلسطيني في ما يتعلق بالبرامج الإقليمية:

يرى الطرفان أن مجموعات العمل في المتعددة أداة ملائمة للنهوض بـ «خطة مارشال» وببرامج إقليمية وبرامج أُخرى بما فيها برامج خاصة للضفة الغربية وقطاع غزة كما هو مشار إليه في البروتوكول المرفق في الملحق الرابع.

المادة (١٧): بنود متفرقة:

١ ـ يدخل اتفاق المبادىء هذا حيز التنفيذ بعد شهر واحد من توقيعه.

٢ ـ جميع البروتوكولات الملحقة بإعلان المبادىء هذا والمحضر المتفق عليه المتعلق به سيتم اعتبارها جزءاً لا يتجزأ من هذا الاتفاق.

أُبرم في واشنطن العاصمة يوم ١٣/ ٩/ ١٩٩٣.

عن حكومة إسرائيل　　　　　　عن الوفد الفلسطيني

الشاهدان

الولايات المتحدة الأميركية　　　　　　الفيدرالية الروسية

الملحق الأول

بروتوكول حول صيغة الانتخابات وشروطها

١ ـ فلسطينيو القدس الذين يعيشون فيها سيكون لهم الحق في المشاركة في العملية الانتخابية وفقاً لاتفاق بين الطرفين.

٢ ـ وبالإضافة يجب أن يغطي الاتفاق حول الانتخابات القضايا التالية من بين أُمور أُخرى.

أ ـ النظام الانتخابي.

ب ـ صيغة الإشراف والمرافقة الدولية المتفق عليها وتركيبتها الفردية.

ج ـ الأحكام والنظم المتعلقة بالحملة الانتخابية بما فيها ترتيبات متفق عليها لتنظيم الإعلام وإمكان الترخيص لمحطة بث إذاعي وتلفزي.

٣ ـ لن يتم الإجحاف بالوضع المستقبلي للفلسطينيين المرحلين [«النازحين»] الذين كانوا مسجلين يوم ٤ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بسبب عدم تمكنهم من المشاركة في العملية الانتخابية لأسباب عملية.

الملحق الثاني

بروتوكول حول انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة ومنطقة أريحا

١ ـ سيعقد الطرفان اتفاقاً ويوقعانه خلال شهرين من تاريخ دخول إعلان المبادىء هذا حيز التنفيذ حول انسحاب القوات العسكرية الإسرائيلية من قطاع غزة ومنطقة أريحا. وسيتضمن هذا الاتفاق ترتيبات شاملة تسري في قطاع غزة ومنطقة أريحا على إثر الانسحاب الإسرائيلي.

٢ ـ ستنفذ إسرائيل انسحاباً مجدولاً وبسرعة متصاعدة لقواتها العسكرية من قطاع غزة ومنطقة أريحا يبدأ فوراً مع توقيع الاتفاق حول قطاع غزة ومنطقة أريحا ويتم استكماله خلال فترة لا تتعدى الأربعة أشهر بعد توقيع هذا الاتفاق.

٣ ـ سيتضمن الاتفاق المذكور أعلاه من جملة أُمور أُخرى:

أ ـ ترتيبات لنقل هادىء وسلمي للسلطة من الحكومة العسكرية الإسرائيلية وإدارتها المدنية إلى الممثلين الفلسطينيين.

ب ـ بنية السلطة الفلسطينية وصلاحياتها ومسؤولياتها في هذه المجالات في ما عدا الأمن الخارجي والمستوطنات والإسرائيليين والعلاقات الخارجية ومسائل أُخرى متفق عليها بشكل مشترك.

ج ـ ترتيبات لتولي الأمن الداخلي والنظام العام من قبل قوة الشرطة الفلسطينية التي تتشكل من ضباط الشرطة المجندين محلياً ومن الخارج (حاملي جوازات السفر الأردنية والوثائق الفلسطينية الصادرة من مصر). إن الذين سيشاركون

في قوة الشرطة الفلسطينية القادمين من الخارج يجب أن يكونوا مدربين كشرطة وضباط شرطة.

د ـ حضور دولي أو أجنبي موقت وفقاً لما يتفق عليه.

هـ ـ إقامة لجنة تعاون وتنسيق فلسطينية إسرائيلية مشتركة لأغراض الأمن المتبادل.

و ـ برنامج للتنمية والاستقرار الاقتصادي يشمل إقامة صندوق طوارىء لتشجيع الاستثمار الأجنبي والدعم المالي والاقتصادي.

وسيقوم الطرفان بالتعاون والتنسيق بشكل مشترك وبشكل منفرد مع الأطراف الإقليميين والدوليين لدعم هذه الأهداف.

ز ـ ترتيبات لممر آمن للأفراد وللنقل بين قطاع غزة ومنطقة أريحا.

٤ ـ الاتفاق أعلاه سيتضمن ترتيبات من أجل التنسيق بين الطرفين في ما يتعلق بمعابر:

أ ـ غزة ـ مصر.

ب ـ أريحا ـ الأردن.

٥ ـ المكاتب المسؤولة عن الاضطلاع بصلاحيات السلطة الفلسطينية ومسؤولياتها حسب هذا الملحق الرقم٢ والمادة ٦ من إعلان المبادىء سيكون موقعها في قطاع غزة ومنطقة أريحا في انتظار تنصيب المجلس.

٦ ـ باستثناء هذه الترتيب المتفق عليها يبقى وضع قطاع غزة ومنطقة أريحا جزءاً لا يتجزأ من الضفة الغربية وقطاع غزة ولن يتغير خلال الفترة الانتقالية.

الملحق الثالث

بروتوكول حول التعاون الإسرائيلي الفلسطيني في البرامج الاقتصادية والتنموية

يتفق الجانبان على إقامة لجنة مستمرة إسرائيلية فلسطينية للتعاون الاقتصادي تركز بين أُمور أُخرى على التالي:

١ ـ التعاون في مجال المياه بما في ذلك مشروع تطوير المياه، يقوم بإعداده خبراء من الجانبين، والذي سيحدد كذلك شكل التعاون في إدارة موارد المياه في الضفة الغربية وقطاع غزة، وسيتضمن مقترحات لدراسات وخطط حول حقوق المياه لكل طرف وكذلك حول الاستخدام المنصف لموارد المياه المشتركة وذلك للتنفيذ خلال الفترة الانتقالية وما بعدها.

٢ ـ التعاون في مجال الكهرباء بما في ذلك برنامج لتطوير الطاقة الكهربائية والذي سيحدد كذلك شكل التعاون لإنتاج الموارد الكهربائية وصيانتها وشرائها وبيعها.

٣ ـ التعاون في مجال الطاقة بما في ذلك برنامج لتطوير الطاقة يأخذ في الاعتبار استغلال النفط والغاز لأغراض صناعية خاصة في قطاع غزة والنقب وسيشجع المزيد من الاستغلال المشترك لموارد الطاقة الأخرى. وسيأخذ هذا البرنامج في الاعتبار كذلك بناء مركب صناعي بتروكيميائي في قطاع غزة وكذلك تمديد أنابيب لنقل النفط والغاز.

٤ ـ التعاون في مجال التمويل بما في ذلك برنامج تطوير وعمل مالي لتشجيع

الاستثمار الدولي في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي إسرائيل وكذلك إقامة بنك تنمية فلسطيني.

٥ ـ التعاون في مجال النقل والاتصالات بما في ذلك برنامج يحدد الخطوط العامة لإنشاء منطقة ميناء بحري في غزة ويأخذ في الاعتبار إنشاء خطوط نقل واتصالات من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى إسرائيل وإلى بلدان أُخرى وإليهما. بالإضافة سيأخذ هذا البرنامج في الاعتبار تنفيذ بناء الطرقات اللازمة والسكك الحديد وخطوط الاتصالات . . . الخ.

٦ ـ التعاون في مجال التجارة بما في ذلك الدراسات وبرامج النهوض بالتجارة بما يشجع التجارة الداخلية والإقليمية وما بين الإقليمية وكذلك دراسة جدوى إنشاء مناطق تجارة حرة في قطاع غزة وفي إسرائيل وحرية الوصول المتبادل إلى هذه المناطق والتعاون في مجالات أُخرى تتعلق بالتجارة.

٧ ـ التعاون في مجال الصناعة بما في ذلك برامج التطوير الصناعي الذي سيوفر إنشاء مراكز إسرائيلية ـ فلسطينية مشتركة للبحث والتطوير الصناعي والذي سيشجع المشاريع المشتركة الفلسطينية الإسرائيلية ويضع الخطوط العامة للتعاون في صناعات النسيج والمنتجات الغذائية والأدوية والالكترونيات والألماس والصناعات القائمة على الكومبيوتر والعلوم.

٨ ـ برنامج للتعاون وتنظيم علاقات العمل والتعاون في مسائل الخدمات الاجتماعية.

٩ ـ خطة لتنمية الموارد البشرية والتعاون حولها تأخذ في الاعتبار ورش عمل وندوات إسرائيلية فلسطينية مشتركة وإقامة مراكز تأهيل مهني ومراكز أبحاث وبنوك معلومات مشتركة.

١٠ ـ خطة لحماية البيئة تؤخذ في الاعتبار إجراءات مشتركة و/ أو منسقة في هذا المجال.

١١ ـ برنامج لتطوير التنسيق والتعاون في مجال الاتصالات ووسائل الإعلام.

١٢ ـ أية برامج أُخرى ذات مصلحة مشتركة.

الملحق الرابع

بروتوكول حول التعاون الإسرائيلي الفلسطيني حول برنامج التنمية الإقليمية

(١) سوف يتعاون الجانبان في سياق مسعى السلام المتعدد الطرف للنهوض ببرنامج تنمية للمنطقة بما فيها الضفة الغربية وقطاع غزة تبادر إليه الدول السبع الكبرى (G 7). سيطلب الطرفان من السبعة الكبار السعي إلى إشراك دول أُخرى مهتمة بهذا البرنامج مثل أعضاء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ودول ومؤسسات عربية إقليمية وكذلك أعضاء من القطاع الخاص.

(٢) سوف يتشكل برنامج التنمية من عنصرين:

أ ـ برنامج التنمية الاقتصادية للضفة الغربية وقطاع غزة.

ب ـ برنامج التنمية الاقتصادية الإقليمي.

١ ـ برنامج لإعادة التأهيل الاجتماعي بما في ذلك برنامج للإسكان والبناء.

٢ ـ خطة لتنمية المشاريع الاقتصادية الصغرى والمتوسطة.

٣ ـ برنامج لتنمية البنية التحتية (المياه والكهرباء والنقل والاتصالات.. الخ).

٤ ـ خطة للموارد البشرية.

٥ ـ برامج أُخرى.

ب ـ ويمكن أن يتشكل برنامج التنمية الاقتصادية الإقليمي من العناصر التالية:

١ ـ إقامة صندوق تنمية للشرق الأوسط كخطوة أُولى وبنك تنمية الشرق الأوسط كخطوة ثانية.

٢ ـ تطوير خطة إسرائيلية فلسطينية أردنية مشتركة لتنسيق استغلال منطقة البحر الميت.

٣ ـ قناة البحر المتوسط (غزة) ـ البحر الميت.

٤ ـ تحلية المياه إقليمياً ومشاريع تطوير أُخرى للمياه.

٥ ـ خطة إقليمية للتنمية الزراعية تتضمن مسعى إقليميا للوقاية من التصحر.

٦ ـ ربط الشبكات الكهربائية في ما بينها.

٧ ـ التعاون الإقليمي من أجل نقل الغاز والنفط وموارد الطاقة الأُخرى وتوزيعها واستغلالها صناعياً.

٨ ـ خطة تنمية إقليمية للسياحة والنقل والاتصالات السلكية واللاسلكية.

٩ ـ التعاون الإقليمي في مجالات أُخرى.

(٣) سيعمل الطرفان على تشجيع مجموعات العمل المتعددة الطرف وسينسقان بهدف إنجاحها. كما سيشجع الطرفان النشاطات الواقعة ما بين اجتماعات مجموعات العمل. وكذلك دراسات الجدوى والدراسات التمهيدية لها ضمن مجموعات العمل المتعددة الطرف المختلفة.

المحضر المتفق عليه

إعلان المبادىء حول ترتيبات الحكم الذاتي الانتقالية

(أ) تفاهمات واتفاقات عامة.

أية صلاحيات ومسؤوليات يتم نقلها إلى الفلسطينيين وفقاً لإعلان المبادىء قبل تنصيب المجلس ستُخضع للمبادىء نفسها المتعلقة بالمادة الرابعة كما هو مبين في المحضر المتفق عليه أدناه.

(ب) تفاهمات واتفاقات محددة.

المادة الرابعة

من المفهوم أن:

١ ـ ولاية المجلس ستمتد على أرض الضفة الغربية وقطاع غزة باستثناء تلك المسائل التي سيتم التفاوض عليها في مفاوضات الوضع الدائم: القدس والمستوطنات والمواقع العسكرية والإسرائيليون.

٢ ـ ستسري ولاية المجلس في ما يخص الصلاحيات والمسؤوليات والمجالات والسلطات المنقولة إليه المتفق عليها.

المادة السادسة

من المتفق عليه أن يكون نقل السلطة كما يلي:

١ ـ يقوم الجانب الفلسطيني بإبلاغ الجانب الإسرائيلي أسماء الفلسطينيين المفوضين الذين سيتولون الصلاحيات والسلطات والمسؤوليات التي ستنتقل إلى

الفلسطينيين وفقاً لإعلان المبادىء في المجالات التالية: التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة وأية سلطات أُخرى متفق عليها.

٢ ـ من المفهوم أن حقوق هذه المناصب والتزاماتها لن تتأثر.

٣ ـ ستستمر كل المجالات الموصوفة أعلاه في التمتع بالتخصيصات الموجودة في الموازنة وفقاً لترتيبات يتم الاتفاق عليها من الطرفين. وستأخذ هذه الترتيبات في الاعتبار التعديلات الضرورية المطلوبة من أجل تضمين الضرائب التي تتم جبايتها من مكتب الضرائب المباشرة.

٤ ـ فور تنفيذ إعلان المبادىء سيباشر الوفدان الإسرائيلي والفلسطيني مفاوضات حول خطة مفصلة لنقل السلطة على المناصب السابقة وفقاً للتفاهمات المذكورة أعلاه.

المادة السابعة

كما سيتضمن الاتفاق الانتقالي ترتيبات للتنسيق والتعاون.

المادة الثامنة

انسحاب الحكومة العسكرية لن يحول دون ممارسة إسرائيل الصلاحيات والمسؤوليات غير المنقولة إلى المجلس.

المادة التاسعة

من المفهوم أن الاتفاق الانتقالي سيتضمن ترتيبات للتعاون والتنسيق في هذا الخصوص. كما أنه من المتفق عليه أن يتم إنجاز نقل الصلاحيات والمسؤوليات إلى الشرطة الفلسطينية بطريقة ممرحلة كما هو متفق عليه في الاتفاق الانتقالي.

المادة العاشرة

من المتفق عليه أنه فور دخول إعلان المبادىء حيز التنفيذ سيقوم الوفدان الإسرائيلي والفلسطيني بتبادل أسماء الأفراد المعنيين من الطرفين كأعضاء في لجنة الارتباط الإسرائيلية ـ الفلسطينية المشتركة.

كما أنه من المتفق عليه أن يكون لكل طرف عدد متساو من الأعضاء في اللجنة المشتركة وستتخذ اللجنة المشتركة قراراتها بالاتفاق ويمكن للجنة المشتركة أن تضيف تقنيين وخبراء آخرين حسب الضرور وستقرر اللجنة المشتركة وتيرة اجتماعاتها ومكان أو أماكن عقدها.

الملحق الثاني

من المفهوم أنه لاحقاً للانسحاب الإسرائيلي ستستمر إسرائيل في مسؤولياتها عن الأمن الخارجي وعن الأمن الداخلي والنظام العام للمستوطنات والإسرائيليين.

ويمكن القوات العسكرية والمدنيين الإسرائيليين أن يستمروا في استخدام الطرقات بحرية داخل قطاع غزة ومنطقة أريحا.

أُبرم في واشنطن العاصمة في تاريخ ١٣/ ٩/ ١٩٩٣.

عن حكومة إسرائيل — عن الوفد الفلسطيني

الشاهدان

الولايات المتحدة الأميركية — الفيدرالية الروسية

الرسائل المتبادلة بين
رئيس منظمة التحرير الفلسطينية(١)
ورئيس الحكومة الإسرائيلية(٢)
ووزير الخارجية النرويجية(٣)
تونس والقدس
٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣(٤)

من رئيس م.ت.ف. ياسر عرفات إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية يتسحاق رابين:

السيد رئيس الحكومة إن توقيع «إعلان المبادىء» يرسم بداية عصر جديد في تاريخ الشرق الأوسط. ولهذا، فإني أود، وبإيمان راسخ، أن أؤكد التزامات م.ت.ف. التالية: تعترف م.ت.ف. بحق دولة إسرائيل في الوجود بسلام وأمن.

تقبل م.ت.ف. قراري مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقمي ٢٤٢ و٣٣٨.

تلتزم م.ت.ف. عملية السلام في الشرق الأوسط وحلاً سلمياً للنزاع بين الطرفين، وتعلن أن جميع المسائل المعلقة والمتعلقة بالوضع الدائم ستحل من خلال المفاوضات.

---

(١) ياسر عرفات.

(٢) يتسحاق رابين.

(٣) يوهان يورغن هولست.

(٤) المصـــدر: Institute for Palestine Studies, The Palestinian-Israel Peace Agreement: A Documentary Record (Washington, D.C.: IPS, 1993), pp.12 - 13.

وتعتبر م.ت.ف. أن توقيع «إعلان المبادىء» يشكل حدثاً تاريخياً ويفتح عهداً جديداً من التعايش السلمي خالياً من العنف وجميع الأعمال الأُخرى التي تهدد السلام والاستقرار. واستناداً إلى هذا، فإن م.ت.ف. تنبذ (renounces) اللجوء إلى الإرهاب وأعمال العنف الأُخرى وستتحمل مسؤولية جميع عناصر وموظفي م.ت.ف. كي تضمن إذعانهم وتمنع الخروقات وتتخذ الإجراءات التأديبية بحق المخالفين.

وبالنظر إلى الوعد بعصر جديد وإلى توقيع «إعلان المبادىء»، واستناداً إلى القبول الفلسطيني لقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨، فإن م.ت.ف. تؤكد أن بنود الميثاق [الوطني] الفلسطيني التي تنكر على إسرائيل حق الوجود، وفقراته التي لا تتلاءم مع الالتزامات الواردة في هذه الرسالة، ستصبح ملغاة وغير سارية المفعول بعد الآن. وبالتالي، فإن م.ت.ف. تتعهد بعرض التعديلات الضرورية المتعلقة بالميثاق الفلسطيني على المجلس الوطني الفلسطيني للحصول على موافقته الرسمية عليها.

المخلص: ياسر عرفات
رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

من رئيس م.ت.ف. ياسر عرفات إلى وزير الخارجية النرويجي يوهان يورغن هولست:

عزيزي الوزير هولست،

أود أن أؤكد لكم أنني لدى التوقيع على «إعلان المبادىء» سأضمِّن تصريحاتي العلنية المواقف التالية:

في ضوء العصر الجديد المتَّسم بتوقيع «إعلان المبادىء» تشجع م.ت.ف. الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتدعوه إلى أن يأخذ دوراً في الخطوات المؤدية إلى تطبيع الحياة، ورفض العنف والإرهاب، والمساهمة في السلام والاستقرار، والمشاركة بفاعلية في تشكيل إعادة الإعمار والتنمية الاقتصادية والتعاون.

المخلص: ياسر عرفات
رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

من رئيس الحكومة الإسرائيلية يتسحاق رابين إلى رئيس م.ت.ف. ياسر عرفات:

السيد الرئيس،

رداً على رسائلكم المؤرخة في ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣، أود أن أؤكد لكم أنه في ضوء التزامات م.ت.ف. الواردة في رسالتكم، قررت حكومة إسرائيل الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للشعب الفلسطيني، وبدء المفاوضات مع م.ت.ف. ضمن إطار عملية السلام في الشرق الأوسط.

يتسحاق رابين

رئيس الحكومة الإسرائيلية

الملحق رقم ٥

البنود الرئيسية في اتفاق «اوسلو (ب)»

الاتفاق المرحلي بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، يشكل مرحلة جديدة وهامة في الانتقال من حالة النزاع إلى المصالحة بين إسرائيل والشعب الفلسطيني وكذلك بين إسرائيل والدول العربية.

الاتفاق، هو جزء من مسيرة السلام التي بدأت في كامب ديفيد عام ١٩٧٨ بهدف التوصل في نهاية الأمر، إلى إحلال سلام في المنطقة كلها، واستؤنفت في اكتوبر ١٩٩١ في مدريد وجاء التعبير عن الانطلاق في العلاقات الإسرائيلية ـ الفلسطينية في إعلان المبادىء حول التسويات المرحلية الخاصة بالحكم الذاتي الذي وقع في ١٣ أيلول ١٩٩٣.

في هذا الإعلان، حددت المبادىء التي بموجبها ستسير العلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين في فترة مرحلية مدتها خمس سنوات إلى حين تطبيق التسوية الدائمة.

في أعقاب الاعلان المذكور، تم حتى الآن تطبيق عدة اتفاقيات أولية، بما في ذلك اتفاق غزة، أريحا في ٤ أيار ١٩٩٤ والذي انسحبت بموجبه قوات الجيش الإسرائيلي من قطاع غزة ومنطقة أريحا وتم نقل الصلاحيات المدنية في هاتين المنطقتين إلى السلطة الفلسطينية واتفاقيات أخرى جرى بموجبها نقل صلاحيات محدودة في مدينة أخرى، في جميع أنحاء الضفة الغربية إلى السلطة الفلسطينية.

كل هذه الاتفاقيات، تستبدل بواسطة الشروط التي نص عليها الاتفاق المرحلي.

إن الهدف الرئيسي للاتفاق المرحلي، هو توسيع منطقة الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية بواسطة سلطة منتخبة للحكم الذاتي. المجلس الوطني هذا المجلس، يوفر للفلسطينيين إمكانية إدارة شؤونهم الداخلية بأنفسهم وتقليل نقاط الاحتكاك بين الإسرائيليين والفلسطينيين وبدء عهد جديد من التعاون والتعايش المرتكزين إلى مصالح مشتركة واحترام متبادل وفي نفس الوقت؛ حماية المصالح الحيوية لإسرائيل، وبخاصة المصالح الأمنية سواء بالنسبة للأمن الخارجي، أو بالنسبة للأمن الشخصي لمواطنيها في الضفة الغربية.

عـــــــام:

يقع الاتفاق المرحلي بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطيني شاملاً الملاحق الخاصة به في ٤٠٠ صفحة، ويرسم مستقبل العلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين وهناك ستة ملاحق للاتفاق الرئيسي، تتعلق بالمواضيع التالية:

ترتيبات أمنية انتخابات إدارة مدنية (نقل الصلاحيات) مواضيع قضائية علاقات اقتصادية وتعاون إسرائيلي ـ فلسطيني.

نص الاتفاق على أن يتم انتخاب مجلس فلسطيني لمرحلة انتقالية، لا تزيد عن خمس سنوات، من تاريخ التوقيع على اتفاق غزة ـ أريحا (أي، ليس بعد أيار ١٩٩٦) تبدأ المفاوضات حول التسوية الدائمة، ليس بعد أيار ١٩٩٦.

تعالج المفاوضات حول التسوية الدائمة، المواضيع التي لا تزال عالقة بما فيها القدس، اللاجئون المستوطنات، الترتيبات الأمنية، الحدود، العلاقات والتعاون مع دول مجاورة وما شابه ذلك.

المجلس الفلسطيني:

يتسلم المجلس الفلسطيني الذي سيتشكل بعد الانتخابات، صلاحيات ومجالات مسؤولية في شؤون أمنية ومدنية في الضفة الغربية وغزة على النحو التالي:

مع تشكيل المجلس، تنسحب الإدارة العسكرية الإسرائيلية ويتم حل الإدارة المدنية.

يتولى المجلس مسؤولية كافة الحقوق والواجبات في المجالات التي سيتم نقلها إليه.

في نفس الوقت، تحتفظ إسرائيل بالمسؤوليات والصلاحيات التي لم تنقل إلى المجلس.

يتمتع المجلس الذي يتألف من ٨٢ عضواً، بصلاحيات التشريع والتنفيذ.

ينص الاتفاق على أن يتولى المجلس بكامله صلاحيات التشريع، في حين تكون صلاحيات التنفيذ منوطة بلجنة تابعة للمجلس، السلطة التنفيذية.

تتألف هذه اللجنة من أعضاء المجلس، بالإضافة إلى عدد قليل من الموظفين الذين سيتم تعيينهم.

تطبيق صلاحيات المجلس على كافة الأمور الواقعة ضمن مجال مسؤوليته، لا يتمتع المجلس بصلاحيات تتعلق بالعلاقات الخارجية. ومع ذلك لا يتعلق الاتفاق بعدد من المجالات التي تستطيع منظمة التحرير إجراء مفاوضات بشأنها والتوقيع عليها، بواسطة المجلس الفلسطيني «اقتصاد، دول مانحة، وتطوير إقليمي».

الانتخابـــات:

يكون المجلس هيئة منتخبة وبناء على ذلك ينص الاتفاق على ترتيبات

لإجراء انتخابات ديمقراطية للمجلس، يشترك فيها كافة الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، ممن تزيد أعمالهم على ١٨ سنة والذين أدرجت أسماؤهم في السجلات السكانية.

تجري الانتخابات بعد ٢٢ يوماً من استكمال إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي المرتبط بخروج قواته من مناطق مكتظة بالسكان في الضفة الغربية.

تكون الانتخابات للمجلس فردية وإقليمية، وفي المقابل تجري انتخابات منفردة لمنصب رئيس السلطة التنفيذية التابعة للمجلس.

لا يقبل ترشيح أي شخص، أو حزب، أو ائتلاف أحزاب، إذا كان المرشح، الحزب، أو الائتلاف المذكورون، يمثلون آراء عنصرية أو يعملون ضد القانون، أو بصورة غير ديمقراطية.

الفلسطينيون، سكان القدس، يستطيعون الاشتراك في الانتخابات وفق الترتيبات الخاصة المفصلة في الاتفاق يتم التصويت في صناديق توضع خارج القدس، وبواسطة مغلفات خاصة ترسل من مكاتب البريد إلى لجنة الانتخابات المركزية.

كل مواطن أو مواطنة فلسطينيين، لديهم عنوان في القدس ويرغبون في ترشيح أنفسهم لانتخابات المجلس الفلسطيني، يحق لهم ذلك، إذا كان لديهم عنوان آخر ساري المفعول في الضفة الغربية أو قطاع غزة فقط.

تخضع كافة مراحل عملية الانتخابات لإشراف دولي، من أجل ضمان أن تكون الانتخابات حرة وعادلة.

بناء على طلب الأطراف وافق الاتحاد الأوروبي على تنسيق عملية الإشراف على الانتخابات.

يتألف وفد المراقبين من ممثلين عن الدول والمنظمات الدولية التالية: الاتحاد الأوروبي، الأمم المتحدة، الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد الروسي،

كندا، مصر، اليابان، الأردن، النرويج، جنوب أفريقيا، دول عدم الانحياز منظمة الوحدة الأفريقية والمؤتمر الإسلامي.

أمن وإعادة انتشار:

يعيد الجيش الإسرائيلي انتشاره في الضفة الغربية وفقاً للجدول الزمني المحدد في الإتفاق، في المرحلة الأولى المخصصة لتوفير إمكانية إجراء الانتخابات، ينسحب الجيش الإسرائيلي من المناطق المكتظة بالسكان، في الضفة الغربية، المدن الست (جنين، نابلس، طولكرم، قلقيلية، رام الله، وبيت لحم (في مدينة الخليل تطبق ترتيبات أمنية خاصة، وفقاً لما ورد في الإتفاق) و٤٥٠ بلدة وقرية.

في نهاية عملية إعادة الانتشار، لن يكون هناك تواجد تقريباً للجيش الإسرائيلي في التجمعات السكانية الفلسطينية.

بشكل عام، تحتفظ إسرائيل بالمسؤولية الشاملة عن الأمن الخارجي وأمن المواطنين الإسرائيليين والمستوطنات في أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة.

فيما يتعلق بالأمن الداخلي والنظام العام، نص الاتفاق على ترتيبات مختلفة في ثلاث أنواع من المناطق: المنطقة أ ـ تشمل المدن ألست المذكورة أعلاه.

في هذه المدن يتمتع المجلس الفلسطيني بالمسؤولية الكاملة عن الأمن الداخلي والنظام العام، وبكامل الصلاحيات المدنية.

المنطقة ـ ب ـ تشمل البلدات والقرى الفلسطينية في الضفة الغربية.

في هذه المنطقة التي يسكنها حوالي ٦٨٪ من السكان الفلسطينيين، يتمتع المجلس الفلسطيني بكامل الصلاحيات المدنية على غرار ما هو مطبق في المنطقة ـ أ ـ يكون المجلس مسؤولاً عن المحافظة على النظام العام، في حين تتولى إسرائيل المسؤولية الأمنية الشاملة، من أجل حماية مواطنيها ومحاربة الإرهاب. هذه المسؤولية تكون لها الأولوية على المسؤولية الفلسطينية الخاصة بحفظ النظام العام.

تقام ٢٥ مركز شرطة فلسطينية في البلدات من تنفيذ صلاحياتها في الحفاظ على النظام العام.

يتضمن الاتفاق بنوداً تنص على أن يتم تنسيق تحركات الشرطة الفلسطينية مع إسرائيل والحصول على موافقتها.

المنطقة ـ ج ـ تشمل المناطق غير المأهولة، المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية بالنسبة لإسرائيل والمستوطنات اليهودية.

في هذه المنطقة، تحتفظ إسرائيل بالمسؤولية الكاملة عن الأمن والنظام العام. في حين يتولى المجلس الفلسطيني. أثناء هذه الفترة، من عملية إعادة الانتشار الجديدة، يتم نقل أجزاء أخرى من المنطقة ج إلى منطقة المسؤولية الإقليمية للمجلس الفلسطيني ومع استكمال مراحل عملية إعادة الانتشار، تغطي المسؤولية الإقليمية للمجلس الفلسطيني كامل منطقة الضفة الغربية، باستثناء المناطق التي سيتم تحديد المسؤولية الإقليمية فيها، أثناء المفاوضات حول التسوية الدائمة «المستوطنات، وقواعد الجيش الإسرائيلي وغيرها».

السياسة الأمنية للمجلس الفلسطيني:

نص الاتفاق على تشكل قوة شرطة قوية، يبلغ تعدادها ١٢ ألف شرطي بحيث تكون القوة الأمنية الفلسطينية الوحيدة، ويتضمن الملحق الأمني للاتفاق تفاصيل تتعلق بانتشار قوة الشرطة، تجهيزاتها وطريقة عملها، كما نص الملحق الأمني على التزام إسرائيل والمجلس الفلسطيني بشأن التعاون في محاربة الإرهاب ومنع وقوع عمليات إرهابية وفقاً للإطار التالي:

أ ـ الشرطة الفلسطينية هي السلطة الأمنية الفلسطينية الوحيدة.

ب ـ الشرطة الفلسطينية، تعمل بصورة منتظمة ضد كل مظاهر العنف والإرهاب.

ج ـ يصدر المجلس الفلسطيني تصاريح تهدف إلى تنظيم عملية اقتناء

الأسلحة وحملها من قبل المواطنين المدنيين وفقاً للقانون. الأسلحة غير القانونية تجري مصادرتها من قبل الشرطة الفلسطينية.

د ـ الشرطة الفلسطينية، تعتقل وتقيم دعاوى ضد المتهمين بتنفيذ أعمال عنف وإرهاب.

بموجب هذا الاتفاق يعمل الجانبان من أجل ضمان معالجة فورية فعالة ومؤثرة لكل حادث ينطوي على خطر أو تنفيذ عملية إرهاب أو عنف. أو تحريض، سواء نفذها فلسطينيون، أو إسرائيليون ولتحقيق هذا الهدف، يتعاون الطرفان في تبادل المعلومات وتنسيق سياستهما ونشاطاتهما.

يتم تشكيل لجان لشؤون الأمن الجاري، بهدف التنسيق بين الجيش الإسرائيلي والشرطة الفلسطينية. تعمل المكاتب الإقليمية على مدار الأربع وعشرين ساعة، تتولى دوريات مشتركة ضمان حركة حرة وآمنة على طرق محددة في المنطقة أ. ويتم استخدام وحدات متنقلة مشتركة كقوة رد سريع في حالة وقوع حوادث وحدات طارئة.

نقل الصلاحيات ومجالات المسؤولية المدنية:

يحدد الاتفاق ترتيبات نقل الصلاحيات ومجالات المسؤولية المدنية المتفق عليها، من الإدارة المدنية إلى المجلس.

في المنطقة ج، تنقل إلى المجلس الصلاحيات ومجالات المسؤولية، التي لا تتعلق بالسيطرة على الأرض.

الصلاحيات ومجالات المسؤولية المتعلقة بالسيطرة على الأرض يجري نقلها تدريجياً بشكل يتفق مع عملية إعادة الانتشار في هذه المناطق، ويخضع نقل صلاحيات ومجالات مسؤولية مدنية أخرى، لشروط مفصلة، تضمن حقوق الإسرائيليين في الأرض، واستمرار تقديم الخدمات (كهرباء، ماء، اتصالات، وما شابه) إلى المستوطنات.

حرية حركة الإسرائيليين:

يواصل الجيش الإسرائيلي والمواطنون الإسرائيليون التنقل بحرية على طرق الضفة الغربية وغزة، في المنطقة أ، تقوم دوريات مشتركة بمرافقة الآليات الإسرائيلية.

لا يحق للشرطة الفلسطينية توقيف أو التحقيق مع مواطنين إسرائيليين في أي حالة، ويسمح لها فقط أن تطلب منهم إبراز وثائق شخصية ووثائق تتعلق بالسيارات.

في حالة الدوريات المشتركة، يجري طلب الأوراق الثبوتية «من الإسرائيلي» من قبل الجانب الإسرائيلي للدورية فقط.

إلغاء الميثاق الوطني:

يضمن الاتفاق طلباً بشأن إلغاء البنود الواردة في الميثاق الفلسطيني التي تدعو إلى تدمير إسرائيل، في غضون شهرين من تاريخ تشكيل المجلس الفلسطيني.

البحث عن المفقودين:

يتعاون الطرفان ويساعد أحدهما الآخر، في البحث عن المفقودين، ويزود أحدهما الآخر بمعلومات موضوعية.

مواضيع قانونية:

تضمن الملحق القانوني للاتفاق الترتيبات المتعلقة بالعلاقات القانونية بين إسرائيل والمجلس الفلسطيني كما يتضمن الملحق تحديداً لمجالات القانون الجنائي والمدني للمجلس ويشمل ترتيبات للمساعدة القانونية في شؤون جنائية وقضائية بما فيها تعاون في التحقيقات الشرطية.

أماكن مقدسة:

تنقل المسؤولية عن الأماكن المقدسة في الضفة الغربية وغزة إلى الجانب الفلسطيني.

في المنطقة ج، يتم نقل المسؤولية تدريجيا، خلال مرحلة الانتشار من جديد الثانية باستثناء المواضيع التي ستبحث في المفاوضات حول التسوية الدائمة.

يحمي ويحترم الطرفان الحقوق الدينية لليهود، والمسيحيين، والمسلمين، والسامريين، وعليهم الاهتمام بما يلي:

أ ـ حماية الأماكن المقدسة.

ب ـ ضمان حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة.

ج ـ ضمان حرية العبادة والصلاة.

الأماكن المقدسة لليهود، واردة بالتفصيل في قائمة مشمولة بالاتفاق.

يضمن الاتفاق حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وحرية العبادة فيها، كما يتضمن ترتيبات الوصول إلى الأماكن المقدسة الواقعة في المنطقتين أ وب.

فيما يتعلق بقبر راحيل في بيت لحم، وقبر يوسف في نابلس، تضمن الاتفاق ترتيبات خاصة، لضمان حرية الوصول والعبادة فيهما.

الخليل:

في ضوء الوجود اليهودي في قلب الخليل، والجوانب التاريخية والدينية الحساسة المتعلقة بذلك تطبق في هذه المدينة ترتيبات خاصة.

وهذه الترتيبات تسمح للشرطة الفلسطينية باستخدام صلاحياتها في كل ما يتعلق بالسكان الفلسطينيين، في حين تحتفظ إسرائيل، في نفس الوقت، بالصلاحيات ومجالات المسؤولية لتوفير الحماية للمواطنين الإسرائيليين في الخليل ولزوار الأماكن المقدسة.

يعيد الجيش الإسرائيلي انتشاره من جديد، في الخليل، باستثناء الأماكن والطرق التي تدعو الحاجة إلى ترتيبات لضمان أمن الإسرائيليين وحرية حركتهم، على أن تستكمل عملية إعادة الانتشار هذه ليس بعد أكثر من ٦ أشهر من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق.

تظل إسرائيل مسؤولة عن الأمن العام للمواطنين الإسرائيليين بهدف المحافظة على الأمن الداخلي، وعلى النظام العام.

الوضع الراهن في الحرم الإبراهيمي يبقى حالياً على ما هو عليه، ويكون هنالك وجود دولي مؤقت في الخليل.

حقوق الإنسان:

ينص الاتفاق على أن تقوم إسرائيل والمجلس الفلسطيني بتنفيذ واجباتهما، وتطبيق صلاحياتهما من خلال التمسك بالمعايير الدولية لحقوق الإنسان وسلطة القانون مع التزامهما بتوفير الحماية للجمهور، واحترام الغير، ومنع الإزعاج.

الميـــــاه:

يتضمن الاتفاق التزاماً إسرائيلياً بزيادة كميات المياه المخصصة للفلسطينيين بـ ٢٨ مليون متر مكعب وكل تخصيص إضافي لأحد الطرفين، يجب أن يعتمد على زيادة موارد المياه الممكنة التي سيتم تطويرها بمساعدة مصادر تمويل دولية وقنوات دولية، من ضمنها الندوة الأمريكية ـ الإسرائيلية ـ الفلسطينية، التي ستعقد أول اجتماع لها بعد التوقيع على الاتفاق المرحلي، كما نص الاتفاق على تشكيل لجنة مشتركة لشؤون المياه، تتولى إدارة الموارد المائية، وتفرض السياسة المتعلقة بالمياه، مع حماية مصالح الطرفين، من خلال منع حفر آبار بصورة غير مراقبة، وفرض أنظمة وما شابه ذلك.

الإفراج عن المعتقلين:

بغية خلق أجواء إيجابية، أثناء تطبيق هذا الاتفاق، وتعزيز الثقة المتبادلة وإنشاء قاعدة للتعاون المشترك بين الشعبين تفرج إسرائيل عن معتقلين فلسطينيين على ثلاث مراحل وفقاً للترتيب التالي:

المرحلة الأولى ـ فور التوقيع على الاتفاق.

المرحلة الثانية ـ عشية الانتخابات للمجلس الوطني.

المرحلة الثالثة ـ وفقاً لمبادىء أخرى يتم تحديدها بصورة منفردة.

عدد المعتقلين الذين سيتم الإفراج عنهم، ورد بالتفصيل ضمن الاتفاق، تشكل لجنة إسرائيلية ـ فلسطينية مشتركة للبحث في تفاصيل الإفراج عن المعتقلين.

تعاون وعلاقات اقتصادية:

الفصل الاقتصادي الوارد ضمن اتفاق غزة. أريحا أدرج ضمن الاتفاق المرحلي، وما ورد في ملاحقه، شاملاًما نص على إقامة وحدة اقتصادية واحدة لغايات الجمارك وسياسة الاستيراد ينطبق من الآن فصاعداً على كل مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة.

إضافة إلى ذلك، هناك فصل كامل يتطرق إلى التعاون المشترك بين إسرائيل والمجلس الفلسطيني.

يلتزم الطرفان بالتعاون بشأن المشاريع التي توجد فيها علاقة مع موظفين، مؤسسات، وقطاع خاص، في مجالات مختلفة اقتصادية، علمية، ثقافية، اجتماعية.

يتم تشكيل لجنة دائمة لتنمية هذا التعاون.

يتركز التعاون المشترك في خمسة مجالات رئيسية: «البيئة، الاقتصاد، التكنولوجيا، العلوم، الحوار، والعلاقات بين الشعبين».

التعليم والسلام:

يحدد الاتفاق العلاقات بين إسرائيل والمجلس الفلسطيني.

يعمل الطرفان من أجل تعزيز التفاهم والتسامح، ومنع التحريض والدعاية المعادية ويستخدمان الوسائل القانونية المتوفرة لديهما، لمنع التحريض من جانب جماعات أو أفراد.

المصــــادر

١ ـ فوللرس وجوبيه [الأزهر] ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون/ دار الكتاب اللبناني/ بيروت ١٩٨٤ .

٢ ـ الروض الانف للمحدث ابي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله/ ج١ مكتبة الكليات الأزهرية/ القاهرة (وهو تعليق على سيرة ابن هشام) .

٣ ـ ابن باز (نص فتوى)/ جريدة الحياة، لندن، عدد ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٤ .

٤ ـ ابن بشر عثمان بن عبد الله النجدي (عنوان المجد في تاريخ نجد) مكة المكرمة ١٣٤٩هـ/ ج١ .

٥ ـ احمد امين/ ضحى الاسلام/ ج٣، ط١٠/ دار الكتاب العربي/ بيروت ـ لبنان، دون تاريخ .

٦ ـ أحمد حسين يعقوب/ نظرية عدالة الصحابة والمرجعية السياسية في الاسلام ـ شركة شمس المشرق، بيروت ١٩٩٢ .

٧ ـ أحمد الشقيري/ الهزيمة الكبرى/ بيروت ١٩٧٣ ، دار العودة .

٨ ـ أحمد عبد الغفور عطار/ محمد بن عبد الوهاب/ ط٢/ ١٩٩٦ ، القاهرة، دون دار نشر .

٩ ـ أحمد الوائلي/ هوية التشيع/ دار الكتاب الاسلامي/ قم ـ ايران، ط٢/ ١٣٩٢هـ .

١٠ ـ أسامة بن لادن/ الرد على فتوى إبن باز/ مجلة روز اليوسف ـ مصر/ عدد ٣٤٧٨/ ٦/ شباط/ ١٩٩٥ .

١١ ـ أسعد رزوق/ التلمود والصهيونية/ دار الناشر ـ بيروت ١٩٩١ .

١٢ ـ آلان تايلور/ مدخل الى اسرائيل/ دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

١٣ ـ كامب ديفيد وثائق وردود فعل/ الاعلام المركزي للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة .

١٤ ـ الامام الخميني ـ الامام القائد في مواجهة الصهيونية/ مقتطفات من احاديث ونداءات/ وزارة الارشاد الاسلامي ـ طهران ١٤٠٣هـ.

١٥ ـ الامام في مواجهة الصهيونية/ ترجمة خضر نور الدين ـ مركز إعلام ـ الذكرى الخامسة، طهران ١٤٠٣هـ.

١٦ ـ مجلة الأمان/ العدد ١٤٩/ ٣١/ آذار/ ١٩٩٥ .

١٧ ـ أنور عبد الملك/ مصر ـ مجتمع يبنيه العسكريون ـ ١٩٦٥، القاهرة، مكتبة الخانجي .

١٨ ـ توفيق الحكيم/ حياة محمد/ مسرحية/ دار الهلال ـ القاهرة، ط١، ١٩٥٤ .

١٩ ـ جعفر السبحاني/ الوهابية في الميزان/ مؤسسة النشر الاسلامي ـ قم ١٩٨٦ .

٢٠ ـ جعفر كاشف الغطاء «كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء» ط٣، بيروت ١٩٨٥ .

٢١ ـ حسين ابن غنام/ روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام، القاهرة، ١٩٨٦ .

٢٢ ـ خير الله سعيد/ النظام الداخلي لحركة اخوان الصفا/ دار كنعان ـ دمشق، ١٩٩٢ .

٢٣ ـ خير الدين الزركلي/ شبه الجزيرة العربية في عهد ابن سعود/ ج١، بيروت .

٢٤ ـ زهير غزاوي : حول مشروع النظام الشرق أوسطي الجديد ـ المنتجون ـ جريدة عمالية ـ طرابلس، ليبيا، ١٨٥٦ .

٢٥ ـ سانت جون فلبي/ تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب السلفية، ترجمة عمر الديراوي/ الاهلية للنشر، بيروت، بلا تاريخ .

٢٦ ـ سعد الأنصاري، الفقهاء حكام على الملوك، دار الهدى، بيروت ١٩٨٦ .

٢٧ ـ سليم الحسني: المعالم الجديدة للمرجعية الشيعية، دراسة وحوار مع السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ١٩٩٣ .

٢٨ ـ سمير أرشدي ورياض عواد/ الاستيطان والصهيونية/ دار عواد، ١٩٩١، دمشق .

٢٩ ـ سليمان بن عبد الوهاب/ الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، القاهرة، مطبعة نخبة الأخبار ١٨٨٦ .

٣٠ ـ سليمان ناجي/ زحف الطاعون المزمن، الحركات اليهودية عبر التاريخ، دار النبراس، دمشق ١٩٨٠ .

٣١ ـ صائب عبد الحميد/ ابن تيمية حياته وعقائده/ دار الغدير، بيروت، بلا تاريخ .

٣٢ ـ صبحي الصالح، النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها، بيروت ١٩٧٥ .

٣٣ ـ الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار الجماهيرية، طرابلس، ١٩٩١ .

٣٤ ـ طلال مجذوب، ايران من الثورة الدستورية الى الثورة الاسلامية، دار ابن رشد، بيروت، ١٩٨٢ .

٣٥ ـ عابد توفيق الهاشمي/ عقيدة اليهود في تملك فلسطين، مكتبة أم القرى، القاهرة ١٩٩٠ .

٣٦ ـ عامر عبد الله/ آراء في ملامح النظام الإقليمي الجديد، منشورات نادي الكتاب العربي، لندن ١٩٩٤ .

٣٧ ـ عبد الحسين الأميني/ كتاب الغدير .

٣٨ ـ عبد الرحمن ابو زهرة/ محاضرات في النصرانية ـ بيروت ١٩٧١ ، بدون دار نشر .

٣٩ ـ عبد الرحمن سامي عصمة/ الصهيونية والماسونية/ ط٢، الاسكندرية، ١٩٥١ ، بدون دار نشر .

٤٠ ـ عبد الرحمن الهادي/ سلطة النص، قراءات في توظيف النص الديني/ بيروت ١٩٩٣ ، المركز الثقافي العربي للنشر .

٤١ ـ عبد الرحمن مراد، عز الدين بن عبد السلام، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٤ .

٤٢ ـ عبد الرحمن ناصر الشمراني/ فيصل القاتل والقتيل/ بيروت، دار الانسان ١٩٨٨ .

٤٣ ـ عبد الرزاق عيد، طه حسين العقل والدين، بحث في اشكالية المنهج، مركز الانماء الحضاري، حلب ١٩٩٥ .

٤٤ ـ عبد العزيز محمد الشناوي، الأزهر جامعاً وجامعة، مكتبة الأنكلو المصرية ١٩٨٣ .

٤٥ ـ عيد عباس/ السلفية وموقفها من الحركات الاخرى، تعليق ناصر الالباني ـ دار الايمان، الاسكندرية، بلا تاريخ .

٤٦ ـ عبد الله الغريفي/ التشيع/ دار الملاك، بيروت ١٩٩٥ .

٤٧ ـ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، في عقائد الاسلام، دار الأمان الجديدة، بيروت ١٩٨٦ .

٤٨ ـ عبد الله النجدي العصيمي/ الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم ـ القاهرة ١٩٣٤ ، مطبعة التضامن الأخوي .

٤٩ ـ علي الجوهري/ بروتوكلات حكماء صهيون، مكتبة امين، سيناء، القاهرة ١٩٩٣.

٥٠ ـ عماد الدين اسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن، دار الأندلس، بيروت ١٩٦٦.

٥١ ـ عمر حسين حمادة، شهادات ماسونية، دمشق، دار قتيبة.

٥٢ ـ فارس شرعان، الطوفان واسرائيل الكبرى، ط١، ١٩٩٠، عمان.

٥٣ ـ فاروق مساهل، التعامل التجاري مع اليهود في الاسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥.

٥٤ ـ فاسيليف، تاريخ العربية السعودية، دار التقدم، موسكو، ترجمة خيري الضامن ١٩٨٦.

٥٥ ـ فهمي هويدي/ من يسبح ضد التيار، مجلة الجهاد، طرابلس ١٩٨٩.

٥٦ ـ القس اكرم لمعي/ الاختراق الصهيوني للمسيحية/ دار الشروق ـ بيروت ١٩٩١.

٥٧ ـ كامل سعفان/ اليهود تاريخ وعقيدة/ دار الاعتصام ـ القاهرة، بلا تاريخ.

٥٨ ـ مالك بن نبي/ الظاهرة القرآنية/ ترجمة عن الفرنسية، عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العروبة، بيروت ١٩٩١.

٥٩ ـ مايكل روز وآخرون/ ليس في جيناتنا ـ سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

٦٠ ـ محسن الأمين الحسيني العاملي/ كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب/ دمشق، ابن زيدون ١٩٥٣.

٦١ ـ محسن الأمين الحسيني العاملي/ في رحاب أئمة أهل البيت، دار التعارف، بيروت ١٩٨٠.

٦٢ ـ محمد باقر الصدر (الشهيد)/ نشأة الشيعة والتشيع، دار الغدير، بيروت ١٩٩٥.

٦٣ ـ محمد بحر العلوم/ الاجتهاد واصوله واحكامه، بيروت، دار الزهراء ١٩٧٧.

٦٤ ـ محمد بهجت الأثري/ محمد بن عبد الوهاب، داعية التوحيد والتجديد، الرياض ١٩٨٤.

٦٥ ـ محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ ـ ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٥٨.

٦٦ ـ محمد حسين الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، ايران، قم ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢.

٦٧ ـ محمد حسين فضل الله/ مجلة الموسم، عدد خاص ١٩٩٥.

٦٨ ـ مخابرات عامة/ بداية الحركة الصهيونية في مصر العربية ـ قسم الدراسات، دمشق.

٦٩ ـ محمد سعيد رمضان البوطي، الرد على فتوى ابن باز، الدرس التاسع والخمسون في سلسلة دراسات السيرة النبوية، جامع دنكز، دمشق (منشور مطبوع).

٧٠ ـ محمد عبد الله عنان/ تاريخ الجامع الازهر، ط٢، القاهرة، مؤسسة الخانجي ١٩٥٨.

٧١ ـ محمد عبد المنعم خفاجي/ الازهر في الف عام، القاهرة، ١٩٨٨، مكتبة الكليات الازهرية.

٧٢ ـ محمد عوض الخطيب/ صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، دار المعراج، ١٩٩٥.

٧٣ ـ محمد كامل ضاهر/ الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الاسلامي الحديث، دار السلام، بيروت ١٩٩٣.

٧٤ ـ محمد الحسيني/ الامام الصادق سطور ساخنة، مجلة دار الاسلام، لندن، ١٩٩٦.

٧٥ ـ محمد الصدر، تاريخ الغيبة الكبرى/ مكتبة الامام علي الكبرى، اصفهان، ايران، بلا تاريخ.

٧٦ ـ محمد مهدي الخالصي/ جريدة الشرق الاوسط، لندن، العدد ٥٨٨١، تاريخ ٤/١/١٩٩٥.

٧٧ ـ محمود الشاذلي/ السلام عليكم، دراسة في أدبيات النظام الاسرائيلي/ ١٩٩٢، مكتبة وهبة ـ القاهرة.

٧٨ ـ موريس بوكاي/ دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، ط١، ١٩٩١.

٧٩ ـ موسى العلمي/ عبرة فلسطين، ١٩٤٩/ بيروت، بلا دار نشر.

٨٠ ـ نسيب ابو مكارم/ مسلك التوحيد/ بيروت، ١٩٨٠، دون دار نشر.

٨١ ـ نظام عباس/ العلاقات النازية الصهيونية واثرها على فلسطين وحركة التحرير العربي، الكويت، ١٩٨٤.

٨٢ ـ هادي المدرسي/ الصراع الاسلامي الاسرائيلي/ مؤسسة الوفاء ١٩٨٣.

٨٣ ـ هشام الدجاني/ اليهودية والصهيونية/ دار الحدائق، دمشق ١٩٨٥.

٨٤ ـ باحوم جلودمان/ اسرائيل الى اين/ مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

٨٥ ـ يوري ايفانوف/ احذروا الصهيونية/ منشورات نوفوستي ١٩٦٩.

الفهـــرس

○ الفصل الثالث :

المؤسسة الدينية الاسلامية ، والانظمة الحاكمة ، دراسة مقارنة

الملاحـــــق

مركز الغدير للدراسات الاسلامية

١ ـ ابن تيمية حياته وعقائده	الاستاذ صائب عبد الحميد
٢ ـ ابن تيمية في صورته الحقيقية	الاساذ صائب عبد الحميد
٣ ـ التشيع نشأته ومعالمه	الاستاذ هاشم الموسوي
٤ ـ حوار في العمق من اجل التقريب الحقيقي	الاستاذ صائب عبد الحميد
٥ ـ دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار	الاستاذ سليم الحسني
٦ ـ زيد بن علي ومشروعية الثورة عند أهل البيت(ع)	الشيخ نوري حاتم
٧ ـ على خطى أهل البيت(ع)	الاستاذ هاشم الموسوي
٨ ـ لماذا أنا شيعي؟	الشيخ محمد حسين الفقيه
٩ ـ مع الدكتور موسى الموسوي في كتابه الشيعة والتصحيح	الدكتور علاء الدين القزويني
١٠ ـ مفهوم البداء في الفكر الاسلامي	الاستاذ هاشم الموسوي
١١ ـ مفهوم التقية في الفكر الاسلامي	الاستاذ هاشم الموسوي
١٢ ـ منتخب فضائل النبي(ص) وأهل بيته(ع)	تقديم الدكتور محمد بيومي مهران وانتخاب وتحقيق لجنة من المحققين
١٣ ـ نشأة الشيعة والتشيع : للامام الشهيد الصدر	تحقيق وتعليق الدكتور عبد الجبار شرارة
١٤ ـ المؤسسات الدينية الاسلامية والكيان الصهيوني	الدكتور زهير الغزاوي

□ **تحت الطبع :**

الوطن الاسلامي بين السلاجقة والصليبيين	الاستاذ حسن الامين
على طريق الوعي الجديد	الاستاذ الاسعد بن علي

